البيان والتبيين

لأبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب

الجاحظ

« كتب الجاحظ تعلم العقل ، أولا ، والأدب ثانيا »
ابن العميد

مصدر بترجمة للجاحظ مستفيضة

بقلم محققه وشارحه

حسن السندوبي
صاحب جريدة الثمرات

الجزء الاول

الطبعة الاولى — حق الطبع محفوظ

١٣٤٥ — ١٩٢٦

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر
لصاحبها مصطفى محمد

(المطبعة التجارية الكبرى شارع عابدين حارة فايد رقم ٣)

الجاحظ *

نسبه وكنيته

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء . وانما لقب « الجاحظ » لجحوظ عينيه أي بروزهما ، وقد يقال له « الحدقي » لكبر حدقتيه أيضاً

وكان جده محبوب رجلا أسود وكان جمالا لعمرو بن قلع ، وكان هو مولى للقلمّس بن عمرو بن قلع الكناني الفقيمي الليثي

مقامه ومنزلته

ويعد الجاحظ سيد كتاب العربية بلا منازع ، وشيخ أدباء العرب بلا مدافع ، وإمام ذوي اللسن والبيان وأهل الفصاحة والكلام . وكان من محاسن الدنيا ومفاخر الاسلام

مولده ومنشاؤه

ولد بالبصرة حوالى سنة ١٥٩ هـ ٧٧٥ م ونشأ ببغداد وأخذ علومه ومعارفه عن شيوخ البلدين وجلّة علمائهم وصفوة أهل الكلام فيهما . وتخصص في مذاهب الاعتزال على استاذه أبي اسحق ابرهيم بن سيار النظام ، وحدث عن يزيد بن هرون والسري بن عبدويه وأبي يوسف القاضي والحجاج بن محمد بن حماد بن سلمة . وعنه روى أبو بكر عبدالله بن داود السجستاني ومحمد بن عبد الله بن أبي الدهاب وأبو العباس محمد بن يزيد المبرد ويموت بن المزرع ابن أخته ، اعني ابن اخت الجاحظ

---

* عن الحيوان والبيان والتبيين للجاحظ . وتأويل مختلف الحديث لابن قتيبة . ومروج الذهب للمسعودي . والأغاني لأبي الفرج الاصبهاني . وأمالي السيد المرتضى . واعجاز القرآن للباقلاني . والملل والنحل للشهرستاني . وأمالي لأبي علي القالي . والانساب للسمعاني . والفرق بين الفرق للبغدادي . والانتصار للخياط . وسرح العيون لابن نباتة المصري . ومعجم الادباء لياقوت . ووفيات الأعيان لابن خلكان . وشرح الصلاح الصفدي على لامية العجم . وطبقات الاطباء لابن أبي أصيبعة . وزهر الآداب للحصري . وبغية الوعاة للسيوطي . وثلاث رسائل طبعت حديثاً بالمطبعة السلفية . ومتفرقات شتى في كتب الأدب والتاريخ

معارفه

أتقن فنونا كثيرة ، ويظهر أنه تعلم الفارسية وأجادها ، وقرأ كتب الفلاسفة من اليونان والفرس والروم والهند ، ونظر في علوم الاوائل ، ولم ينقل كتاب حتى عهده الى العربية في أي علم وفي أي فن الا قرأه وتمثله . وكان كثير الحفظ ، واسع الرواية ، قوي الحجة ، ناصع البرهان . ملأت تصانيفه الآفاق وانتفع بها الخلق ، وعمت فوائدها حتى لقد قيل : مما فضل الله به أمة محمد ﷺ على غيرها من الامم : عمر بن الخطاب بسياسته ، والحسن البصرى بعلمه ، والجاحظ ببيانه

صحبته بابن الزيات

وكان منقطعا الى الوزير محمد بن عبد الملك الزيات ، منحرفا عن احمد بن أبي دؤاد لما كان بين محمد واحمد من الشنآن . فلما قُبض على محمد بن الزيات هرب الجاحظ فقيل له : لم هربت ؟ فقال : خفت ان أكون ثاني اثنين اذ هما في التنّور

يشير الى التنور الذى صنعه ابن الزيات وجعل فيه مسامير ليعذب به خصومه فعذب هو فيه حتى مات

الجاحظ وابن أبي دوأد

ولما أُتى بالجاحظ الى احمد بن أبي دؤاد بعد موت ابن الزيات دخل عليه مغلول العنق بسلسلة، مقيدالرجلين، في قميص سمل ؛ فلما وقع نظر ابن أبي دؤاد عليه قال : والله ماعلمتك الا متناسيا للنعمة ، كفوراً للصنيعة ، مَعْدِناً للمساوي ، وما قصرتُ باستصلاحي لك ، ولكن الايام لاتصلح منك لفساد طويتك ، ورداءة دخلتك ، وسوء اختيارك ، وغالب طبعك . فقال الجاحظ : خفِّض عليك ايدك الله ، فوالله لأن يكون لك الامر علي خير من أن يكون لى عليك ، ولان ا سيء وتحسن أحسن في الأحدوثة عنك من أن أحسن وتسيء ، ولا ن تعفو عني في حال قدرتك أجمل بك من الانتقام مني . فقال ابن أبي دؤاد : قبحك الله ، فوالله ماعلمتك الا كثير تزويق اللسان ، وقد جعلتَ بيانك أمام قلبك ثم اضطغنت فيه النفاق والكفر . ياغلام ، صر به الى الحمام وأمط عنه الأذى

فنزع عنه الغل والقيد وأدخل الحمام وحمل اليه تخت من ثياب وطويلة وخف ،

فبس ذلك ثم جده فصدره في مجلسه ثم اقبل عليه وقال : هات الآن حديثك يا أبا عثمان

مذهبه في الاعتزال

تفرد الجاحظ بآراء خاصة في علم الكلام ، واختص بمذهب في الاعتزال ، وصار شيخ فرقة من فرق المعتزلة تسمى « الجاحظية » نسبة اليه . ومما تفرد به القول بأن المعرفة طباع . وهي مع ذلك فعل العبد على الحقيقة . وقوله في سائر الافعال انها تنسب الى العبد على انها وقعت منهم طباعا ، وانها وجبت بارادتهم ، وليس بجائز أن يبلغ أحد ولا يعرف الله تعالى . والانسان بين معاند وبين عارف قد استغرقه حبه لمذهبه وعصبيته، فهو لايشعر بما عنده من المعرفة بخلافه

وتحدث عن نفسه فقال : قلت لأبى يعقوب الخزيمي : من خالق المعاصي ؟ قال الله . قلت : فمن عذب عليها ؟ قال : الله . قلت : فلم ؟ قال : لا أدرى والله

* * *

وقد ثارت بينه وبين مخالفيه في الرأي من الملاحدة والمرجئة والرافضة مناظرات عنيفة، ومحاولات حادة، تناولوه فيها بكل أنواع الشنع، ولكن النصر كان من نصيبه، والظفر في جانبه ؛ ولم تقف هجمات خصومه عليه في حياته بل استمرت واشتدت بعد وفاته . غير أن أنصاره تمكنوا من رد تلك الهجمات ودحض هاتيك الخصومات . فهذا أبو الحسين الخياط روى في كتابه « الانتصار » مهاجمات لابن الراوندي تناول فيها بالطعن الجارح عقيدة الجاحظ، وكيف عقب الخياط على هذه المطاعن والمثالب بردها على صاحبها ابن الراوندي . فمما رواه الخياط قوله : ثم قال (يعني ابن الراوندي) :

وأما الجاحظ فانه يقول « انه محال أن يُعدم الله الاجسام بعد وجودها ، وان كان أوجدها بعد عدمها » قال : ومتى استحال أن يعدم الجسم بعد وجوده ، استحال أيضاً وجوده بعد عدمه . وهذا كذب على الجاحظ عظيم وذلك أن قول الرجل انما يعرف بحكاية أصحابه عنه أو بكتبه ، فهل وجد هذا القول فى كتاب من كتبه ؟ فإن كتب عمرو الجاحظ معروفة مشهورة فى أيدى الناس . أو هل حكاه عنه أحد من أصحابه ؛

فاذا كان الرجل ميتاً فكتبه وأصحابه تخبر بخلاف ماقرفه به هذا الماجن الكذاب ، فقد تبين كذبه وبهته وجهله . ومن بعد ، فمن قرأ كتاب عمرو الجاحظ فى الرد على المشبهة ، وكتابه فى الاخبار وإثبات النبوة ، وكتابه فى نظم القرآن، علم أن له فى الاسلام غَناء عظيما لم يكن الله عز وجل ليضيعه له

قلت : لعمري إن القول ببقاء المادة وعدم تلاشيهاقد أصبح فى عصرنا هذامذهبا معروفا يسلم به ويدين بصحة أسسه الكثير من اكابر العلماء وفحولهم فى أوربا وغيرها ، ولهم على صحته من الادلة والبراهين العلمية المبنية على البحث والاستقراء ما لا سبيل الى دفعه أو إضعافه ، إلا اذا جاء الزمن من الاكتشافات بما لم يخطر على بال ، فينتصر المذهب الروحي على المذهب المادي ؟ فاذا كان الجاحظ قد ارتآى هذا الرأي كان له فضل السبق اليه والقول به منذ احد عشر قرنا

ثم قال صاحب « الانتصار » فيما يرد به على ابن الراوندى : وأما رميك للجاحظ ببغض الرسول فهو دليل على انك لاتعرف المحب من المبغض، ولا الولى من العدو ، لانه لايعرف المتكلمون أحداً منهم نصر الرسالة واحتج للنبوة بلغ فى ذلك مابلغه الجاحظ . ولا يعرف كتاب فى الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه وأنه حجة لمحمد ﷺ على نبوته غير كتاب الجاحظ . وهذه كتبه فى إثبات الرسالة وكتبه فى تصحيح مجيء الاخبار مشهورة . وهل يستدل على حب الرسول ﷺ والايمان به وتصديقه فيما جاء به بشيء اؤكد مما يستدل به على حب الجاحظ الرسول وتصديقه إياه ؟

***

ومما ثلبه به خصومه تقرباً الى العامة والحشوة :

قال ابن قتيبة : ثم نصير الى الجاحظ ، وهو آخر المتكلمين والمعاير على المتقدمين ، وأحسنهم للحجة استثارة ، وأشدهم تلطفاً لتعظيم الصغير حتى يعظم ، وتصغير العظيم حتى يصغر ، ويبلغ به الاقتدار الى أن يعمل الشيء ونقيضه ، ويحتج بفضل السودان على البيضان ، وتجده يحتج مرة للعثمانية على الرافضة ، ومرة للزيدية على العثمانية وأهل السنة . ومرة يفضل علياً رضي الله عنه ومرة يؤخره . ويقول :

فابس ذلك ثم جاءه فصدره في مجلسه ثم اقبل عليه وقال : هات الآن حديثك يا أبا عثمان

مذهبه في الاعتزال

انفرد الجاحظ بآراء خاصة في علم الكلام ، واختص بمذهب في الاعتزال ، وصار شيخ فرقة من فرق المعتزلة تسمى « الجاحظية » نسبة اليه . ومما تفرد به القول بان المعرفة طباع، وهي مع ذلك فعل العبد على الحقيقة . وقوله في سائر الافعال انها تنسب الى العباد على انهـا وقعت منهم طباعا ، وانها وجبت بارادتهم ، وليس بجائز أن يبلغ أحـد ولا يعرف الله تعالى . والكفار عنده بين معاند وبين عارف قد استغرقه حبه لمذهبه وعصبيته، فهو لايشعر بما عنده من المعرفة بخلافه

وتحدث عن نفسه فقال : قلت لأبى يعقوب الخزيمي : من خلق المعاصي ؟ قال : الله . قلت : فمن عذب عليها ؟ قال : الله . قلت : فلم ؟ قال : لا أدرى والله

* * *

وقـد ثارت بينه وبين مخالفيه فى الرأي من الملاحـدة والمرجئة والرافضة مناظرات عنيفة، ومحاولات حادة، تناولوه فيها بكل أنواع الشنع، ولكن النصر كان من نصيبه ، والظفر في جانبه ؛ ولم تقف هجمات خصومه عليه في حياته بل استمرت واشتدت بعد وفاته . غير أن أنصاره تمكنوا من رد تلك الهجمات ودحض هاتيك الخصومات . فهذا أبو الحسين الخياط روى في كتابه « الانتصار » مهاجمات لابن الراوندي تناول فيها بالطعن الحارح عقيدة الجاحظ، وكيف عقب الخياط على هذه المطاعن والمثالب بردها على صاحبهـا ابن الراوندي . فما رواه الخياط قوله : ثم قال (يعنى ابن الراوندي) :

وأما الجاحظ فانه يقول « انه محال أن يُعدم الله الاجسام بعد وجودها ، وان كان أوجدها بعد عدمها » قال : ومتى استحال أن يعدم الجسم بعد وجوده ، استحال أيضاً وجوده بعد عدمه . وهذا كذب على الجاحظ عظيم وذلك أن قول الرجل انما يعرف بحكاية أصحابه عنه أو بكتبه ، فهل وجد هذا القول فى كتاب من كتبه ؟ فإن كتب عمرو الجاحظ معروفة مشهورة فى أيدى الناس . أو هل حكاه عنه أحد من أصحابه ؟

فاذا كان الرجل ميتاً فكتبه وأصحابه تخبر بخلاف ماقرفه به هذا الماجن الكذاب ، فقد تبين كذبه وبهته وجهله . ومن بعد ، فمن قرأ كتاب عمرو الجاحظ فى الرد على المشبهة ، وكتابه فى الاخبار وإثبات النبوة ، وكتابه فى نظم القرآن، علم أن له فى الاسلام غَناء عظيما لم يكن الله عز وجل ليضيعه له

قلت : لعمري إن القول ببقاء المادة وعدم تلاشيها قد أصبح فى عصرنا هذا مذهبا معروفا يسلم به ويدين بصحة أسسه الكثير من اكابر العلماء ونحوهم فى أوربا وغيرها ، ولهم على صحته من الادلة والبراهين العلمية المبنية على البحث والاستقراء ما لا سبيل الى دفعه أو إضعافه ، إلا اذا جاء الزمن من الاكتشافات بما لم يخطر على بال ، فينتصر المذهب الروحي على المذهب المادي ؟ فاذا كان الجاحظ قد ارتآى هذا الرأي كان له فضل السبق اليه والقول به منذ احد عشر قرنا

ثم قال صاحب « الانتصار » فيما يرد به على ابن الراوندى : وأما رميك للجاحظ ببغض الرسول فهو دليل على انك لاتعرف المحب من المبغض، ولا الولى من العدو ، لانه لايعرف المتكلمون أحداً منهم نصر الرسالة واحتج للنبوة بلغ فى ذلك مابلغه الجاحظ . ولا يعرف كتاب فى الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه وأنه حجة لمحمد ﷺ على نبوته غير كتاب الجاحظ . وهذه كتبه فى إثبات الرسالة وكتبه فى تصحيح مجيء الاخبار مشهورة . وهل يستدل على حب الرسول ﷺ والايمان به وتصديقه فيما جاء به بشيء اؤكد مما يستدل به على حب الجاحظ الرسول وتصديقه إياه ؟

***

ومما ثلبه به خصومه تقرباً الى العامة والحشوة :

قال ابن قتيبة : ثم نصير الى الجاحظ ، وهو آخر المتكلمين والمعاير على المتقدمين ، وأحسنهم للحجة استثارة ، وأشدهم تلطفاً لتعظيم الصغير حتى يعظم ، وتصغير العظيم حتى يصغر ، ويبلغ به الاقتدار الى أن يعمل الشيء ونقيضه ، ويحتج بفضل السودان على البيضان ، وتجده يحتج مرة للعثمانية على الرافضة ، ومرة للزيدية على العثمانية وأهل السنة . ومرة يفضل علياً رضي الله عنه ومرة يؤخره . ويقول :

قال رسول الله ﷺ ويتبعه قال الجماز ، وقال اسمعيل بن غزوان كذا ، كذا من الفواحش ، ويجل رسول الله ﷺ عن أن يذكر في كتاب ذكرا فيه ، فكيف في ورقة أو بعد سطر أو سطرين ؟

ويعمل كتاباً يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين، فاذا صار الى الرد عليهم تجوز في الحجة كأنه إنما أراد تنبيههم على مالا يعرفون ، وتشكيك الضعفة من المسلمين. وتجده يقصد في كتبه للمضاحيك والعبث يريد بذلك استمالة الاحداث وشراب النبيذ ، ويستهزيء من الحديث استهزاء لايخفى على أهل العلم، كذكره كبد الحوت، وقرن الشيطان ، وذكر الحجر الاسود ، وأنه كان أبيض فسوده المشركون وقد كان يجب أن يبيضه المسلمون حين اسلموا . ويذكر الصحيفة التى كان فيها المُنْزَلُ في الرضاع تحت سرير عائشة فأكلتها الشاة ، وأشياء من أحاديث أهل الكتاب في تنادم الديك والغراب ، ودفن الهدد في رأسه ، وتسبيح الضفدع ، وطوق الحمامة وأشباه هذا . وهو مع هذا من أكذب الأمة وأوضعهم لحديث وأنصرهم لباطل

وروي عن أبي عمرو أنه جرى ذكر الجاحظ في مجلس أبي العباس احمد بن يحيى فقال : امسكوا عن ذكر الجاحظ فانه غير ثقة

وقال الازهري : كان الجاحظ روى عن الثقات ماليس فى كلامهم ، وكان قد أوتى بسطة في لسانه ، وبياناً فى خطابه ، ومجالا واسعاً في فنون ، غير أن أهل العلم و لمعرفة ذموه ، وعن الصدق دفعوه

وقال البديع الهمذاني في المقامة الجاحظية :

إن الجاحظ في أحد شقي البلاغة يقطف ، وفي الآخر يقف ، والبليغ من لم يقصر نظمه عن نثره ، ولم يُزر كلامه بشعره ، فهل ترون للجاحظ شعراً رائقاً ؟ قلنا : لا . قال : فهلموا الى كلامه : فهو بعيد الاشارات ، قريب العبارات ، قليل الاستعارات ، منقاد لعريان الكلام يستعمله ، نفور من معتاصه يهمله ، فهل سمعتم له بكلمة غير مسموعة ، أو لفظة غير مصنوعة ؟

وقال المسعودي : وزعم الجاحظ أن نهر مُكران الذي هو نهر السند من النيل ، ويستدل على أنه من النيل بوجود التماسيح فيه ، فلست أدري كيف وقع له هذا

الدليل ؟ وذكر ذلك في كتابه « الامصار » وهو كتاب في نهـاية الغثاثة ، لأن الرجل لم يسلك البحار ، ولا أكثر الاسفار ؟ ولا تعرف المسالك والاقطار ، وإنما هو حاطب ليل ينقُل من كتب الوراقين

قلت : ليس المسعودي من أؤلئـك الذين اشرنا الى أنهم إنما يقصدون بثلب الجاحظ القربى الى العـامة والحشوة ، ولكنه عالم ينظر فيما هو مخصص به من فروع العلوم والمعارف . ولا شك في أن الحق في هذه المسئلة فى جانبه . وقد أذكرتنى طعنة المسعودي فى الجاحظ طعنة مثلها للجاحظ فى الخليل بن احمد .

رأي الجاحظ في الخليـل

قال الجاحظ : إن الخليل بن احمد من أَجَلّ إحسانه فى النحو والعروض ، وضع كتابا في الايقاع وتراكيب الاصوات ، وهو لم يعالج وتراً قط ، ولامس بيده قضيباً قط ، ولاكثرت مشاهدته للمغنين . وكتب كتاباً في الكلام ولو جهـد كل بليغ في الارض أن يتعمد ذلك الخطأ والتعقيد لمـا وقع له ذلك ، ولو ان ممروراً استفرغ قوى مرته في الهذيان لما تهيأ له مثل ذلك منه ، ولا يتأتى ذلك لأحد إلا بخذلان من الله تعالى

قلت : وهذا من طريف الاتفاقات ، ولعل الله قيض المسعودي ليقول فى الجاحظ ما قال الجاحظ فى الخليل بن أحمد « والجروح قصاص »

* * *

ومن آراء العارفين فيه :

قال أبو العباس محمد بن يزيد المبرِّد : ما رأيت أحرص على العـلم من ثلاثة : الجاحظ ، والفتح بن خاقان ، واسماعيل بن اسحق القاضى . فأما الجاحظ فانه كان إذا وقع بيده كتاب قرأه من أوله الى آخره ، أي كتاب كان . . . الخ

وكتب الفتح بن خاقان إلى الجاحظ كتاباً يقول فى فصل منه :

ان أمير المؤمنين يجد بك ويهش عند ذكرك . ولولا عظمتك فى نفسه، لعلمك ومعرفتك ، لحال بينك وبين بعدك عن مجلسه ، ولغصبك رأيك وتدبيرك فيما أنت مشغول به ، ومتوفر عليه . ولقد كان ألقى إليَّ من هذا عنوانه ، فزدتك في نفسه زيادة

كف بها عن تجشيمك . فاعرف لي هذه الحال ، واعتقد هذه المنة على كتاب « الرد على النصارى » وافرغ منه وعجل به إليّ ، وكن ممن جـدابه على نفسه ، وتنـال مشاهرتك . قد استطلقته لما مضى ، واستسلفت لك لسنة كاملة مستقبلة ، وهذا مما لم تحتكم به نفسك . وقد قرأت رسالتك في « بصيرة غنام » ولولا اني أزيد في مخيلتك لعرفتك مايعتريني عند قراءتها والسلام

وكان الرئيس ابو الفضل بن العميد من المعجبين بالجاحظ ، المتوفرين على كتبه ومصنفاته ، المغترفين من بحار علومه وآدابه ، الذاهبين مذهبه في أسلوبه وكتابه ، حتى لقـد كان يلقب أحياناً « بالجاحظ الثاني » قال أبو القاسم السيرافي : حضرنا مجلس الاستاذ أبي الفضل بن العميد الوزير فجرى ذكر الجاحظ فغض بعض الحاضرين منه وأزرى به ، وسكت الوزير عنه ، فلما خرج الرجل قلت له : سكتَّ أيها الاستاذ عن هذا الرجل في قوله ، مع عادتك في الرد على أمثاله ؟ فقال : لم أجد في مقابلته أبلغ من تركه على جهـله ، ولو واقفته وبينت له لنظر في كتبه وصار بذلك إنساناً يا أبا القاسم ، فكُتُب الجاحظ تعلم العقل أولا ، والأدب ثانياً ، ولم استصلحه لذلك

وقال القاضي ابن خلكان : الجاحظ صاحب التصانيف في كل فن ، وله مقالة في أصول الدين . ومن أحسن تصانيفه وأمتعها كتاب الحيوان ، فلقـد جمع فيه كل غريبة ، وكذلك « البيان والتبيين » وهي كثيرة جداً . وكان مع فضائله مشوه الخلق

شيء من أخباره ونوادره

وللجاحظ أخبار شائقة ، ونوادر فئقة ، وأحاديث رائقة ، وكان مع جده وجلالة مقامه ، وسمو منزلته ، ومع مواقفه المشهورة في الجدل والتناظر ، ومع مجالدته خصومه بقوة لسنه ، ومتانة بيانه ، كان مع هذا كله ميالا إلى الملح واللطائف ، والنكت والطرائف والتندر والعبث ، والسخرية والهزء ، لا يبالى ان يدون النكتة وأن يرويها ولو كان فيها ما يتناول سمته ، ويمس جلاله ، ويأخذ من حلى وقاره . فمن ذلك ما حـدث به عن نفسه فقال :

ذُكِرت المتوكل لتأديب بعض ولده فلما رآني استبشع منظرى ، فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني ، فخرجت من عنده فلقيت محمد بن ابرهيم وهو يريد الانصراف

الى مدينة السلام فعرض على الخروج معه والانحدار في حراقته ، وكنا بسُر مَن رآى، فركبنا في الحراقة فلما انتهينا الى فم نهر انقاطول نصب ستارة وأمر بالغناء ، فاندفعت عوادة فغنت :

كل يوم قطيعةٌ وعتابُ　　ينقضي دهرنا ونحن غضاب
ليت شعري أنا خُصصت بهـذا　　دون ذا الخلق أم كذا الأحباب ؟

وسكتت ، فأمر الطنبورية فغنت :

وا رحمتـا للعاشقيـنا　　ما إن أرى لهم معيـنا
كم يُهجرون ويُصرمو　　ن ويقطعون فيصبرونا؟

فقالت لها العوادة : فيصنعون ماذا ؟ قالت : هكذا يصنعون . وضربت بيدها الى الستارة فهتكتها وبرزت كأنها فلقة قمر فألقت نفسها في المـاء ، وعلى رأس محمد غلام يضاهيها في الجمال وبيده مِذبة فأتى الموضع ونظر اليها وهي تمر بين الماء وأنشد :

أنت التي غرقتني　　بعد القضا لو تعلمينا

وألقى نفسه في أثرها ، فأدار الملاح الحراقة فاذا بهما معتنقان ، ثم غاصا فلم يُريا . فاستعظم محمد ذلك وهاله أمرهما ثم قال : ياعمرو ، لتحدثني حديثاً يسليني عن فعل هذين وإلا ألحقتك بهما . قل : فحضرني حديث يزيد بن عبد الملك وقد قعد للمظالم يوماً وعرضت عليه القصص فمرت به قصة فيها : إن رآى أمير المؤمنين أن يخرج إليّ جاريته فلانة حتى تغنيني ثلاثة أصوات فعل . فاغتاظ يزيد من ذلك ، وأمر مَن يخرج اليه ويأتيه برأسه ، ثم اتبع الرسول رسولا آخر يأمره أن يُدخل اليه الرجل فأدخله فلما وقف بين يديه قال له : ما الذي حملك على ماصنعت ؟ قال : الثقة بحلمك، والاتكال على عفوك . فأمره بالجلوس حتى لم يبق أحد من بني أمية إلا خرج ، ثم أمر فأخرجت الجارية ومعها عودها ، فقال لها الفتى : غني :

أفاطم مهـلا بعض هـذا التدلل　　وإن كنت قدأزمعت صرمي فأجملي

فغنته . فقال له يزيد : قل . فقال : غني :

تألق البرق نجدياً فقلت له　　ياأيها البرق إني عنك مشغول

فغنته . فقال له يزيد : قل . فقال

به ، فما استتم شربه حتى وثب وصعد على أعلى قبة ليزيد فرمى نفسه على دماغه فمات . فقال يزيد : إنا لله وإنا اليه راجعون ، أتراه الأحمق الجاهل ظن أني أخرج اليه جاريتي وأردها الى ملكي ؟ ياغلمان ، خذوها بيدها واحملوها الى أهله ، إن كان له أهل ، وإلا فبيعوها وتصدقوا عنه بثمنها . فانطلقوا بها الى أهله ، فلما توسطت الدار نظرت الى حفيرة في وسط دار يزيد قد أعدت للمطر فجذبت نفسها من أيديهم وأنشدت:

مَن مات عشقاً فليمت هكذا　　لاخير في عشق بلا موت

وألقت نفسها في الحفيرة على دماغها فماتت . فسُرِّي عن محمد وأجزل صلتي

وقال : أتيت منزل صديق لي فطرقت الباب فخرجت اليَّ جارية سندية فقلت : قولي لسيدك ، الجاحظ بالباب . فقالت : أقول ، الجاحد بالباب ؟ على لغتها. فقلت: لا ، قولي : الحدقي بالباب. فقالت : أقول ، الحلقي ؟ فقلت لاتقولي شيئاً . ورجعت

وقال مرة : ما أخجلني أحد مثل امرأتين ، رأيت إحداهما في العسكر، وكانت طويلة القامة، وكنت على طعام، فأردت أن أمازحها فقلت :إنزلي كلي معنا . فقالت : إصعد أنت حتى ترى الدنيا . وأما الاخرى فانها أتتني وأنا على باب داري فقالت : لي اليك حاجة وأريد أن تمشي معي . فقمت معها الى أن أتت بي إلى صائغ يهودي وقالت له : مثل هذا . وانصرفت : فسألت الصائغ عن قولها فقال : انها أتت اليَّ بفص وأمرتني أن أنقش لها عليه صورة شيطان، فقلت لها: ياستي مارأيت الشيطان ؟ فأتت بك وقالت ماسمعت

وقال : دخلت ديوان المكاتبات ببغداد، فرأيت قوماً قد صقلوا ثيابهم ،وصفوا عمائمهم، ووشوا طُرُزهم ، ثم اختبرتهم فوجدتهم كما قال الله تعالى .فأما الزَّبَدُ فيذهبُ جفاء ؛ ظواهر نظيفة ، وبواطن سخيفة ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون

وقال : وقفت يوماً على قاض فأردت الولع به، فقلت لمن حوله : إنه رجل صالح لايحب الشهرة . فتفرقوا عنه . فنظر اليَّ وقال : حسبك الله ؟

وقال : قلت يوماً لعُبيد الكلابي : أيسرك أن تكون هجيناً ولك ألف دينار؟ فقال : لا أحب اللؤم بشيء . قلت : فإن أمير المؤمنين ابن أمةٍ ؟ فقال : أخزى الله

من أطاعه . قلت: نبيا الله اسماعيل ومحمد ابني أمةٍ ؟ فقال : لايقول هذا إلا قدري.
قلت : وما القدري ؟ قال : لا أدري ، الا إنه رجل سوء

وقال : أتاني بعض الثقلاء فقال : سمعت ان لك ألف جواب مسكت ، فعلمنى منها . فقلت : نعم . فقال : إذا قال لي شخص : يازوج القحبة ، ياثقيل الروح ، أى شيء أقول له ؟ قلت : قل له ، صدقت

وسأله بعضهم كتاباً الى بعض أصحابه بالوصية به ، فكتب له رقعة وختمها ، فلما خرج الرجل من عنده فضها فاذا فيها : كتابى اليك مع من لا أعرفه ولا أوجب حقه ، فان قضيت حاجته لم أحمدك ، وإن رددته لم أذمك . فرجع الرجل اليه فقال الجاحظ : كأنك فضضت الورقة ؟ قال : نعم . قال : لايَضيرك مافيها فانه علامة لي إذا أردت العناية بشخص . فقال الرجل : قطع الله يديك ورجليك ولعنك؟ فقال الجاحظ : ماهذا ؟ قال : علامة لي اذا أردت أن أشكر شخصاً

وقال : نزلت على صديق لي فلم آكل عنده لحماً ، فعرّضت له فقال : اني لا أكثر من اللحم منذ سمعت الحديث : ان الله يكره البيت اللَّحِمَ . فقلت : ياأخي ، انما أراد البيت الذي تؤكل فيه لحوم الناس بالغيبة ؟ فلم يؤخر حضور اللحم من ذلك اليوم

قلت : وهذه من معابث الجاحظ

..

نخب من رسائله الخاصة

كتب الى محمد بن عبد الملك الزيات ، وكان قد تنكر له :

اعاذك الله من سوء الغضب ، وعصمك من سرَف الهوى ، وصرف ما أعارك من القوة إلى حب الانصاف ، ورجح في قلبك إيثار الاناة ، فقد خفت ـ ايدك الله ـ أن اكون عندك من المنسوبين الى نزق السفهاء ، ومجانبة سبل الحكماء ،

وبعد ، فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :

وإن امرأ أمسَى وأصبح سالما من الناس إلا ما جنَى لسعيد

وقال الآخر

ومن دعا الناس الى ذمه ذموه بالحق وبالباطل

فان كنت اجترأت عليك ـ أصلحك الله ـ فلم اجترىء الا لان دوام تغافلك عنى شبيه بالاهمال الذى يورث الاغفال ، والعفو المتتابع يؤمن من المكافأة . ولذلك قال عيينة بن حصن بن حذيفة لعثمان رحمه الله : عمر كان خيراً لي منك ، أرهبنى فاتقانى ، وأعطانى فاغنانى . فان كنت لاتهب عقابي ـ ايدك الله ـ لخدمة سلفت لى عندك ، فهبه لاياديك عندى ، فان النعمة تشفع في النقمة ، وإلا تفعل ذلك لذلك فعُد إلى حسن العادة ، والا فافعل ذلك لحسن الاحدوثة ؛ والا فأت ما انت أهله من العفو ، دون ما أنا أهله من استحقاق العقوبة ؛ فسبحان من جعلك تعفو عن المتعمد ، وتتجافى عن عقاب المصر ، حتى اذا صرتَ الى من هفوته ذكر ، وذنبه نسيان ؛ ومن لايعرف الشكر الا لك ، والانعام الا منك ، هجمت عليه بالعقوبة .

واعلم ـ ايدك الله ـ أن شين غضبك عليّ كزين صفحك عنى ، وأن موت ذكرى مع انقطاع سببى منك كحياة ذكرى مع اتصال سببى بك . واعلم أن لك فطنة عليم ، وغفلة كريم ، والسلام

وكتب الى احمد بن أبي دؤاد يستعطفه فقال :

ليس عندى اعزك الله سبب ولا أقدر على شفيع ، الا ماطبعك الله عليه من الكرم والرحمة ، والتأميل الذى لايكون إلا من نتاج حسن الظن واثبات الفضل بحال المأمول ، وأرجو أن اكون من العتقاء الشاكرين ، فتكون خير معتب ، وأكون افضل شاكر ؛ ولعل الله أن يجعل هذا الامر سبباً لهذا الانعام ، وهذا الانعام سبباً للانقطاع اليكم ؛ والكون تحت أجنحتكم ، فيكون لا أعظم بركة ، ولا انمى بقية من ذنب أصبحت فيه ، وبمثلك ـ جعلت فداك ـ عاد الذنب وسيلة ، والسيئة حسنة . ومثلك من انقلب به الشر خيرا ، والغرم غنما

من عاقب فقد أخذ حظه ، وانما الاجر في الآخرة وطيب الذكر في الدنيا ، على قدر الاحتمال وتجرع المرائر . وأرجو أن لا أضيع واهلك فيما بين عقلك وكرمك . وما اكثر من يعفو عمن صغر ذنبه ، وعظم حقه ، وإنما الفضل والثناء العفو عن عظيم الجرم ، ضعيف الحرمة . وإن كان العفو العظيم مستطرفا من غيركم فهو تلاد فيكم ؛ حتى ربما دعا ذلك كثيراً من الناس الى مخالفة أمركم ، فلا أنتم عن

ذلك تنكلون ، ولا على سالف إحسانكم تندمون . وما مثلكم إلا كمثل عيسى ابن مريم حين كان لا يمر بملإ من بنى اسرائيل إلا أسمعوه شراً وأسمعهم خيراً ، فقال له شمعون الصفا : ما رأيت كاليوم ؟ كلما أسمعوك شراً أسمعتهم خيراً ؟ فقال : كل امرىء ينفق مما عنده . وليس في أوعيتكم الا الخير ، ولا فى أوعيتكم إلا الرحمة ،

وكل إناء بالذى فيه ينضح

وكتب يقول :

زينك الله بالتقوى ، وكفاك ما أهمك من الآخرة والاولى . من عاقب أبقاك الله تعالى على الصغيرة عقوبة الكبيرة ، وعلى الهفوة عقوبة الاصرار ، فقد تناهى في الظلم . ومن لم يفرق بين الاسافل والاعالى ، والادانى والاقاصي ، فقد قصر . والله لقد كنت أكره سرف الرضا مخافة أن يؤدى الى سرف الهوى ، فما ظنك بسرف الغيظ وغلبة الغضب من طياش عجول فحاش ، ومعه من الخرق بقدر قسطه من التهاب المرة الحمراء ؟ وأنت روح كما أنت جسم ، وكذلك جنسك ونوعك ، الا ان التأثر في الرقاق أسرع ، وضده في الغلاظ الجفاة أكمل ، ولذلك اشتد جزعي عليك من سلطان الغيظ وغلبته ؛ فاذا أردت أن تعرف مقدار الذنب اليك من مقدار عقابك عليه ، فانظر في علته ، وفي سبب اخراجه من معدنه الذى منه نجم ، وعشه الذى منه درج ، والى جهة صاحبه في التسرع والثبات ، والى حلمه عند التعريض ، وفطنته عند التوبة . فكل ذنب كان سببه ضيق صدر من جهة الغيض في المقادير ، أو من طريق الأنفة وغلبة طباع الحمية ، من جهة الجفوة أو من جهة استحقاقه فيما زين له عمله انه مقصر به في حقه ، مؤخر عن رتبته ، أو كان مبلغاً عنه مكذوباً عليه ، أو كان ذلك جائزاً فيه غير ممتنع منه . فاذا كانت ذنوبه من هذا الشكل فليس يقف عليها كريم ، ولا ينظر فيها حليم . ولست أسميه بكثرة معروفه كريماً ، حتى يكون عقله غامراً لعلمه ، وعلمه غالباً على طباعه ، كما لا أسميه بكف العقاب حليما ، حتى يكون عارفاً بمقدار ما أخذ وترك ؛ ومتى وجدت الذنب بعد ذلك لا سبب له الا البغض المحض ، والنفار الغالب فلو لم ترض لصاحبه بعقاب دون قعر جهنم لعذرك كثير من العقلاء ، ولصوب رأيك عالم من الاشراف . والأناة أقرب من الحمد وأبعد من الذم ، وأنآى من خوف العجلة .

وقد قال الاول : عليك بالاناة فانك على إيقاع ماتتوقعه أقدر منـك علي رد ماقد أوقعته . وليس يصارع الغضب أيام شبابه شيء إلا صرعه ، ولا ينازعه قبل انتهائه [منازع] الا قهره ، وإنما يحتال له قبل هيجه ، فمتى تمكن واستفحل ، وأذكى ناره واشتعل، ثم لاقى من صاحبه قدرة ، ومن أعوانه سمعاً وطاعة، فلو استبطنته بالتوراة ، وأوجرته بالانجيل ، ولددته بالزبور ، وأفرغت على رأسه القرآن إفراغاً ، وأتيته بآدم شفيعاً، لما قصر دون أقصى قوته. ولن يُسَكِّنَ غضبَ العبدإلا ذكره غضب الرب ،

فلا تقف ـ حفظك الله ـ بعد مضيك في عتابي التماساً للعفو عنى ، ولا تقصر عن إفراطك من طريق الرحمة بي ، ولـكن قف وقفة من يتهم الغضب على عقله ، والشيطان على دينه ، ويعلم أن للـكرم أعداء ، ويمسك امساك من لايبرىء نفسه من الهوى ، ولا يبرىء الهوى من الخطأ ، ولا تنكر لنفسك أن تزل ، ولعقلك أن يهفو . فقـد زل آدم عليه السلام وقد خلقه بيده . ولست أسألك الا ريثما تسكن نفسك ، ويرتد اليك ذهنك ، وترى الحلم وما يجلب من السلامة وطيب الاحدوثة ؛ والله يعلم وكفى به عليما

لقد أردت أن أفديك بنفسي فى مكاتباتي ، وكنت عند نفسي في عداد الموتى وفى حيز الهلـكى ، فرأيت ان من الخيـانة لك ، ومن اللؤم في معاملتك أن أفديك بنفس ميتة ، وأن أريك اني قد جعلت لك أنفس ذخر والذخر معدوم . وأنا أقول كما قال أخو ثقيف : مودة الأخ التالد وإن أخلق خير من مودة الاخ الطارف وإن ظهرت مساعدته وراقت جدته .

سلمك الله وسلم عليك، وكان لك ومعك

وكتب الى قليب المغربي يقول :

والله ياقليب لولا أن كبدى في هواك مقروحة ، وروحى بك مجروحة، لساجلتك هـذه القطيعة ، وماددتك حبل المصارمة ، وأرجو أن الله تعالى يديل صبرى من جفائك، فيردك الى مودتى وأنف القلى راغم ، فقـد طال العهد بالاجتماع حتى كدنا نتناكر عند الالتقاء

نبذ من شعره

وشعر الجاحظ وإن كان دون طبقته في البلاغة، ودون منزلته في الفصاحة، الا أننا لا يمكننا أن نترك هذه الترجمة دون إثبات ماعثرنا عليه منه

روى يموت بن المزرع هذه الابيات للجاحظ يهجو بها الجماز :

نسب الجماز مقصور اليه منتهاه
تنتهي الأحساب بالناس ولا يعدو قفاه
يتحاجى مَن أبو الجماز فيه كاتباه
ليس يدري مَن أبو الجماز الا من يراه

وروى له أبو العيناء هذه الابيات في الخضاب

زرت فتاة من بني هلال فاستعجلت إلىَّ بالسؤال :
مالي أراك قاني السبال كانما كرعتَ في جريال
ماينبغى مثلك من أمثالى تنح قدامي ومن حيالى

وقال

يطيب العيش ان تلقى حكيما غذاه العلم والفهم المصيب
فيكشف عنك حيرة كل جهل وفضل العلم يعرفه اللبيب
سَقام الحرص ليس له شفاء وداء الجهل ليس له طبيب

وقال

إن حال لون الرأس عن حاله ففي خضاب المرء مُستمتع
هب أن من شاب له حيلة فما الذى تُحنَى له الاضلع ؟

وروى له أبو الحسن البرمكي

وكان لنا أصدقاء مضوا تفانوا جميعاً وما خلدوا
تساقوا جميعاً كؤس المنون فمات الصديق ومات العدو

وله من أبيات فى المدح

بدا حين أثرى باخوانه ففلل عنهم شباة العدم
وذكره الحزم صرف الزمان فبادر قبل انتقال النعم
فتى خصه الله بالمكرمات فمازج منه الحيا بالكرم

مرضه وما قيل في سببه وما أحاط به

قال ابن أبي أصيبعة : نقلت من خط المختار بن الحسن بن بطلان ان أبا عثمان الجاحظ ويوحنا بن ماسويه : اجتمعا بغالب ظني على مائدة اسماعيل بن بلبل الوزير (قلت : الأقرب الى الصواب مارواه جمال الدين بن نباته المصري في شرحه على رسالة ابن زيدون من أن اجتماعهما كان على مائدة احمد بن أبي دؤاد) وكان في جملة ماقدم مضيرة بعد سمك ، فامتنع يوحنا من الجمع بينهما ، فقال له ابو عثمان : أيها الشيخ ، لايخلو أن يكون السمك من طبع اللبن أو مضاد له ، فان كان أحدهما ضد الآخر فهو دواء له ، وان كانا من طبع واحد فلنحسب أنا قد أكلنا من أحدهما الى ان اكتفينا ؟ فقال يوحنا : والله مالي خبرة بالكلام ، ولكن كل يا أبا عثمان وانظر مايكون في غد . فأكل ابو عثمان نصرة لدعواه ففلج في ليلته ، فقال : هذه والله نتيجة القياس المحال

وقال ابو العباس محمد بن يزيد المبرد : عدت الجاحظ فسمعته يقول : أنا من جانبي الايسر مفلوج فلو قرض بالمقاريض ماعلمت ؛ ومن جانبي الايمن منقرس فلو مربي الذباب لا لمت ، وبي حصاة لاينسرح لي البول معها ، وأشد ماعلي ست وتسعون

وقال يموت بن المزرّع (وهو ابن أخت الجاحظ) وجه المتوكل في السنة التي قتل فيها (٢٤٧) ان يحمل اليه الجاحظ من البصرة ـ وقد سأله الفتح بن خاقان ذلك ـ فوجده لافضل فيه ، فقال لمن أراد حمله : مايصنع بامرىء ليس بطائل ، ذي شق مائل ، ولعاب سائل ، وفرج بائل ، وعقل زائل ، ولون حائل ؟

وقال أبو معاذ عبدالله الخولي المتطبب : دخلنا يوما بسر من رآى على عمرو بن بحر الجاحظ نعوده وقد فلج ، فلما أخذنا مجالسنا أتى رسول المتوكل فيه فقال : وما يصنع أمير المؤمنين بشق مائل ، ولعاب سائل ؟ ثم أقبل علينا فقال : ما تقولون في رجل له شقان : أحدهما لو غرز بالمسال ما احس ، والشق الآخر يمر به الذباب فيغوّث ، وا كثر ما اشكوه الثمانون ؟ ثم أنشدنا أبياتا من قصيدة عوف بن محلم الخزاعي ـ قال ابو معاذ : وكان سبب هذه القصيدة ان عوفاً دخل على عبد الله

ابن طاهر ، فسلم عليه عبدالله فلم يسمع ، فأُعلم بذلك ، فزعموا أنه ارتجل هذه القصيدة ارتجالات فانشده :

يا ابنَ الذي دَان له المشرقان طرا وقد دَان له المَغربان
إن الثمانين وبُلِّغتها قد أحوجت سمعي إلى ترجُمان
وبدلتني بالشَّطاط انحِنَا وكنتُ كالصعدةِ تحت السنان
وبدلتني من زَمَاعِ الفتى وهمّي همَّ الجبان الهدان
وقاربت مني خُطا لم تكن مُقَاربات وثنت من عنان
وأنشأت بيني وبين الورى عَنانة من غير نسج العِنان
ولم تدع في لمستمتعٍ إلا لساني ، وبحسبي لسان
أدعو به الله وأثني به على الامير المُصعَبِيِّ الهِجان
فقرِّباني بأبي انتما من وطني قبل اصفرار البَنان
وقبل منعاى الى نسوة أوطانها حرَّان والرقتان

وقال بعض البرامكة : كنت تقلدت السند فأقمت بها ماشاء الله ثم اتصل بي اني صرفت عنها ، وكنت قد كسبت بها ثلاثين الف دينار فخشيت أن يفجأني الصارف فيسمع بمكان المال فيطمع فيه ، فصغته عشرة آلاف اهليلجة ، ولم يلبث الصارف ان أتى فركبت البحر وانحدرت الى البصرة ، فخبرت أن الجاحظ بها ، وانه عليل بالفالج ، فأحببت ان أراه قبل وفاته فصرت اليه فافضيت الى باب دار لطيف فقرعته فخرجت اليّ خادم صفراء فقالت : من انت ؟ فقلت : رجل غريب واحب أن أُسر بالنظر الى الشيخ . فبلغته الخادم ماقلت ، فسمعته يقول : قولي له : وما تصنع بشق مائل ، ولعاب سائل ، ولون حائل : فقلت للجارية : لابد من الوصول اليه . فلما بلغته قال : هذا رجل قد اجتاز بالبصرة وسمع بعلتي فقال أحب أن أراه قبل موته فاقول قد رأيت الجاحظ . ثم أذن لي فدخلت وسلمت عليه فرد رداً جميلا وقال : من تكون أعزك الله ؟ فانتسبت له فقال : رحم الله تعالى أسلافك وآباءك السمحاء الاجواد ، فلقد كانت ازمانهم رياض الازمنة ، ولقد انجبر بهم خلق كثير ، فسقيا لهم ورعياً . فدعوت له وقلت : أنا أسألك أن تنشدني شيئاً من شعرك ؟ فانشدني :

لئن قـدمت قبلى رجال فطالمـا   مشيت على رِسلى فـكنت المقدما
ولـكن هـذا الدهر تأتى صروفه   فتبرم منقوضا وتنقض مبرماً

ثم نهضت فلما قاربت الدهليز قال : يافتى ، أرأيت مفلوجا ينفعه الاهليلج ؟ قلت : لا . قال : فان الاهليلج الذى معك ينفعني ، فابعث لى منه . فقلت : نعم . وخرجت متعجبا من وقوفه على خبري مع كتمانى له ، و بعثت اليه مائة اهليلجة

وقال ابو طاهر : صرت الى الجاحظ ومعي جماعة ، وقد أسن واعتل في آخر عمره ، وهو فى منظرة له وعنده ابن خاقان جاره ، فقرعنا الباب فلم يفتح لنا وأشرف من المنظرة وقال : الا إنى قد حوقلت ، وحملت رميح أبى سعد ، وسقت الغنم(١) ، فما تصنعون بي ؟ سلموا سلام الوداع . فسلمنا وانصرفنا

وشكا يوماً لطبيبه علته فقال : قد اصطلحت الاضداد علىجسدي ، إن أكلت بارداً أخذ برجلي ، وإن أكلت حاراً أخذ برأسي

وما زال في علته هذه الى أن وقعت عليـه مجلدات العلم فمات رحمه الله في سنة ٢٥٥ هـ ٨٦٨ م

مؤلفاته

نثبت هنا ما أمكن العثور عليه من أسماء مؤلفاته

كتاب الحيوان
« البيان والتبيين
« البخلاء
« سلوة الخريف في مناظرة الربيع والخريف

مجموعة رسائل تحوى :
رسالة الحاسد والمحسود
« في مناقب الترك وعامة جند الخلافة
« « فخر السودان على البيضان
« « التربيع والتدوير

(١) حوقلت : اكثرت من قول لا حول ولا قوة الا بالله ، لتتابع الامراض . وقوله : رميح أبى سعد : هو رجل من العرب أسن فاستعان بالعصا ، وهو أول من فعل ذلك فقليل لـكل من شاخ : أخذ رميح أبى سعد . وقوله سقت الغنم : كناية عن الهرم ، لأن سائق الغنم يطأطيء من رأسه

رسالة في تفضيل النطق على الصمت
« « مدح التجار وذم عمل السلطان
« « العشق والنساء
« « الوكلاء
« « استنجاز الوعد
« « بيان مذاهب الشيعة
« « طبقات المغنين

أسماء ما ذكر منها فى كتاب الحيوان

كتاب حيل اللصوص
« غش الصناعات
« الملح والطرف
« احتجاج البخلاء (ويظهر انه السابق ذكره)

كتاب الصرحاء والهجناء
« مفاخرة السودان والحمران
« الزرع والنخل والزيتون والاعناب
« أقسام فضول الصناعات ومراتب التجارات
« فضل مابين الرجال والنساء
« القحطانية والعدنانية
« العرب والموالى
« العرب والعجم
« الاصنام
« المعادن

كتاب فرق مابين هاشم وعبد شمس
« فرق مابين الجن والانس
« فرق ما بين الملائكة والجن
« الأوفاق والرياضات
« الرسائل الهاشميات
« خلق القرآن
« الرد على المشبهة
« أصول الفتيا والاحكام
« الاحتجاج لنظم القرآن
« معارضة الزيدية
« الوعد والوعيد
« النصراني واليهودى
« الجوابات
« المسائل
« أصحاب الالهام
« الحجة في تثبيت النبوة
« الاخبار
« بصيرة غنام المرتد
« الرد على الجهمية
« فرق مابين النبى والمتنبي
« العباسية

رسالة في مفاخرة المسك والرماد (١)

ثلاث رسائل هي :

رسالة في الرد على النصارى

(١) أشار اليها الصلاح الصفدى فى شرحه على لامية العجم وقال انها رسالة بديعة

رسالة في ذم أخلاق الكتاب
« « القيان
عن كتاب الانتصار للخياط بعد حذف المكرر
كتاب أفعال الطبائع
« فضيلة المعتزلة
عن كتاب التاج

كتاب أخلاق الفتيان وفضائل أهل البطالة
ما نسب الى الجاحظ
« التاج في أخلاق الملوك . نسبه اليه احمد زكى باشا
« تنبيه الملوك والمكايد . أشار زكي باشا الي انه مما نسب اليه
« المحاسن والاضداد

هذه ما أعجل الوقت به من استخلاص ترجمة الجاحظ عن شتى الكتب ومختلف الاسفار مما لم يسبقنا اليه سابق ولله الحمد والمنة ؟

حسن السندوبي

القاهرة فى يوم الاحد { ١٧ ربيع الثاني سنة ١٣٤٥
٢٤ اكتوبر سنة ١٩٢٦ }

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الكريم وسلم

عونك اللهم وتيسيرك

اللهم إنّا نعوذ بك من فتنة القول، كما نعوذ بك من فتنة العمل: ونعوذ بك من التكلف لما لا نُحسِن، كما نعوذُ بك من العُجْبِ بما نُحسن. ونعوذ بك من السَّلاَطة والهَذَر(١) كما نعوذ بك من العِيِّ والحَصَر، وقديماً ما تعوّذوا بالله من شرّهما، وتضرعوا الى الله في السلامة منهما

وقد قال النَّمِرُ بنُ تَوْلَبٍ: (٢)

أعِذْنِي ربِّ مِنْ حَصَرٍ وَعِيٍّ ومن نَفْسٍ أعالجها عِلاجا

وقال الهُذَلِيُّ: (٣)

---

(١) السلاطة: البذاءة. والهذر: الاكثار من الكلام الفارغ

(٢) النمر بن تولب العكلي: شاعر مخضرم أسلم وحسن أسلامه، وكان من أجواد العرب المذكورين، وفرسانهم المشهورين، وكان شاعراً فصيحا وشجاعا كريما، لقبه أبو عمرو بن العلاء بالكيس لحسن شعره. وقال عنه حماد الراوية: انه كثير البيت السائر والمتمثل به. وهذا البيت الذى تمثل به الجاحظ أحد أبيات هو أولها وبعده:

ومن حاجات نفسي فاعصمني فان لمضمرات النفس حاجا

فانت وليها وبرئت منها اليك فما قضيت فلا خلاجا

شاخ حتى خرف، وكان هجيراه في خرفه: أصبحوا الضيف، أغبقوا الضيف.

(٣) الهذلى هذا هو أبو العيال بن أبى عنترة من سعد هذيل. كان شاعراً فصيحا أدرك الجاهلية والاسلام، وأسلم فيمن أسلم من هذيل. والبيت الذى جاء به الجاحظ هو من قصيدة يرثى بها ابن عمه عبد بن زهرة. يقول فيها:

ألا لله درك من فتى قوم اذا رهبوا

وقالوا من فتى للحر ب يرقبنا ويرتقب

ولا حَصِرٌ بخطبتـهِ إذا ما عزَّتِ الخُطَبُ

وقال مكيُّ بنُ سوادة : (١)

حَصِرٌ مُسْهِبٌ جَرِيءٌ جبانٌ خيرُ عِيِّ الرجالِ عِيٌّ سَكوتُ

وقال الآخر :

مليء ببُهْرٍ والتفاتٌ وسعْلةٌ ومَسْحةُ عُثْنُونٍ وفتلُ الأَصابعِ(٢)

ومما ذمّوا به العِيّ قوله :

وما بيَ من عِيٍّ ولا أنطِقُ الخنـا إذا جمعَ الأقوامَ في الخطْبِ محْفِلُ

وقال الراجز وهو يمتَح بدَلوِهِ : (٣)

عَلِقْتَ ياحارِثُ عِنْدَ الوِرْدِ بجابىء لا رَفِلِ التَّرَدِّي (٤)

ولا عَيِيٍّ بابْتِناءِ المجد

وهذا كقول بَشَّار الأعمى : (٥)

وعِيُّ الفِعَالِ كَعِيِّ المقـالِ وفي الصَّمْتِ عِيٌّ كَعِيِّ الْكَلِمْ

وهذا المذهب شبيه بما ذهب اليه شُتَيم بنُ خُوَيْلِدٍ في قوله :

فكنت فتاهم فيهـا اذا يدعى لهـا يثب

الخ . إمتد به العمر حتى أدرك عهد معاوية وتوفى فى خلافته

(١) مكى بن سوادة (لم أعثر على شيء عنه فما بين يدى من كتب)

(٢) البهر : الاعياء . والعثنون : اللحية (٣) المتح : الاستقاء

(٤) الورد : ورود الماء . الجابىء : المفاجىء بقدومه . لا رفل التردى : غير جاهل بخطر السقوط

(٥) بشار الاعمى : هو بشار بن برد ، ومحله فى الشعر وتقدمه فى الابداع أشهر من ان يدل عليه. وهو زعيم الشعراء المحدثين بلا منازع ، ذاع أمره فى الدولتين الاموية والعباسية ، وأخذ سنى الجوائز من خلفائهما وامرائهما ، وكان مرهوب الجانب مخشى اللسان . ولد سنة ٧٦ هـ ٦٩٥ م وقتل سنة ١٦٨ هـ ٧٨٤ م

ولا يشعبون الصَّدْعَ بعد تفاقمٍ ... وفى رفقِ أيديكم لذى الصدعِ شاعبُ(١)

وهذا كقول زبّان بن سيار:

ولسنا كأقوامٍ أجدُّوا رياسةً ... يُرى مالُها ولا يُحَسُّ فِعالُها

يُرِيغون في الخصب الأمورَ ونفعُهم ... قليلٌ إذِ الأموالُ طال هُزالُها (٢)

وقُلنا بلا عِيٍّ وسُسْنا بطاقةٍ ... إذِ النّارُ نارُ الحرب طال اشتعالُها

لانهم يجعلون العجز والعى من الخرق ، كانا في الجوارح أو في الألسنة . وقال بن أحمر الباهلي :

لو كنتُ ذا علم علمتُ وكيف لي ... بالعلم بعد تَدَبُّرِ الأَمْرِ

وقالوا في الصمت كقولهم في النطق . قال أُحَيْحَةُ بنُ الجُلاحِ :(٣)

والصَّمتُ أَحْسَنُ بالفتى ... مَالم يكنْ عِيٌّ يَشِينُهُ

والقولُ ذو خَطَلٍ إذَا ... مالم يكنْ لُبٌّ يُعِينُهُ

وقال محرز بن علقمة :

لقد وارى المقابرُ من شَريكٍ ... كَثيرَ تَحَلُّمٍ وقليلَ عَابِ

صَمُوتاً في المجالس غيرَ عَيٍّ ... جديراً حين ينطقُ بالصواب

وقال مكى بن سوادة :

تَسلَّمَ بالسُّكوتِ مِنَ العُيوبِ ... فكان السُّكتُ أَجلبَ للعيوبِ

---

(١) يقول : ان اعداءكم لايصلحون فاسدا ، أما أنتم ففى أيديكم كل صلاح

(٢) يريغون من الاراغة وهى الطلب

(٣) أحيحة بن الجلاح : شاعر أوسي جاهلى فارس شجاع وكريم جواد ، وله أحداث وخطوب مع تبع بن حسان ملك اليمن ،ومع الحرث بن ظالم، مما هو معروف ومشهور

وَيَرْتجِل الـكلامَ وليسَ فيه سوَى الهَذَيانِ من حَشْدِ الخطيبِ (١)

وقال آخر :

جمعتَ صنوفَ العِيّ مِنْ كلِ وِجهةٍ وكنتَ حَرِيا بالبلاغةِ من كَثَبْ

أبُوكَ معِيمٌ في الـكلام ومُخْوِلٌ وخالُكَ وثَّابُ الجَرَائِيمِ في الخُطبْ

وقال حُميد بن ثور الهلالي : (٢)

أتانا ولم يَعْدِله سَحْبانُ وائِلٍ بيـاناً وعلمـاً بالذي هو قائل (٣)

فمـا زال عنـه اللَّقْمُ حتى كأنَّهُ من العِيّ لمَّا أنْ تـكلَّمَ باقِلُ (٤)

سَحْبان مثلٌ في البيان، وباقِلٌ مثل في العِيّ، ولهما أخبار . وقال آخر :

ماذا رُزِئْنـا منكِ أمَّ الأسْودِ من رَحَبِ الصَّدْرِ وعَقْلٍ مُتْلدِ

وهي صنَاع باللسَان واليد

وقال آخر :

لو صُحِبتْ شهرَيْنِ دأْباً لم تُمِلْ وجَعلتْ تُكـثِرُ قولَ: لا، و: بلْ

---

(١) الحشد هنا بمعنى الاستعداد

(٢) حميد بن ثور شاعر مخضرم ، ادرك الجاهلية والاسلام ، وكان شاعراً مجيداً وقال الشعر فى أيام عمر، وله وصف فى القطاة تفاخر فيه مع العجير السلولى، واوس بن غلفاء الهجيمى ،ومزاحم العقيلي، والعباس بن يزيد الكندى، ولما اختلفوا فيمن كان منهم أحسن وصفا احتكموا الى ليلى الاخيلية فقالت :

ألا كل ما قال الرواة وانشدوا بهـا غير ما قال السلولى بهرج

فقضت للعجير السلولى عليهم . ويعد حميد من الصحابة

(٣) سحبان : هو سحبان بن زفر بن إياس، يضرب به المثل فى الفصاحة والخطابة فيقال : اخطب من سحبان وائل . كان من ألسنة العرب فى الجاهلية،فلما جاء الاسلام أسلم . خطب فى وفود خراسان بين يدى معاوية من صلاة الظهر الى صلاة العصر ما تنحنح ولا سعل ولا توقف . مات سـنة ٥٤ هـ ٦٧٣ م . وباقل بعكسه يضرب به المثل فى العى فيقال : أعيا من باقل

(٤) اللقم : توالى اللقم فى الفم

حبُّكَ للباطلِ قِدْماً قدْ شَغلْ   كسبَكَ عَنْ عِيَالِنَا قلتُ أجَلْ
تَضَجُّراً مني وعِيًّا بالحِيَلْ

قال وقيل لِبُزُرْجُمِهر بن البختكان الفارسي (١) : أي شيء أستر للعي ؟ قال : عقل يجمّلُهُ . قالوا . فان لم يكن له عقل ؟ قال : فمال يستره. قالوا : فان لم يكن له مال؟ قال . فاخوان يُعَبِّرُونَ عنه . قالوا : فان لم يكن له اخوان يعبرون عنه ؟ قال : فيكون ذا صمت . قالوا فان لم يكنْ ذا صمت ؟قال : فموت وحي خير له من أن يكون في دار الحياة

وسأل الله موسى ﷺ حين بعثه الى فرعون بابلاغ رسالته، والابانة عن حجته، والافصاح عن أدلته ، فقال حين ذكر العقدة التي كانت في لسانه ، والحبسة التي كانت في بيانه « وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي» وأنبانا الله تبارك وتعالى عن تعلق فرعون بكل سبب ، واستراحته الى كل شغب ، ونبهنا بذلك على مذهب كل جاحد معاند ، وعلى كل مختال مكايد ، حين خبرنا بقوله : « أمْ أنَا خَيْرٌ مِن هَذَا الّذى هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ» وقال موسى عليه السلام « وَأخِي هَرُونُ هُوَ أفْصَحُ مِنّي لِسَاناً فَارْسِلهُ مَعِي رِدءاً يُصَدّقني »وقال:«وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلاَ يَنْطَلِقُ لِسَانِي » رغبة منه في غاية الافصاح بالحجة، والمبالغة في وضوح الدلالة ، لتكون الاعناق اليه أسرع ، وان كان قد يأتي من وراء الحاجة ، ويبلغ افهامهم على بعض المشقة . ولله عز وجل أن يمتحن عباده بما يشاء من التخفيف والتثقيل ، ويبلوا أخبارهم كيف أحب من المكروه والمحبوب ، ولكل زمان ضرب من المصلحة ، ونوع من المحنة ، وشكل من العبادة. ومن الدليل على أن الله عز وجل حل تلك العقدة، وأطلق ذلك التعقيد والحبسة، قوله «رَبّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسّرْ لِي أمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أهْلِي هَرُونَ أخِي اشْدُدْ بِهِ أزْرِي وأشرِكه في أمْرِي» الى قوله « قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَامُوسَى » فلم تقع الاستجابة على شيء من دعائه دون شيء لعموم الخبر .

وسنقول في شأن موسى عليه السلام ومسألته في موضعه من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى

وذكر الله تعالى جميل بلائه في تعليم البيان ، وعظيم نعمته في تقويم اللسان ،

(١) بزرجمهر . وقد يقال بزرج مهر : حكيم فارسي مشهور، نكبه كسرى لقول الحق

فقال: «الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ» وقال «هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ» ومدح القرآن بالبيان والافصاح، وبحسن التفصيل والايضاح، وبجودة الافهام، وحكمة الابلاغ، وسماه فرقانا، وقال «عربى مبين» وقال «وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا» وقال «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ» وقال «وكل شيء فصلناه تفصيلا»

وذكر الله تعالى لنبيه حال قريش فى بلاغة المنطق، ورجاحة الأحلام، وصحة العقول. وذكر العرب وما فيها من الدهاء والنكراء والمكر، ومن بلاغة الألسنة، واللدد عند الخصومة، فقال: «فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ» وقال: «لِتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا» وقال «وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ» وقال «أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ» ثم ذكر خلابة ألسنتهم، واستمالتهم الاسماع بحسن منطقهم، فقال: «وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ» ثم قال: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» مع قوله «وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ» وقال الشاعر فى قوم يحسنون فى القول ويسيؤون في العمل، قال أبو حفص: أنشدنى الأصمعى للمكعبر الضبي:

كُسَالَى إِذَا لَاقَيْتَهُمْ غَيْرَ مَنْطِقٍ ... يُلَهَّى بِهِ المحروبُ وهو عَنَاءُ

وقيل لِذَوْهمان: ماتقول في خزاعة؟ قال: جوع وأحاديث. وفى شبيه بهذا المعنى قال أُفْنُونُ بْنُ صُرَيْمٍ التَّغْلِبِي: (١)

لو أَنِّي كنتُ من عادٍ ومن إِرَمٍ ... غَذِيَّ قَيْلٍ ولُقْمَانٍ وذي جَدَنِ

لما وَقَوا بأخيهم من مُهَوِّلَةٍ ... أخا السُّكُونِ ولا حادُوا عن السَّنَنِ

أنَّى جَزَوْا عامراً سُوءاً بفعلهم ... أم كيفَ يَجْزُونني السُّوآى من الحسن

(١) افنون بن صريم التغلبي شاعر قديم، له حكاية غريبة، ذلك أن بعض الكهان أنذره بهلاكه من لدغة تصيبه، فكان لا ينام الا على ظهر راحلته، فبينا هو ذات ليلة على ناقته وهي ترعى اذ التوت حية على مشفرها فاضطربت ورمت بها اليه فلدغته. فقال:

لعمرك ما يدرى الفتى كيف يتقى ... اذا هو لم يجعل له الله واقيا

ثم خر ميتاً لساعته وذلك حوالى سنة ٥٦٧ م

أم كيفَ ينفعُ ما تُعطي العَلوق بهِ ... رئمانَ أنفٍ إذا ما ضُنَّ باللبنِ

ورئمان: أصله الرقة والرحمة . والرؤم أرق من الرؤف. فقال « رئمان أنف » كأنها تبر ولدها أنفها وتمنعه اللبن

ولان العرب تجعل الحديث والبسط والتأنيس والتلقي بالبشر من حقوق القرى، ومن تمام الاكرام . وقالوا : تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة ، واطالة الحديث عند المؤاكلة . وقال شاعرهم وهو حاتمُ الطائي :(١)

سلي الجائعَ الغرثانَ يا أمَّ منذرٍ ... إذا ما أتاني بين ناري ومجزَري

هل آبسطُ وجهي؟ انهُ أول القِرى ... وأبذِلُ معروفي له دون منكَري ؟

وقال الآخر

إنكَ يا ابنَ جعفرٍ خيرُ فتى ... وخيرُهم لطارقٍ إذا أتى

ورُبَّ نِضوٍ طرَقَ الحيَّ سُرى ... صادَفَ زاداً وحديثاً ما اشتهى

إن الحديثَ جانبٌ من القِرَى

وقال الآخر :

لحافي لحافُ الضَّيفِ والبيتُ بيتهُ ... ولم يُلْهِني عنهُ غزالٌ مقنَّعُ

أحدِّثه إن الحديثَ منَ القِرَى ... وتعلم نفسي أنهُ سوفَ يهجعُ

ولذلك قال عمرُو بنُ الأهتم : (٢)

فقلتُ له أهلاً وسهلاً ومرحباً ... فهذا مبيتٌ صالحٌ وصديق

---

(١) حاتم الطائي : هو الجواد المشهور ، كان شاعراً مجيداً وفارساً شجاعاً وله في الجود والكرم حوادث وأخبار معروفة. توفي حوالى سنة ٦٠٥ م

(٢) عمرو بن الاهتم : هو عمرو بن سنان الاهتم المنقري التميمي ، وكان من سادات تميم وخطبائهم وشعرائهم وذوي الفصاحة واللسن في الجاهلية والاسلام . وهو صاحب الحديث مع الزبرقان بن بدر بين يدي النبي (ص) وله مواقف مشهورة . توفي سنة ٥٧ هـ ٦٧٦ م

وقال الآخر:

أضاحِكُ ضَيفِي قَبلَ إِنزَالِ رَحْلِه ... ويخصبُ عندي والمحلُّ جَدِيبُ
وما الخِصبُ للأَضْيافِ أن يَكثُرَ القِرى؟ ... ولكِنَّما وجهُ الكريم خَصِيبُ

ثم قال الله تبارك وتعالى فى باب آخر من صفة قريش والعرب «أم تَأْمُرُهم أحلامُهم بهذَا» وقال: «فاعتبروا يا اولى الألباب» وقال: «أُنظر كيف ضربوا لك الأَمثال» وقال: «وَإن كان مَكرهم لِتزُولَ منه الجبال» وعلى هذا المذهب قال: «وَإن يكادوا الذين كفروا لَيُزْلِقونكَ بأَبْصارهم» وقد قال الشاعر:

يَتقَارضُونَ إذَا الْتَقَوا في مَوْقِفٍ ... نَظراً يُزِيلُ مَوَاقِعَ الأَقدَامِ

وقال تبارك وتعالى «وَمَا أرسلنا من رَسولٍ إلا بلسان قومه ليُبَيِّنَ لهم» لان مدار الامر على البيان والتبيين، وعلى الافهام والتفهيم. وكلما كان اللسان أبينَ كان أحمدَ، كما أنه كلما كان القلب أشدّ استبانة كان أحمدَ. والمفهم لك والمتفهّم عنك شريكان فى الفضل. إلا أن المُفَهِّم أفضل من المتفهم، وكذلك المعلم والمتعلم

هكذا ظاهر هذه القضية، وجمهور هذه الحكومة، إلا فى الخاص الذى لا يذكر، والقليل الذى لا يشهر

وضرب الله مثلا لعيّ اللسان ورداءة البيان حين شبه أهله بالنساء والولدان وقال تعالى «أَوَمن يُنشَّؤُ في الْحِلْيةِ وهو فى الخصام غير مبين» ولذلك قال النمر بن تولب:

وكلُّ خَليلٍ عليه الرِّعَاثُ ... والحُبُلاَتُ ضَعِيفٌ مَلِقْ (١)

وليس حفظك الله مضرة سلاطة اللسان عند المنازعة، وسقطات الخطل يوم اطالة الخطبة، بأعظم مما يحدث عن العى من اختلال الحجة، وعن الحصر من فوت درك الحاجة. والناس لا يُعَيِّرون الخرس، ولا يلومون من استولى على بيانه العجز، وهم يذمون الحصر، ويؤنبون العى. فان تكلفا مع ذلك مقامات الخطباء، وتعاطيا

(١) الرعاث. الاقراط. والحبلات. ضرب من الحلى

مناظرة البلغاء تضاعف عليهما الذم ، وترادف عليهما التأنيب . ومماتنة العى الحصر للبليغ المصقع ،فى سبيل مماتنة المنقطع المفحم للشاعر المفلق . وأحدهما ألوم من صاحبه، والالسنة اليه أسرع . وليس الأَلجْلاَجُ ، والتَّمْتَامُ ، والاَلثْغ ، والفَأْفَاء ،وذو الحُبْسة ، والحُكلة ، والرُّتَّة ، وذو اللَّفَف (١) والعجلة فى سبيل الحصر فى خطبته، والعى فى مناضلة خصومه ، كما أن سبيل المفحم عند الشعراء ، والبكىء عند الخطباء خلاف سبيل المسهب الثرثار، والخطل المكثار

ثم أعلم أبقاك الله أن صاحب التَّشْدِيق والتَّقْعِير والتَّقْعِيب (٢) من الخطباء والبلغاء مع سماجة التكلف ، وشنعة التَّزَيُّد أعذر من عىّ يتكلف الخطابة ، ومن حصر يتعرض لاهل الاعتياد والدّربة . ومدار اللائمة ومستقر المذمة حيث رأيت بلاغة يخالطها التكلف ، وبيانا يمازجه التزيد ، الا ان تعاطى الحصر المنقوص مقام الدّرب التام ، اقبح من تعاطى البليغ الخطيب ،ومن تشادق الاعرابى القح. وانتحال المعروف ببعض الغزارة فى المعانى والالفاظ ، وفى التحبير والارتجال،أنه البحر الذى لا ينزح ، والغَمر الذى لا يسبر،أيسر من انتحال الحصر المنخوب أنه فى مسلاخ(٣) التام الموفر،والجامع المحكك ، وان كان رسول الله ﷺ قد قال: « اياى والتشادق» وقال : أبغضكم الىّ الثرثارون المتفيهقون » وقال: « من بدا جفا »وعاب الفدادين(٤) والمتزيدين فى جهارة الصوت ، وانتحال سعة الاشداق ، ورحب الغلاصم ، وهدل الشفاه . وأعلمنا أن ذلك فى أهل الوبر أكثر،وفى أهل المدر أقل . فاذا عاب المدرى بأكثر مما عاب به الوبرى ، فما ظنك بالمولد القروى والمتكلف البلدى ؟ فالحصر المتكلف والعى المتزيد ، ألوم من البليغ المتكلف لاكثر مما عنده،وهو أعذر، لان الشبهة الداخلة عليه أقوى . فمن أسوأ حالا أبقاك الله ممن يكون ألوم من المتشدقين ، ومن الثرثارين المتفيهقين ، وممن ذكره النبي ﷺ نصا ، وجعل النهى عن مذهبه مفسرا ،وذكر مقته له وبغضه اياه ؟

---

(١) كل هذه صفات من عيوب اللسان الموجبة للعى والحصر . (٢) صفات مذمومة فى الخطيب (٣) المنخوب : الرعديد . فى مسلاخ : فى جلد، يعنى فى ثيابه وصفاته (٤) الفدادون : ذووا الاصوات المزعجة

ولما علم واصل بن عطاء (١) أنه ألثغ فاحش اللثغ، وأن مخرج ذلك منه شنيع، وأنه اذ كان داعية مقالة، ورئيس نحلة، وأنه يريد الاحتجاج على أرباب النحل، وزعماء الملل، وأنه لا بد من مقارعة الابطال، ومن الخطب الطوال، وان البيان يحتاج الى تمييز وسياسة، والى ترتيب ورياضة، والى تمام الآلة وإحكام الصنعة، والى سهولة المخرج وجهارة المنطق، وتكميل الحروف، واقامة الوزن، وأن حاجة المنطق الى الطلاوة والحلاوة كحاجته الى الجلالة والفخامة، وأن ذلك من أكبر ماتستمال به القلوب، وتنثني اليه الأعناق، وتزين به المعانى

وعلم واصل أنه ليس معه ما ينوب عن البيان التام، واللسان المتمكن، والقوة المتصرفة، كنحو ما أعطى الله نبيه موسى صلوات الله عليه من التوفيق والتسديد، مع لباس التقوى، وطابع النبوة، ومع المحبة، والاتساع فى المعرفة، ومع هدى النبيين، وسمت المرسلين، وما يغشيهم الله به من القبول والمهابة، ولذلك قال بعض شعراء النبي ﷺ

لو لم تكن فيه آيات مبيّنة كانت بداهته تنبيك بالخبر

ومع ماأعطى الله موسى عليه السلام من الحجة البالغة، ومن العلامات الطاهرة، والبرهانات الواضحة، إلى أن حل الله تلك العقدة، ورفع تلك الحبسة، وأسقط تلك المحنة. ومن أجل الحاجة الى حسن البيان، وإعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة - رام أبو حذيفة (١) إسقاط الراء من كلامه، وإخراجها من حروف منطقه. فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه. ويناضله ويساجله، ويتأتى لستره والراحة من هجنته. حتى انتظم له ما حاول، واتسق له ما أمل، ولولا استفاضة هذا الخبر

(١) واصل بن عطاء، ويكنى أبا حذيفة، ويلقب الغزّال لجلوسه فى سوق الغزالين عند رضيع له يعرف بأبى عبدالله الغزال؛ وما كان لزومه لسوق الغزالين الا ليتصدق على من يغشاه من النساء المتعففات. وكانت به لثغة فى الراء قبيحة، فكان يتجنب الراء فى كلامه وخطبه ومحاوراته، وكان شيخا من شيوخ المعتزلة، وعلماً من أعلامهم، مدحه بشار بن برد كثيراً، ثم هجاه لاختلافهما فى الرأى. وكانت بينه وبين عمرو بن عبيد شيخ المعتزلة فى مجلس الحسن البصرى مناظرة هامة فى مرتكب الكبيرة، هل هو كافر أو فاسق، أخذ ابو عمرو بقول واصل، وهو المنزلة بين المنزلتين
ولد سنة ٦٩٩ م وتوفى سنة ١٣١ هـ ٧٤٨ م

وظهور هذه الحال حتى صار لغرابته مثلا،ولظرافته معلماً ، لما استجزنا الاقرار به والتأكيد له ، ولست أعني خطبه المحفوظة، ورسائله المخلدة ، لأن ذلك يحتمل الصنعة ، وإنما عنيت محاجة الخصوم ، ومناقلة الاكفاء ، ومفاوضة الاخوان

واللثغة فى الراء :تكون بالغين ، والذال ، والياء . والغين أقلها قبحاً ، وأوجدها فى كبار الناس وبلغائهم وأشرافهم وعلمائهم

وكانت لثغة محمد بن شبيب المتكلم بالغين ، فاذا حمل على نفسه وقوم لسانه أخرج الراء . وقد ذكر ذلك أبو الطروق الضبي فقال :

عليمٌ بابدَال الحرُوفِ وقامِعٌ　　لكلّ خطيبٍ يغلبُ الحقَّ باطله

وكانَ واصلُ بنُ عَطَاءٍ قبيح اللثغة شنيعها ، وكان طويل العنق جداً ، وفيه قال بشار الاعمى :

مَالِى أُشايعُ غزَالاً له عُنقٌ　　كنِقْنِقِ الدَّوِّ إن ولّى وانمثَلا(١)

عُنقَ الزَّرافةِ ما بالى وبالكم　　أتُكفرون رجالا أكفَروا رَجلا ؟

فلما هجا وَاصِلا وصوب رأى إبليس فى تقديم النار على الطين وقال:

الأرضُ مُظلمةٌ والنارُ مُشْرِقةٌ　　والنارُ معبودةٌ مذ كانتِ النارُ

وكان وَاصِلُ بنُ عطَاءٍ غزالا ، وزعم أن جميع المسلمين كفروا بعد وفاة رسول الله ﷺ ، فقيل له : وعليّ أيضاً ؟ فانشد :

وما شرُّ الثلاثةِ أمَّ عمرٍو　　بصاحبكِ الذى لا تَصْحَبينَا

قالَ وَاصِلُ بنُ عطاءٍ عند ذلك « أما لهذا الملحد الأعمى المشنف المكتنى بأبي معاذ من يقتله ؟ أما والله لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية لبعثت اليه من يبعج بطنه على مضجعه ، ويقتله فى جوف منزله ، وفى يوم حفله ، ثم كان لا يتولى ذلك منه إلا عقيلي أو سدوسى »

قال إسمعيل بن محمد الانصارى ، وعبد الكريم بن روح الغفارى ، قال أبو

(١) كنقنق الدو: كعنق الظليم العلوى

حفص عمرو بن أبى عثمان الشمّري : ألا تريان كيف تجنب الراء فى كلامه هذا وأنتما للذى تريان من سلامته وقلة ظهور التكلف فيه ، لا تظنان به التكلف مع امتناعه من حرف كثير الدوران فى الكلام ؟ ألا تريان أنه حين لم يستطع أن يقول بشار ، وابن برد ، والمرعث ، جعل المشنف بدلا من المرعث ، والملحد بدلا من الكافر ؟ وقال : إن الغيلة سجية من سجايا الغالية ، ولم يذكر المنصورية ، ولا المغيرية ، لمكان الراء ؟ وقال : لبعثت اليه من يبعج بطنه، ولم يقل لأرسلت اليه ؟ وقال: على مضجعه، ولم يقل على فراشه ؟

وكان إذا أراد أن يذكر : البُر قال : القمح ، والحنطة . والحنطة لغة كوفية ، والقمح لغة شامية . هذا وهو يعلم أن لغة من قال بر أفصح من قال قمح أو حنطة قال المتنخل الهذلى : (١)

لادَرَّ دَرّىَ ان أطعمتُ نازَلهمْ ... قِرْفَ الحَتِيِّ وعندى البُرُّ مكنوزُ (٢)

وقالَ أميةُ بنُ أبى الصَّلتِ (٣) فى مديح عبد الله بن جُدْعان (٤)

لَهُ داعٍ بمكةَ مُشْمَعِلٌّ ... وآخَرُ فوقَ دارَتهِ ينادى

(١) المتنخل: هو مالك بن عويمر الهذلى،ويكنى أبا أثيل، شاعر فحل من شعراء هذيل وفصحائهم . (٢) قرف الحتى : سويق المقل (الدوم)

(٣) أمية بن أبى الصلت الثقفى ، قال عنه الرواة :انه أشعر أهل المدر .كان قد نظر فى كتب الاوائل. وتعبد لرب ابرهيم واسمعيل، وحرم الخمر،وشك فى الاوثان، والتمس الدين،وطمع فى النبوة . ولما بعث النبي حسده ،وكان يحرض قريشاً بعد وقعة بدر ويرثى قتلاها من المشركين . وقبل هذين البيتين يقول :

ومالى لا أحييه وعندى ... مواهب يطلعن على النجاد
لأبيض من بنى تيم بن كعب ... وهم كالمشرفيات الحداد
لكل قبيلة هاد ورأس ... وانت الرأس تقدم كل هاد
له بالخيف قد علمت معد ... وان البيت يرفع بالعماد

مات على غير دين سنة ٢ هـ ٦٢٣ م وقيل سنة ٩ هـ ٦٣٠ م

(٤) عبدالله بن جدعان التيمى، كان من مشاهير الأجواد ، وكان يلقب بحاسي الذهب لانه كان يشرب فى اناء من الذهب . كان فى مبدأ أمره صعلوكا شريراً

الى رُدُحٍ من الشِّيْزَى عليهـا   لُبابُ البُرّ يُلْبَكُ بالشِّهـاد(١)

وقال بعض القرشيين يذكر قيس بن معد يكرب ومقدمه مكة فى كلمة له :

قَيْسٌ أبو الأشْعَثِ بِطْرِيْقُ اليمنْ   لا يَسأَلُ السائلُ عنه : ابنُ منْ
أشْبَعَ آلَ اللهِ منْ بُرِّ عدَنْ

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أترون أنى لا أعرف رقيق العيش؟ لباب البر بصغار المعزى . وسمع الحسن رجلا يعيب الفالوذق فقال : لباب البر ، بلعاب النحل ، بخالص السمن ؟ ما عاب هذا مسلم . وقالت عائشة رضى الله عنها : ما شبع رسول الله ﷺ من هذه البرة السمراء حتى فارق الدنيا

وأهل الامصار انمـا يتـكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب . ولذلك تجـد الاختلاف فى ألفاظ أهل الـكوفة والبصرة والشام ومصر

حدثنى أبو سعيد عبد الـكريم بن روح قال : قال أهل مكة لمحمد بن المناذر الشاعر : ليست لـكم معاشر أهل البصرة لغة فصيحة ، انما الفصاحة لنا أهل مكة . فقال ابن المناذر : أما ألفاظنا فأحكى الالفاظ للقرآن ، وأكثرها له موافقة ، فضعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم : أنتم تسمون القدر برمة ، وتجمعون البرمة على برام ، ونحن نقول : قدر ونجمعها على قدور ، وقال الله عز وجل « وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ » وأنتم تسمون البيت اذا كان فوق البيت علّيةً ، وتجمعون هذا الاسم على علالِى ، ونحن نسميه غرفة ، ونجمعها على غرفات وغرف ، وقال الله تبارك وتعالى « غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ » وقال : « وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ » وأنتم تسمون الطلع الـكافور ، والاغريض ، ونحن نسميه الطلع ، وقال الله عز وجـل « ونخـل

فاتكا فنفاه أهله لـكثرة جناياته ، وكثرة مغارمه التى يجرها عليهم ، فخرج هائما فى شعاب مكة فعثر بقبر قـديم فيه من الذهب والاحجار الكريمة شيء كثير ، فنقله الى منزله وصار ينفق منه فى صالح الاعمال ، حتى ضرب به المثل فى الكرم فقيل « أقرى من حاسي الذهب »

(١) الردح : الجفان الواسعة : الشيزى : خشب أسود تصنع منه القصاع . عليها ، فى رواية : ملاء . يلبك يعجن . الشهاد : العسل

طَلْعُهَا هَضِيمٌ » فعد عشر كلمات لم أحفظ أنا منها الا هذا

ألا ترى أن أهل المدينة لما نزل فيهم ناس من الفرس فى قديم الدهر علقوا بألفاظ من ألفاظهم ؟ ولذلك يسمون البطيخ الخربز ، ويسمون السميط الروذق ويسمون المصوص المزوز ، وتسمون الشطرنج الاشترنج، الى غير ذلك من الاسماء؟

وكذا أهل الكوفة فانهم يسمون المسحاة بال ، وبال بالفارسية . ولو علق ذلك لغة أهل البصرة ـ اذ نزلوا بأدنى بلاد فارس وأقصى بلاد العرب ـ كان ذلك أشبه ، اذ كان أهل الكوفة قد نزلوا بأدنى بلاد النبط وأقصى بلاد العرب . ويسمى أهل الكوفة الحوك (١) باذروج ، والباذروج بالفارسية ، والحوك كلمة عربية

وأهل البصرة اذا التقت أربع طرق يسمونها مربعة ، ويسميها أهل الكوفة الجهار سو ، والجهار سو ، بالفارسية . ويسمون السوق أو السويقة وازار، والوازار بالفارسية ، ويسمون القثاء خياراً ، والخيار فارسية. ويسمون المجذوم ويذى بالفارسية

وقد يستخف الناس ألفاظا ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها ، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر فى القرآن الجوع الا فى موضع العقاب ، أو فى موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر؟ والناس لا يذكرون السغب ، ويذكرون الجوع فى حال القدرة والسلامة . وكذلك ذكر المطر لانك لا تجد القرآن يلفظ به الا فى موضع الانتقام ، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وذكر الغيث . ولفظ القرآن الذى عليه نزل أنه اذا ذكر الابصار لم يقل الاسماع، واذا ذكر سبع سموات لم يقل الارضين ، ألا تراه لا يجمع الارض أرضين ولا السمع أسماعا ؟ والجارى على أفواه العامة غير ذلك ، لا يتفقدون من الالفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال . وقد زعم بعض القراء أنه لم يجد ذكر لفظ النكاح فى القرآن الا في موضع التزويج

والعامة ربما استخفت أقل اللغتين وأضعفهما ، وتستعمل ما هو أقل فى أصل اللغة استعمالا وتدع ما هو أظهر وأكثر . ولذلك صرنا نجد البيت من الشعر قد سار ولم يسر ما هو أجود منه . وكذلك المثل السائر . وقد يبلغ الفارس والجواد الغاية فى الشهرة ، ولا يرزق ذلك الذكر والتنويه بعض من هو أولى بذلك منه . ألا ترى أن العامة ابن القِرِّيَّةِ (٢) أشهر عندها فى الخطابة من سحبان وائل، وعبيد الله بن الحر

---

(٢) الحوك : البقلة الحمقاء (الرجلة)

(١) ابن القرية : هو أيوب بن زيد ،والقرية امه ،كان خطيباً لسنا وبيناً مفوهاً،

أذكر عندهم فى الفروسية من زهير بن ذؤيب ؟ وكذلك مذهبهم فى عنترة بن شداد وعتيبة بن الحارث بن شهاب ، وهم يضربون المثل بعمرو بن معديكرب ولا يعرفون بسطام بن قيس

وفى القرآن معان لا تكاد تفترق مثل :الصلاة والزكاة ، والجوع والخوف ، والجنة والنار ، والرغبة والرهبة ، والمهاجرين والانصار ، والجن والانس

قال قطرب: أنشدنى ضرار بن عمرو قول الشاعر فى واصل :

وَيَجعلُ البُرَّ قمحاً فى تصرُّفِهِ وجانَبَ الراءَ حتَّى احتالَ للشَّعرِ

ولم يُطقْ مطراً والقول يعجلهُ فعادَ بالغيثِ اشفاقاً من المطرِ

قال : وسألت عثمان البرى : كيف كان واصل يصنع فى العدد ؟ وكيف كان يصنع بعشرة وعشرين وأربعين ؟ وكيف كان يصنع بالقمر والبدر ويوم الاربعاء وشهر رمضان ؟ وكيف كان يصنع بالمحرم وصفر وربيع الاول وربيع الاخر وجمادى الاخرة ورجب ؟ فقال : مالى فيه قول الا ما قال صفوان :

مُلَقَّنٌ مُلْهَمٌ فيما يُحاوِلهُ جَمٌّ خواطِرُه جوَّابُ آفاقِ

وأنشدنى ديسَمٌ قال : أنشدنى أبو محمد اليزيدى :

وخَلَّةُ اللفظِ فيالياآتِ إن فُقِدَتْ كَخَلَّةِ اللفظِ فيِ اللاَّماتِ والأَلفِ

وخَصلَةُ الرَّاءِ فيها غيرُ خافيةٍ فاعرِفْ مواقعَها فيِ القَولِ والصُّحُفِ

يزعم أن هذه الحروف أكثر ترددا من غيرها، والحاجة اليها أشد . واعتبر ذلك بان تأخذ عدة رسائل، وعدة خطب من جملة خطب الناس ورسائلهم ، فانك متى حصلت جميع حروفها،وعددت كل شكل على حدة ، علمت أن هذه الحروف الحاجة اليها أشد

﴿ ذكر ماجاء في تلقيب واصل بالغزَّال ومن نفي ذلك عنه ﴾

قال أبو عثمان . فمن ذلك ما أخبرنا به الاصمعى قال: أنشدنى المعتمر بن سليمان لاسحق بن سويد العدوى .

قتله الحجاج بتهمة مناصرته لابن الاشعث سنة ٨٤ هـ ٧٠٣ م

بَرِئْتُ من الخوارجِ لستُ مِنهم ... من الغَزَّالِ منهم وابنِ بابِ
ومنْ قومٍ إذا ذَكَرُوا عليًّا ... يَرُدُّونَ السلاَمَ على السَّحابِ
ولكِنّى أحِبُّ بكل قلبى ... وأعلم أنَّ ذاك من الصوابِ
رسول اللهِ والصِّدّيقَ حبًّا ... بهِ أرجو غداً حُسنَ المآبِ

وفى ذلك قال بشار:

مالي أشايعُ غزَّالاً لهُ عُنُقٌ ... كنِقْنِقِ الدَّوِّ إنْ ولّى وإن مثَلا

ومن ذلك قول معدان السميطى .

يَوْمَ تَشفى النفوس من يعصر اللؤ ... م ويُثنى بسامة الرحَّال
وعدىٍّ وتَيمِها وثقيفٍ ... وأُمىٍّ وتَغْلِبٍ وهلال
لاحرور ولا النوائب تنجو ... لا ولا صحب واصِلِ الغزَّالِ

وكان بشار كثير المديح لواصل بن عطاء قبل أن يدين بالرجعة ويكفر جميع الامة ، وكان قد قال فى تفضيله على خالد بن صفوان (١) وشبيب بن شيبة والفضل

---

(١) خالد بن صفوان بن عبدالله بن الاهتم، كان خطيباً مبيناً ، ولسنا بليغاً ، وكان بخيلا مطلاقاً . وكان يقول : أربعة لا يطمع فيهن عندى : القرض، والفرض والهرس ، وأن أسعى مع أحد فى حاجة . قيل له : وما يصنع بك بعد هذه؟ فقال: الماء البارد ، وحديث لا ينادى وليده . وقيل له : من أحب اخوانك اليك ؟ قال : من سد خللى ، وغفر زللى ، وقبل عللى . وكان يقول : مامن ليلة أحب الى من ليلة قد طلقت فيها نسائى فأرجع والستور قد قلعت ، ومتاع البيت قد نقل ، فبعثت الى بنتى بسليلة فيها طعامى ، وتبعث الى الاخرى بفراش أنام عليه . وقال خالد لبعض الولاة : قدمت فأعطيت كلا بقسط من وجهك وكرامتك ، حتى كأنك لست من أحد ، أو حتى كأنك من كل أحد

وسأل عبدالملك الحجاج عن عيبه فتلكأ عليه ، فأبى الا ان يخبره ، فقال : أنا حديد حسود حقود لجوج ذو قسوة . فبلغ هذا الكلام خالد بن صفوان فقال : لقد انتحل الشر بحذافيره ، والمروق من جميع الخير بزوبره ، ولقد تأنق فى ذم نفسه، وتجود فى الدلالة على لؤم طبعه ، وفى اقامة البرهان على افراط كفره، وشدة المشاكلة

ابن عيسى يوم خطبوا عند عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والى العراق :

أبَا حُذَيفةَ قد أُوتيتَ مَعجبـة … من خُطْبةٍ بَدَهَتْ من غيرِ تقدِيرِ

وإنَّ قوْلاً يرُوقُ الخالِدَيْنِ معـا … لَمُسكِتٌ مُخرِسٌ عن كل تَحْبِيرِ

لانه كان مع ارتجاله الخطبة التى نزع منها الراء كانت مع ذلك أطول من خطبهم. وقال بشار :

تكلفوا القوْلَ والأقوامُ قد حفَلوا … وحبَّروا خُطباً ناهيكَ من خُطَبِ

فقـامَ مُرْتجِلاً تَغلِي بَدَاهتـهُ … كَمرْجَلِ القَيْنِ لمـا حُفَّ باللَّهَبِ

وجانَبَ الراءَ لم يشعُرْ بهِ أحـدٌ … قبل التصفُّح والإغْراقِ في الطلَبِ

وقال فى كلمة له يعنى تلك الخطبة :

فهـذا بديهٌ لا كتَحْبير قائلٍ … إذا ما أرادَ القوْلَ زوَّرَهُ شَهرا

فلما انقلب عليهم بشار، ومقاتله لهم بادية، هجوه، ونفوه، فما زال غائبا حتى مات عَمْرُو بنُ عبيد.(١) وقال صفوانُ الانصارى :

متى كان غزَّالٌ له يابنَ حَوْشَبٍ … غلامٌ كعمرو، أو كعيسى بنِ حاضِرِ

أما كان عثمانُ الطويلُ بنُ خالدٍ … أو القَرْمُ حفص نُهْيَةً لمخاطِرِ

له خَلْفَ شِعْبِ الصينِ في كل ثغْرَةٍ … الى سُوسِها الأقصى وخلْفَ البرابِرِ

شيطانه الذى أغواه. ورأى خالد السفاح ومات فى عهده سنة ١٣٣ هـ ٧٥٠ م

وشبيب بن شيبة الخطيب اللسن المعروف من رهط خالد ومن بابه

(١) عمرو بن عبيد : هو عمرو بن عبيد بن باب شيخ المعتزلة، وهو أول من ترك مجلس الحسن البصرى للاختلاف فى الرأى، فقال الحسن : اعتزلنا عمرو. فسمى كل من أخذ برأيه المعتزلة . وكان جده باب من سبي كابل سباه عبد الرحمن بن سمرة وكان عمرو متزهداً متقشفا، وكانت بينه و بين واصل بن عطاء محاورة في شأن مرتكب الكبيرة .

ولد سنة ٨٠ هـ ٦٩٩ م وتوفى سنة ١٤٤ هـ ٧٦١ م

رِجالٌ دُعاةٌ لايفُلُّ عزيمَهُمْ ‏ نهكُّم جبّار ولا كيدُ ماكرِ

إذا قالَ :مرُّوا في الشتاءِ،تطاوعُوا ‏ وإن كان صيفاً لم يَخَفْ شهرَ ناجرِ

بهجْرةِ أوطانٍ وبذلٍ وكُلْفةٍ ‏ وشِدَّةِ أخطارٍ وكَدِّ المسافرِ

فأَنجَحَ مَسعاهُمْ وأثقبَ زَندَهُم ‏ وأورَى بِفَلْج للمخاصم قاهرِ

وأوتادُ أرضِ اللهِ في كلِّ بلدَةٍ ‏ وموضعُ فُتياها وعلم التّشاجُرِ

وما كان سَحْبانٌ يشقُّ غبارَهم ‏ ولا الشَّدقُ من حيٍّ هلالِ بن عامرِ

ولا الناطِقُ النَّخّارُ والشيخ دغفَلٌ ‏ إذا وصلوا أيمانَهم بالمخاصرِ

ولا القالَةُ الاعلَوْنَ رهط مكحَّلٍ ‏ إذا نَطقوا في الصُّلحِ بين العشائرِ

بجمعٍ من الجفنَينِ راضٍ وساخطٍ ‏ وقد زَحفت برّاؤهم للمحاضر

الجفنان : بكر وتميم . والروقان : بكر وتغلب . والفاران : الازد وتميم . قيل ذلك لكل عمارة من الناس ، وهي جمع : والعمائر أيضا : غار . والجفن أيضا : قشر الطلعة

تلَقَّبَ بالغزّالِ واحدُ عصرِهِ ‏ فمن لليتامى والقَبيلِ المكاثرِ

ومن لَحرُوريّ وآخر رافِضٍ ‏ وآخر مُرجيٍّ وآخر حائر ؟

وأمرٍ بمعرُوف وانكارِ مُنكَرٍ ‏ وتحصينِ دينِ اللهِ من كل كافر

يصيبون فصلَ القولِ في كل منطق ‏ كما طبقت في العظم مُدْيةُ جازرِ

تراهُم كأنَّ الطيرَ فوقَ رؤسهم ‏ على عمّةٍ معروفةٍ في المعاشر

وسيماهُم معروفةٌ في وجوهِهم ، ‏ وفي المشي حُجّاجاً ، وفوقَ الاباعر

وفي رَكْعةٍ تأتي على الليل كلِّه ‏ وظاهرِ قولٍ في مثالِ الضمائرِ

وفي قصِّ هُدّابٍ وإحفاءِ شاربٍ ‏ وكوْر على شيبٍ يضيءُ لناظرِ

وعَنْفَقَةٍ مصلومةٍ ولنعلهِ قبالان في رُدنٍ رحيبِ الخواطرِ

فتلك علاماتٌ تحيط بوَصفهم وليس جهول القوم في جرم خابر

وفى واصل يقول صفوان :

فما مَسَّ ديناراً ولا صَرَّ دِرْهَماً ولا عَرَف الثوبَ الذى هو قاطعهُ

وفيه يقول اسباط بن واصل الشيبانى :

وأشهدُ أنَّ اللهَ سماكَ واصلاً وأنكَ ميمونُ النقيبةِ والشِّيم

ولما قام بشار يعذر ابليس فى أن النار خير من الارض، وذكر واصلا بما ذكره قال صفوان :

زَعمتَ بأنَّ النارَ أكرَمُ عنصراً وفى الارضِ تحيا بالحجارةِ والزَّندِ

ويُخلَقُ في أرحامها وأرومها أعاجيبُ لاتحصى بخطٍّ ولا عَقدِ (١)

وفي القعرِ من لُجِّ البحارِ منافعٌ من اللؤلؤِ المكنونِ والعنبرِ الورد

كذلك سرُّ الارضِ في البحرِ كله وفي الغَيْضةِ الغنَّاء والجبلِ الصَّلدِ

ولا بدَّ من أرضٍ لكلِّ مطيَّرٍ وكل سبُوحٍ في الغمائرِ من جدِّ

كذالك وما يَنسَاحُ في الارضِ ماشياً على بطنِهِ مشيَ المُجانبِ للقَصدِ

ويسرِى على جِلْدٍ يقيمُ حزوزهُ تَعَمُّجَ ماءِ السيلِ في صَبَبٍ حَرْدِ (٢)

وفي قُللِ الأجبالِ خلفَ مُقطمٍ زَبَرْجَدُ أملاكِ الوَرَى ساعةَ الحَشْدِ

وفى الحرَّةِ الرَّجْلاءِ تلقى معادنَا لهنَّ مغاراتٌ تبجسُ بالنقدِ (٣)

من الذَّهَبِ الابْريزِ والفِضةِ التى تَرُوقُ وتُصْبِى ذا القناعَةِ والزُّهدِ

---

(١) أرومها : المقصود بها أصول الغابات (٢) تعمج وتمعج بمعنى تلوى . فى صبب حرد : فى المسايل المنحدرة (٣) الحرة الرجلاء : الارض الخشنة ذات الحجارة السود البركانية . تبجس بالنقد : تتبجس بالذهب والفضة، وقد أبان ذلك البيت

وكل فِلِزٍّ من نُحاس وآنك ومن زِئْبقٍ حيٍّ ونوشادرٍ يُسدي(١)

وفيها زَرَانيخٌ ومَكرٌ ومَرْتَكٌ ومن مَرْقَشِيشَاغيرِ كابٍ ولا مُكدِي(٢)

وفيها ضُروبُ القارِ والشَّبِّ والنُّهَى وأصنافُ كبريتٍ مطاوِلةِ الوَقْدِ(٣)

ترى العرقَ منها في المقاطع لائحاً كما قدَّت الحسناء حاشيةَ البُرْدِ(٤)

ومن إثمِدٍ جَوْنٍ وكِلْسٍ وفضةٍ ومن تُوتياءٍ في معادِنهِ هِندِي(٥)

وفي كلِّ أغوارِ البلادِ معادِنٌ وفي ظاهرِ البَيداءِ من مُستَوى نَجْدِ

وكلٌّ يواقيتِ الانامِ وحَلْيِها من الارضِ والاحجارُ فاخرةُ المجدِ

وفيها مقامُ الخِلِّ والرُّكنُ والصَّفا ومُستَلمُ الحجاجِ من جنَّةِ الخُلدِ

وفي صَخرةِ الخضرِ التي عند حُوتِها وفي الحجَرِ المُهْدَى لموسى على عَمْدِ

وفي الصَّخرةِ الصَّمَّاءِ تَصدَعُ آيةٌ لأمٍّ وفَصيلٍ ذي رُغاءٍ وذي وَجْدِ(٦)

مَفاخِرُ للطينِ الذي كان أصلَنا ونحنُ بنوهُ غيرَ شكٍّ ولا جَحْدِ

فذلك تدبيرٌ ونفعٌ وحِكمةٌ وأوضحُ بُرهانٍ على الواحدِ الفَرْدِ

أتجهلُ عمراً والنَّطاسيَّ واصلاً كأتباعِ دَيصانٍ وهم قَمْشُ المَدِّ(٧)

وتَفْخَرُ بالميلادِ والفَنْجِ ... وتضحكُ من جيدِ الرئيسِ أبي جَعْدِ

وتَحكي لدى الأقوامِ شُنعةَ رأيهِ لتصرفَ أهواءَ النفوسِ الى الرَّدِّ

التالي . وفي نسخة : تبخسن ولا معنى لها ههنا (١) فلز : قطع النحاس والبرنز وغيرها من المعادن (٢) المكر : المغرة الحمراء ، والمرتك : الحجر المحرق (٣) النهى : الزجاج (٤) العرق : أي عروق المعادن في الأرض (٥) اثمد جون : كحل أسود . كلس : جير

(٦) يشير بهذا البيت الى آية صالح النبي والى انشقاق الصخرة له عن ناقة ومعها فصيلها

(٧) عمرو : يريد عمرو بن عبيد رأس المعتزلة . وواصل : هو واصل بن عطاء المعتزلي وقد مر الكلام عليهما . ديصان : هو رأس فرقة من الفرق المجوسية ،

وسميتَهُ الغزّالَ في الشّعرِ مُطْنِباً ومولاكَ عند الظُّلمِ قصتهُ مُرّدِي

يقول : ان مولاك ملاح ، لان الملاحين اذا تظلموا رفعوا المرادى

فيا ابنَ حليفِ الطينِ واللؤمِ والعمى وأبعدَ خلقِ اللهِ من طُرقِ الرُّشدِ

أتهجو أبا بكرٍ وتخلعَ بعده عليًّا وتعزُو كلَّ ذاكَ الى بُردِ؟

كأنكَ غضبانٌ على الدينِ كلهِ وطالبُ ذَحْلٍ لا يبيتُ على حقدِ(١)

رجعتَ الى الامصارِ من بعدِ واصلٍ وكنتَ شريداً في التهائمِ والنجْدِ

أتجعل ليلى الناعطيّةَ نِحلةً وكلَّ عريقٍ في التناسخِ والرَّدِ(٢)

عليك بدَعدٍ والصدُوف وفرْتَنى وحاضِنتَيْ كِسْفٍ وزاملتَيْ هِند(٣)

تُوائِب أقماراً وأنتَ مُشوَّهٌ وأقربُ خلقِ اللهِ من شَبهِ القِرْدِ

ولذلك قال فيه حمَّادُ عجْرَدٍ(٤) بعد ذلك :

ويا أقبحَ من قِرْدٍ اذا ما عَمِي القِرْدْ

ويقال انه لم يجزع من شيء قط جزعه من هذا البيت . وذكره الشاعر وذكر أخويه لامه فقال :

لقد ولدَتْ أمُّ الاُكَيْمهِ أعرجاً وآخرَ مقطوعَ القفا ناقِصَ العَضْدِ

وكانوا ثلاثة مختلفي الآباء والام واحدة ، وكلهم ولد زمنا . ولذلك قال بعض من يهجوه :

يقولون بأصلين للوجود: نور وظلمة ، وان النور يفعل الخير قصداً واختياراً ، والظلمة تفعل الشر طبعاً واضطراراً (١) الذحل : الثأر

(٢) ليلى الناعطية: امرأة عاقلة مدبرة لها حكايات فى البخل طريفة طالما تندر بها الجاحظ . التناسخ : انتقال الروح من جسم الى جسم ، وهو من مذاهب براهمة الهند(٣) الصدوف وفرتنى واخواتهما اسماء نساء قيان من أهل الملاهى والاهواء

(٤) حماد عجرد . شاعر معروف من أهل العبث والمجون له، فى بشار أهاج كثيرة

إذا دَعاهُ الخالُ أقْعى ونَكَصْ　　وهُجْنةُ الإقْرافِ فيه بالخَصَص (١)

وقال الشاعر :

لاَ تَشْهَدَنَّ بخارجِي مطْرِفٍ　　حتى ترى من نجلهِ أفراسا

وقال صفوان الانصارى فى بشار وأخويه، وكان يخاطب أمهم :

ولدت خُلْداً وَذِيخاً في تَشتّمه　　وبعدَهُ خُزَزاً يشتدُّ في العضدِ

والخلد: ضرب من الجرذان يولد أعمى. والذيخ: ذكر الضباع، وهو أعرج. والخزز: ذكر الارانب، وهو قصير اليدين لا يلحقه الكلب فى الصيد

ثلاثةٌ من ثلاثٍ فُرقوا فِرَقاً　　فاعرفْ بذلك عرْقَ الخالِ من ولد

وقال بعد ذلك سليمان الاعمى، أخو مسلم بن الوليد الانصارى الشاعر، فى اعتذار بشار لابليس، وهو يخبر عن كرم خصال الارض :

لاَ بدَّ للأرضِ ان طابتْ وان خَبُثَتْ　　من أن تحيلَ اليها كلَّ مغروس

وتُرْبةُ الأرْضِ انْ جيدَتْ وانْ قُحطتْ　　فَحَمْلها أبداً في إِثْرِ مَنْفُوسِ

وبطْنها بفلِزِّ الارضِ ذو خبرٍ　　بكلّ جَوْهَرَةٍ في الارْضِ مرْموسِ

الفلز: جوهر الارض من الذهب والفضة والنحاس والآنك وغير ذلك

وكلّ آنيــة عمّتْ مَرَافقها　　وكلّ منتقدٍ فيها ومَلبوس

وكلُّ ما عونها كالملحِ مِرْفقةً　　وكلها مضحكٌ من قول ابليسِ

وقال بعض خلفاء بغداد :

عجبت من ابليس فى كبرهِ　　وخبثِ ما أبداه مِنْ نيتــهْ

تاهَ على ادمَ في سجدةٍ　　وصارَ قــوّاداً لذريتــه

---

(١) أقعى ونكص : استخذى وخجل لانحطاط أصله من جهة أمه . هجنة الاقراف: أى انحطاطه من جهة أبيه أيضاً خاصة به وظاهرة فيه

وذكره بهذا المعنى سليمان أحو مسلم الانصارى فقال :

يأبى السجود له من فرط نخوته ... وقد تحوّل فى مسلاخ قواد (١)

وقال صفوان، في شأن واصل وبشار ، وفى شأن النار والطين، فى كلمة له :

وفى جوفها للعبد أستر منزل ... وفى ظهرها يقضى فرائضه العبد

تمج لفاظ الملح مجّا وتصطفي ... سبائك لا تصدى وان قدم العهد

وليس بمحص كنه ما فى بطونها ... حساب ولا خط وان بلغ الجهد

فسائل بعبد الله فى يوم حفله ... وذاك مقام لا يشاهده وغد (٢)

أقام شبيباً وابن صفوان قبله ... بقول خطيب لا يجانبه القصد (٣)

وقام ابن عيسى ثم قفاه واصل ... فابدع قولاً ماله فى الورى ند

فما نقصته الراء اذ كان قادراً ... على تركها واللفظ مطرد سرد

ففضل عبد الله خطبة واصل ... وضوعف فى قسم الصلات له الشكد (٤)

فأقنع كل القوم شكر حبائهم ... وقلل ذاك الضعف فى عينه الزهد

قد كتبنا احتجاج من زعم أن واصل بن عطاء كان غزالا ، واحتجاج من دفع ذلك عنه . ويزعم هؤلاء أن قول الناس واصل الغزال ، كما يقال خالد الحذاء، وكما يقولون هشام الدستوانى . وانما قيل ذلك لان الاباضية (٥) كانت تبعث اليه من

---

(١) مسلاخ : جلد ، والمراد به تحول فى زى قواد أو ديوث (٢) عبد الله : هو ابن عمر بن عبد العزيز (٣) شبيب : هو شبيب بن شيبة أحد الخطباء البلغاء . وهو من رهط خالد بن صفوان ومن بابه . ابن صفوان : هو خالد المار ذكره . ابن عيسي : هو الفضل بن عيسي كان خطيبا لسنا بليغا . واصل : هو واصل بن عطاء ، مر ذكره . (٤) الشكد : الشكر (٥) الاباضية : هم فرقة من فرق الخوارج اتباع عبدالله بن أباض الذى خرج فى أيام مروان بن محمد ؛ ولهم فى تكفير بعض المسلمين واستباحة حرماتهم آراء غريبة

صدقاتها بثياب دستوانية، فكان يكسوها الاعراب الذين يكونون بالحباب، فاجابوه الى قول الاباضية، وكانوا قبل ذلك لا يزوجون الهجناء فأجابوه الى التسوية وزوجوا هجينا . فقال الهجين فى ذلك :

انّا وَجدنا دَستوانينا الصّا عِينَ المتبعدينا

أفضل منكم حسباً ودينا أخزَى الآله المتكبّرينا

أفيكم من يُنكح الهجينا ؟

وإنما قيل ذلك لواصل لكثرة جلوسه في سوق الغزالين الى أبى عبد الله مولى قطن الهلالى ، وكذلك كانت حال خالد الحذاء الفقيه . وكما قالوا أبو مسعود البدرى لانه كان نازلا على ذلك الماء. وكما قالوا أبو مالك السُّدى لانه كان يبيع الخُمُرَ (١) فى سُدة المسجد

وهذا الباب مستقصى فى كتاب الأسماء والكنى . وقد ذكرنا جملة منه فى أنباء السرارى والمهيرات (٢)

قال أبو عثمان :

﴿ ذكر الحروف التى تدخلها اللثغة وما يحضرني منها ﴾

وهى أربعة أحرف: القاف ، والسين ، واللام والراء . فأما التى هى على الشين المعجمة فذلك شىء لا يصوره الخط ، لانه ليس من الحروف المعروفة ، وانما هو مخرج من المخارج ، والمخارج لا تحصى ولا يوقف عليها . وكذلك القول فى حروف كثيرة من حروف لغات العجم. وليس ذلك فى شيء أكثر منها فى لغة الخوز. وفى سواحل البحر من أسياف فارس ناس كثير كلامهم شبيه بالصفير . فمن يستطع ان يصور كثيراً من حروف الزمزمة ، وهى الحروف التى تظهر من فم المجوسى اذا ترك الافصاح عن معانيه، واخذ فى باب الكناية وهو على الطعام ؟

فاللثغة التى تعرض للسين تكون ثاء ، كقوله لابى يكسوم : أبى يكثوم ، وكما يقولون: بُثْرة إذا أرادوا بسرة ، و باثم الله اذا أرادوا بسم الله

والثانية اللثغة التى تعرض للقاف ، فان صاحبها يجعل القاف طاء ، فاذا أراد أن

---

(١) الخمر جمع خمار، وهو ما تغطى به المرأة رأسها (٢) المهيرات . الجوارى الحرائر

يقول : قلت له ، قال : طلت له . وأراد أن يقول : قال لى ، قال : طال لى

وأما اللثغة التى تقع فى اللام فان من أهلها من يجعل اللام ياء فيقول بدل قوله: اعتللت ، اعتييت . وبدل جمل ، جمى . وآخرون يجعلون اللام كافا كالذى عرض لعمرأخى هلال، فانه كان اذا أراد ان يقول: ما العلة فى هذا ؟ قال : ما العكة فى هذا ؟

فاما اللثغة التى تقع فى الراء فان عددها يضعف على عدد لثغة اللام ، لان الذى يعرض لها أربعة أحرف : فمنهم من اذا أراد أن يقول: عمرو ، قال: عمى ، فيجعل الراء ياء . ومنهم من اذا اراد أن يقول : عمرو ، قال:عمغ، فيجعل الراء غينا. ومنهم من اذا أراد أن يقول:عمرو ، قال:عمذ .فيجعل الراء ذالا . واذا أنشد قول الشاعر :

واسْتَبَدَّتْ مَرَّةً واحِدَةً   إنّما العاجِزُ مَنْ لاَ يَسْتَبِدْ

قال : واستبدت مذة واحدة   إنما العاجز من لا يستبد

فمن هؤلاء على بن جنيد بن فريدى

ومنهم من يجعل الراء ظاء معجمة ، فيقول اذا أنشد هذا البيت :

واستبدت مرة واحدة   انما العاجز من لا يستبد

قال : واستبدت مظة واحدة   انما العاجز من لا يستبد

ومنهم من يجعل الراء غينا معجمة ،فاذا أراد أن ينشد هذا البيت :

واستبدت مرة واحدة   انما العاجز من لا يستبد

قال : واستبدت مغة واحدة   انما العاجز من لا يستبد

كما أن الذى لثغته بالياء اذا أراد أن يقول:واستبدت مرة واحدة،قال:واستبدت مية واحدة

وأما اللثغة الخامسة التى كانت تعرض لواصل بن عطاء،وسليمان بن يزيد العدوى الشاعر ، فليس الى تصويرها سبيل . وكذلك اللثغة التى تعرض فى الشين كنحو ما كان لمحمد بن الحجاج كاتب داود بن محمد كاتب أم جعفر، فان تلك أيضا ليس لها صورة فى الخط ترى بالعين،وانما يصورها اللسان وتتادى الى السمع . وربما اجتمعت فى الواحد لثغتان فى حرفين ، كنحو لثغة شوشى صاحب عبدالله بن خالد الاموى ، فانه كان يجعل اللام ياء والراء ياء ، قال مرة : مو ياى ويى اَيْ ، يريد

مولاى ولى الرى

واللثغة فى الراء اذا كانت بالياء فهى أحقرهن وأوضعهن لذى المروءة ، ثم التى على الظاء ، ثم التى على الذال . فأما التى على الغين فهى أيسرهن . ويقال ان صاحبها .لو جهد نفسه جهده، وأخذ لسانه،وتكلف مخرج الراء على حقها والافصاح بها، لم يكن بعيدا من أن تجيبه الطبيعة، ويؤثر فيها ذلك التعهد أثراً حسنا. وقد كانت لثغة محمد بن شبيب المتكلم بالغين ، وكان إذا شاء أن يقول : عمر ولعمرى، وما أشبه ذلك على الصحة قاله ، ولكنه كان يستثقل التكلف والتهيؤ لذلك ، فقلت له:اذا لم يكن المانع إلا هذا العذر فلست أشك أنك لو احتملت هذا التكلف والتتبع شهرا واحدا ان لسانك كان يستقيم

أما من يعتريه اللثغ فى الضاد ربما اعتراه أيضا فى الصاد والراء، حتى اذا أراد أن يقول : مضر، قال : مضى . فهذا وأشباهه لاحقون بشوشى

وزعم ناس من العوام أن موسى صلوات الله وسلامه عليه كان ألثغ ، ولم يقفوا من الحروف التى كانت تعرض له فى شى بعينه ، فمنهم من جعل ذلك خلقة ، ومنهم من زعم أنه انما اعتراه حين قالت آسية بنت مراحم امرأة فرعون لفرعون : لا تقتل طفلا لا يفرق الجمر من التمر . فلما دعا له فرعون بهما جميعا تناول جمرة فأهوى بها الى فيه، فاعتراه من ذلك ما اعتراه

وأما اللثغة فى الراء فتكون فى الياء ، والذال ، والغين ، وهى أقلها قبحا وأوجدها فى ذى الشرف وكبار الناس وبلغائهم وأشرافهم وعلمائهم ، وكانت لثغة محمد بن شبيب المتكلم بالغين فاذا حمل على نفسه وقوم لسانه أخرج الراء على الصحة فتأتى له ذلك وكان يدع ذلك استثقالا ، أنا سمعت ذلك منه.قال: وكان الواقدى يروى عن بعض رجاله أن لسان موسى عليه السلام كانت عليه شامة فيها شعرات . وليس يدل القرآن على شىء مما قالوا، لانه ليس فى قوله « واحلل عقدة من لسانى » دليل على شىء دون شىء

قال الاصمعى : اذا تتعتع اللسان فى التاء فهو تمتام ، واذا تتعتع فى الفاء فهو فأفاء وأنشد لرؤبة بن العجاج .

يا حمد ذاك المنطق التمتام كأنَّ وَسْوَاسَكَ فِي اللمَامِ

حديثُ شَيطانِ بنى هَمَّام

و بعضهم ينشد : يا حمد ذات المنطق النمنام . وليس ذلك بشيء ، وانما ذلك كما قاله ابو الزحف :

لستَ بفأفاءٍ ولاَ تمتَامِ ... وَلاَ كَثِيرِ الهُجْرِ في المَنَامِ

وأنشد أيضاً للخولانى فى كلمة له :

إنَّ السيَاطَ تَرَكْنَ لاستِكَ مَنْطِقاً ... كَمَقَالَةِ التَّمْتَامِ لَيْسَ بِمُعْرِبِ

فجعل الخولانى التمتام غير معرب عن معناه ، ولا مفصح بحاجته

وقال أبو عبيدة : اذا أدخل الرجل بعض كلامه فى بعض فهو ألف ، وقيل: بلسانه لفف ، وأنشدنى لابى الزحف الراجز :

كأن فيه لَففاً إذا نَطَقْ ... مِن طُول تَحْبِيسٍ وهَمٍّ وأَرَقْ

كانه لما جلس وحده ولم يكن له من يكلمه وطال عليه ذلك أصابه لفف فى لسانه . وكان يزيد بن جابر قاضى الازارقة بعد المقعطل يقال له الصموت ، لانه لما طال صمته ثقل عليه الكلام فكان لسانه يلتوى ولا يكاد يبين . وأخبرنى محمد بن الجهم أن مثل هذا اعتراه أيام محاربة الزط من طول التفكر ولزوم الصمت . قال: وأنشدنى الاصمعى :

حديثُ بنى زُطٍّ إذا مالَقيتَهم ... كنَزْوِ الدَّبى فيالعَرفَجِ المُتقارِبِ (١)

قال ذلك حين كان فى كلامهم عجلة . وقال سلمة بن عياش :

كأن بنى رَالانَ إذ جاء جمعُهم ... فَرَارِيجُ يُلْقَى بينهنَّ سَوِيقُ

فقال ذلك لرقة أصواتهم وعجلة كلامهم . وقال اللهبى فى اللجلاج :

ليسَ خطيبُ القوم باللَّجْلاَجِ ... ولا الذي يَزْحَلُ كالهِلْبَاجِ (٢)

وَرُبَّ بَيْدَاءَ وَلَيلٍ دَاجِ ... هتكْتُه بالنَّص وَالإدْلاَجِ (٣)

وقال محمد بن سلام الجمحى : كان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه اذا رأى الرجل يتلجلج فى كلامه قال: خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد . ويقال

(١) النزو: الوثب . الدبى : صغار الجراد . العرفج : شجر سهلى (٢) يزحل : يزول . الهلباج : الاحمق القدم الجامع لصنوف الشر (٣) النص والادلاج : السير

فى لسانه حُبسة ، اذا كان الكلام يثقل عليه ولم يبلغ حدالفأفاء والتمتام. ويقال فى لسانه لُكنه ، اذا أدخل بعض حروف العجم فى حروف العرب وجذبت لسانه العادة الاولى الى المخرج الاول . فاذا قالوا فى لسانه حُكلة ، فانما يذهبون الى نقصان آلة المنطق وعجز أداة اللفظ حتى لا تعرف معانيه الا بالاستدلال . وقال رؤبة بن العجاج .

لو أننى أُوتيتُ عِلمَ الحُكلِ ... عِلمَ سليمانَ كلامَ النَّملِ (١)

وقال محمد بن ذؤيب فى مديح عبد الملك بن صالح :

ويفهم قَول الحُكلِ لو أن ذَرَّةً ... تُساوِدُ أُخرى لم يَفُتْهُ سِوادُها

وقال التيمى فى هجائه لبنى تغلب :

ولكنَّ حُكلاً لاَ تَبِينُ ودينُها ... عِبادةُ أعلاجٍ عليها البَرَانِسُ

قال سحيم بن حفص فى الخطيب الذى تعرض له النحنحة والسعلة ، وذلك اذا انتفخ سحره ،وكبا زنده ، ونبا حده ، فقال:

نَعُوذُ باللهِ من الإِهْمالِ ... ومن كلالِ الغَرْبِ في المَقال

ومن خَطيبٍ دائمِ السُّعالِ

وأنشدنى الاعرابى :

إنّ زياداً ليسَ بالبَكِيِّ ... ولا بِهيَّابٍ كثيرِ العِيِّ

وأنشدنى بعض أصحابنا :

نادَيْتُ هَيذَانَ والأبوابُ مُغْلَقَةٌ ... ومثْلَ هَيذانَ سنَّى فتحةَ الْبابِ

كالهِنْدُوانيِّ لَمْ يَفْلُلْ مَضَارِبُهُ ... وجهٌ جميلٌ وقلبٌ غيرُ وجَّابِ

وقال الآخر :

اذا اللهُ سنَّى عَقْدَ شيءٍ تيَسَّرَا

وقال بشر بن معمر فى مثل ذلك :

---

(١) الحكل . الذور الشديد فى أول الليل

ومن الكبائر مِقْوَلٌ مُتتَعْتِعٌ ... جَمٌّ التَّنَحنُحِ متعبٌ مبهور

وذلك أنه شهد رَيسان أبا بجير بن ريسان يخطب ، وقد شهدت أنا هذه الخطبة ولم أرجبانا قط أجرأ منه ، ولا جريئا قط أجبن منه

وقال الاشل الازرقي ـ من بعض أخوال عمران بن حطان الصفرى القعدى ـ فى زيد بن جندب الايادى خطيب الازارقة ، واجتمعا فى بعض المحافل فقال بعد ذلك الاشل البكرى

نَحنَحَ زَيْدٌ وسعَلْ ... لما رَآى وقعَ الأسَلْ

ويْلُ امهِ اذا ارْتجَلْ ... ثم أطال وَاحتفلْ

وقد ذكر الشاعر زيد بن جندب الايادى الخطيب الازرقى فى مرثيته لابى دواد بن جرير الايادى حث ذكره بالخطابة وضرب المثل بخطباء إياد فقال :

كقُسِّ إيادٍ أوْ لَقيطِ بنِ مَعْبَدٍ ... وعُذْرَةَ والمِنْطِيقِ زَيْدِ بْنِ جُنْدَبِ

وزيد بن جندب، هو الذى يقول فى الاختلاف الذى وقع بين الازارقة :

قُلْ لِلْمُحِلِّينَ قَد قَرَّتْ عُيونكم ... بفرْقَةِ الْقَوْمِ والْبغضاء والْهَرَبِ

كنا اناساً على دِين فَفرَّقَنا ... فرْعُ الكلامِ وَخلطُ الجِدِّ باللَّعبِ

ما كان أغنى رِجالاً ضَلَّ سَعْيُهمُ ... عن الجِدالِ وأغناهُمْ عن الخُطَبِ

إنِّى لأهْوَنُكُمْ فى الارضِ مُضْطَرَباً ... مالى سِوَى فَرَسِى والرُّمحِ مِن نَشَبِ

وأما عذرة المذكور فى البيت الاول فهو عذرة بن حجرة الخطيب الايادى، ويدل على قدره فيهم ، وعلى قدره فى اللسن والخطب قول شاعرهم :

وَأيُّ فتى صَبْرٌ عَلى الأيْنِ والظَّما ... اذا اعتَصَرُوا للَّوحِ ماءَ فَظاظِها(١)

إذا ضَرَّجوها ساعَةً بدِمائِها ... وحُلَّ عن الكَوْماء عَقْدُ شِظَاظِها(٢)

(١) الاين : الاعياء من السير الطويل الشاق . اللوح : العطش . ماء الفظاظ : ماء فرث البعير . وكانت العرب اذا ازمعت سفراً بعيدا او اجتياز مفازة شاقة سقوا إبلهم ثم شدوا أفواهها لئلا تجتر فاذا أخذ منهم الظمأ شقوا بطن البعير واعتصروا فرثه وشربوا منه (٢) الكوماء : الناقة التامة الخلق العظيمة السنام . عقد الشظاظ

فإنكَ ضَحّاكٌ الى كلّ صاحبٍ وأَنْطَقُ من قُسٍّ غَدَاةَ عُكَاظِهَا(١)

إذا شعب المولى مشاعب معشر فعُذْرَةُ فيها آخِذٌ بكِظَاظِها (٢)

فلم يضرب هذا الشاعر الايادى المثل لهذا الخطيب الايادى. الا برجل من خطباء إياد، وهو قس بن ساعدة . ولم يضرب صاحب مرثية أبى دواد بن جرير الايادى، المثل الا بخطباء اياد فقط، ولم يفتقر الى غيرهم حيث قال فى عذرة بن حجرة :

كقُسِّ إيادٍ أو لقيطِ بن مَعْبَدٍ(٣) وعذْرَةَ والمِنْطِيقِ زَيْدِ بْنِ جُنْدَبِ

وأول هذه المرثية قوله .

نَعى ابنَ جَرِيرٍ جاهلٌ بمُصابهِ فعَمَّ نِزاراً بالبُكاوالتحوُّبِ (٤)

نَعاهُ لنــا كاللَّيْثِ يَحْمِى عَرِينَهُ وكالبدرِ يَغْشَى ضَوْءُه كلَّ كَوْكَبِ

وأصبر من عود وأهدى اذا سرى من النجم في داج من الليل غيهب(٥)

وأَضْرَبُ من حَدِّ السّنان لسانُه وأمضى من السَّيفِ الْحسامِ الْمشَطَّبِ

زَعِيم نِزارٍ كلِّها وخطيبُهــا اذا قال طاطا رأسَه كلُّ مِشْغَبِ

سَايِلُ قُروم ســادة ثم قالَةٍ يَبُزُّونَ يومَ الجمع أهلَ المحَصَّبِ(٦)

كقُسِّ إيادٍ أو لقيطِ بن معبــد وعذرة والمِنْطِيقِ زيدِ بن جُنْدَبِ

فى كلمة له طويلة. وإياهم عنى الشاعر بقوله :

. خشبة تدخل في عرى الغرائر

(١) قس : هو قس بن ساعدة الايادى خطيب العرب ونذيرها . سمعه النبي وهو صغير فى عكاظ وتحدث بخطبته، وكفى بهذا شرفاً . وقد عمر كثيرا وفى طول عمره اختلاف أقله ٣٨٠ وأكثره ٧٠٠ وتوفى قبل البعثة

(٢) لقيط بن معبد . وصاحب الاغانى يسميه لقيط بن يعمر : شاعر جاهلى قديم عرف بقصيدته التى ينذر بها قومه غزو الفرس لهم

(٣) التحوب : التوجع (٤) واصبر من عود : واصبر من بعير (٥) قروم : سادة امجاد . يبزون : يغلبون

يَرْمُونَ بِالخطَبِ الطوالِ وَتَارَةً وَحْيَ المَـلاَحِظِ خِيفةَ الرُّقبَاءِ

قال أخبرنى محمد بن عباد بن كاسب كاتب زهير ومولى بجيلة من سبي دابق، وكان شاعراً راوية وطلاّبة للعلم علامة ، قال: سمعت ابا دواد بن جرير يقول، وقد جرى شيء من ذكر الخطب وتحبير الكلام واقتضابه وصعوبة ذلك المقام وأهواله، فقال: تخليص المعانى رفق ، والاستعانة بالغريب عجز ، والتشادق من غير أهل البادية بغض ، والنظر فى عيون الناس عي ، ومس اللحية هلك ، والخروج مما بنى عليه اول الكلام اسهاب . وسمعته يقول : رأس الخطابة الطبع ، وعمودها الدربة ، وجناحاها رواية الكلام ، وحليها الاعراب ، وبهاؤها تخير اللفظ ، والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه، وأنشدنى بيتاً له فى صفة خطباء اياد وهو قوله :

يَرْمُونَ بِالْخطَبِ الطوال وتارةً وَحْيَ المْلاحَظِ خيفَةَ الرُّقبَاءِ

فذكر المبسوط فى موضعه ، والمحذوف فى موضعه، والموجز، والكناية، والوحى باللحظ ،ودلالة الاشارة . وأنشدنى له الثقة فى كلمة له معروفة :

الْجودُ أَخْشَنُ مَسًّا يا بني مَطَرٍ مِنْ أَنْ تَبَزَّكُمُوهُ كفُّ مُسْتَلِبِ

مَا أَعْلَمَ النَّاسَ أَنَّ الْجُودَ مَدْفَعَةٌ للذَّمّ لَـكِنه يأتي على النَّشَبِ

قال: ثم لم يحفل بها، فادعاها مسلم بن الوليد الأنصارى، أو ادعيت له . وكان أحد من يجيد قريض الشعر وتحبير الكلام

وفى الخطباء من يكون شاعراً ، ويكون إذا تحدّث أو وصف أو احتج بليغاً مفوهاً بيناً . وربما كان خطيباً فقط ، وشاعراً فقط ، وبين اللسان فقط

ومن الشعراء الخطباء الأبيناء الحكماء :قس بن ساعدة الأيادى . والخطباء كثير،والشعراء أكثر منهم . ومن يجمع الخطابة والشعر قليل

ومنهم عمرو بن الاهتم المنقرى ، وهو المكحل . قالوا : كأن شعره فى مجالس الملوك حلل منشرة . قيل لعمر بن الخطاب رضى الله عنه قيل للاوسية أى منظر أحسن ?قالت : قصور بيض فى حدائق خضر . فأنشد عند ذلك عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بيت عدى بن زيد العبادى :

كدُمَى الْعَاجِ في المحاريبِ أو كالْـ ـبيضِ في الرَّوْضِ زَهْرُهُ مُسْتَنِيرُ (١)

(١) الدمى: الصور المائلة . المحاريب : اماكن العبادة

قال : فقال قسامة بن زهير : كلام عمرو بن الاهتم آنق ، وشعره أحسن . هذا وقسامة أحد أبيناء العرب

ومن الخطباء الشعراء :البعيث المجاشعي ، واسمه خداش بن بشر بن لبيد

ومن الخطباء الشعراء:الكميت بن زيد الاسدى، وكنيته أبو المستهل

ومن الخطباء الشعراء الطرماح بن حكيم الطائى ، وكنيته أبو نفر .

قال القاسم بن معن، قال محمد بن سهل راوية الكميت: أنشدت الكميت قول الطرماح:

اذا قُبِضتْ نَفْسُ الطِّرِمَّاحِ أَخْلَقَتْ عُرَى المجدِ وَاستَرْخَى عِنَانُ القَصَائِدِ

فقال الكميت : إى والله ، وعنان الخطابة والرواية

قال ابو عثمان الجاحظ : ولم ير الناس أعجب حالا من الكميت والطرماح .وكان الكميت عدنانياً عصبياً ، وكان الطرماح قحطانياً عصبياً . وكان الكميت شيعياً من الغالية ، وكان الطرماح خارجياً من الصفرية . وكان الكميت يتعصب لأهل الكوفة ، وكان الطرماح لأهل الشام . وبينهما مع ذلك من الخاصة والمخالطة مالم يكن بين نفسين قط . ثم لم يجر بينهما صرم ولا جفوة ولا إعراض ولا شيء مما تدعو هذه الخصال اليه ، ولم ير الناس مثلهما إلا ماذكروا من حال عبدالله بن زيد الاباضي، وهشام بن الحكم الرافضى ، فانهما صارا الى المشاركة بعد الخلطة والمصاحبة. وقد كانت الحال بين خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة ، الحال التى تدعو الى المفارقة بعد المناقشة والمحاسدة ، للذى اجتمع فيهما من اتفاق الصناعة والقرابة والمجاورة . فكان يقال:لولا أنهما أحلم تميم لتباينا تباين النمر والأسد. وكذلك كانت حال هشام ابن حكم الرافضي وعبد الله بن زيد الاباضي، إلا أنهما فضلا على سائر المتضادين بما صارا ليه من الشركة في جميع تجارتهما . وذكر خالد بن صفوان شبيب بن شيبة فقال : ليس له صديق فى السر ولا عدو فى العلانية . فلم يعارضه شبيب

وتدل كلمة خالد هذه على أنه يحسن أن يسب سب الاشراف

ومن الخطباء الشعراء: عِمران بن حِطان ،[١] وكنيته ابو شهاب ، أحد بنى عمرو بن شيبان اخوة سدوس

---

(١) عمران بن حطان شاعر فصيح من شعراء الخوارج ودعاتهم، ادرك صدراً من الصحابة وروى عنهم وروى عنه اصحاب الحديث . ثم صار من الشراة الخوارج. طلبه الحجاج ففر منه وله فى فراره خطوب وأحداث . وكان بليغاً مبيناً

فمن بني عمرو بن شيبان، مع قلتهم من العلماء والخطباء والشعراء:
عمران بن حطان رئيس القعدة من الصفرية، وصاحب فتياهم، ومقرعهم عند اختلافهم
ومنهم دغفل بن حنظلة النسابه الخطيب العلامة
ومنهم القعقاع بن شور
وسنذكر شأنهم اذا انتهينا الى موضع ذكرهم ان شاء الله تعالى
ومن الخطباء الشعراء: نصر بن سيار أحد بني ليث بن بكر صاحب خراسان وهو يعد في أصحاب الولايات، وفي الحروب، وفي التدبير، وفي العقل وشدة الرأي
ومن الخطباء الشعراء: زيد بن جندب الأيادي، وقد ذكرنا شأنه
ومن الخطباء الشعراء: عجلان بن سحبان الباهلي. وسحبان هذا هو سحبان وائل، وهو خطيب العرب
ومن الخطباء الشعراء، العلماء وممن قد تنافر اليه الاشراف: أعشى همدان
ومن الشعراء الخطباء: عمران بن عصام العنزي. وهو الذي أشار على عبد الملك بخلع أخيه عبد العزيز، والبيعة للوليد بن عبد الملك، في خطبته المشهورة، وقصيدته المذكوره. وهو الذي لما بلغ عبد الملك بن مروان قتل الحجاج له قال: ولم قتله ويله، هلا رعى له قوله فيه:

وبعثت من وَلدِ الاغرِ معتبٍ ... صقراً يلوذُ حمامُه بالعرفجِ
فإذا طبخت بنارِهِ أنضجتها ... وإذا طبخت بغيرِها لم ينضجِ
وهو الهِزَبْرُ إذ أراد فريسةً ... لم يُنجِها منهُ صياحُ الهجهجِ[1]

ومن خطباء الامصار وشعرائهم والمولدين منهم: بشار الأعمى. وهو بشار بن برد وكنيته ابو معاذ. كان من أحد موالي بني عقيل، فان كان مولى أم ظباء ـ على مايقول بنو سدوس وما ذكره حماد عجرد ـ فهو من موالي بني سدوس. ويقال انه من أهل خراسان نازلا في بني عقيل. وله مديح كثير في فرسان أهل خراسان ورجالاتهم وهو الذي يقول:

مِنْ خُراسانَ وبيتي في الذُرى ... ولَدَى المَسْعَاةِ فرعي قد سَبَقْ
وإني لمِنْ قومٍ خُراسانُ دارُهم ... كرامٍ وفرعي فيهمُ ناضرٌ بسَقْ

وكان شاعراً راجزاً سجاعاً خطيباً صاحب منثور ومزدوج، وله رسائل معروفة.

(١) صياح الهجهج: هو الصياح لطرد الاسد وزجره

وأنشد عُقبَةُ بنُ رُؤْبةٍ عُقبةَ بنَ سَلْمٍ رجزاً يمتدحه فيه وبشار حاضر ، فأظهر بشار استحسان الارجوزة ، فقال عقبة بن رؤبة : هذا طراز يا أبا معاذ لاتحسنه . فقال بشار : أَلمثلي يقال هذا الكلام ؟ أنا والله أرجز منك ومن أبيك ومن جدك . ثم غدا على عقبة بن سلم بارجوزته التي أولها :

يااطَلَلَ الحيِّ بذاتِ الصَّمدِ ... باللهِ خبِّرْ كيفَ كنتَ بعدِي

وهي التي يقول فيها :

إِسلَمْ وحُيِّيتَ أبا المَلدِّ ... لله أيامُك في معَدِّ

وفيها يقول :

الُحرُّ يُلحَى والعَصا للعبدِ ... وليسَ للمُلحِفِ مثل الرَّدِّ

ويقول فيها :

وصاحبٍ كالدُّمَّلِ المُمِدِّ ... حَمَلْتُهُ في رُقْعَةٍ من جِلدِي

وما وَراءَ رغبتي من زُهْدي

أي لم أره زهداً فيه ولا رغبة . ذهب الى قول الشاعر :

لقد كنتَ فى قومٍ عليك أَشِحَّةٍ ... بنفسكَ لولا أن منْ طاحَ طائِحُ

يوَدُّونَ لو خاطُوا عليكَ جلودَهم ... ولا تَدْفَعُ الموْتَ النفوسُ الشحائحُ

والمطبوعون على الشعر من المولدين : بشار العقيلى ، والسيد الحميرى ، وأبو العتاهية ، وابن أبى عيينة . وقد ذكر الناس فى هذا الباب : يحيي بن نوفل ، وسلما الخاسر ، وخلف بن خليفة : وأبان بن عبد الحميد اللاحقى أولى بالطبع من هؤلاء ، وبشار أطبعهم كلهمُ .

ومن الخطباء الشعراء ، وممن يؤلف الكلام الجيد ، ويصنع المناقلات الحسان ، ويؤلف الشعر والقصائد الشريفة ، مع بيان عجيب ، ورواية كثيرة ، وحسن دَلّ وإشارة : عيسى بن يزيد بن دأب ، أحد بنى ليث بن بكر ، وكنيته ابو الوليد

ومن الخطباء الشعراء ، ممن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد ، والرسائل الفاخرة ، مع البيان الحسن : كلثوم بن عمرو العتابى ، وكنيته أبو عمرو . وعلى ألفاظه وحذوه ومثاله فى البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من شعراء المولدين ، كنحو منصور

النمرى ، ومسلم بن الوليد الانصارى ، وأشباههما . وكان العتابى يحتذى حذو بشار فى البديع ، ولم يكن فى المولدين أصوب بديعاً من بشار وابن هرمة . والعتابى من ولد عمرو بن كلثوم،ولذلك قال :

إني امرؤٌ هَدَمَ الإقْتارُ مأْثُرتى   واجْتاحَ مابَنَتِ الأَيامُ مِنْ خَطَرِى

أيام عمرو بن كُلْثُومٍ يُسوِّدُهُ   حَيّا ربيعَةَ والأَفناء من مُضَرِ

أُرُومَةٌ عَطَّلَتْنِي من مَكارِمِها   كالقَوْسِ عَطَّلَها الرَّامي مِن الوَتَرِ

ودل فى هذه القصيدة على انه كان قصيراً قوله :

نَهى ظِرافَ الغَوانِي عن مُواصَلَتِي   مايَفْجَأُ العَيْنَ من شَيْبِي ومن قِصَرِى

ومن الخطباء الشعراء الذين جمعوا الشعروالخطب ، والرسائل الطوال والقصار ، والكتب الكبار المجلدة ، والسير الحسان المولدة ، والاخبار المدونة : سهل بن هرون بن راهيبونى (١) الكاتب ،صاحب كتاب« ثعلة وعفرة » فى معارضة كتاب « كليلة ودمنة » وكتاب « الاخوان » وكتاب « المسائل » وكتاب « المخزومى والهذلية » وغير ذلك من الكتب .

ومن الخطباء الشعراء: على بن ابرهيم بن جبلة بن مخرمة، ولا أعلمه يكنى الا أبا الحسن

وسنذكر كلام قس بن ساعدة ، وشأن لقيط بن معبد ، وهند بنت الخس ، وجمعة (٢) بنت حابس ، وخطباء إياد،اذا صرنا الى ذكر خطباء القبائل ان شاء الله

(١) سهل بن هرون بن راهبون، ويكنى أبا عمرو، أصله من نيسابور ونزل البصرة ، تفرد فى زمانه بالبلاغة والحكمة وسعة البيان ،وكان يميل الى مذهب الشعوبية الذين يدينون ببغض العرب. اعجب المأمون ببلاغته وعقله فولاه خزانة الحكمة، وهى التى كانت تحوى كتب الفلاسفة التى نقلت للمأمون من جزيرة قبرس . صنف كتباً كثيرة عارض بها كتب الاوائل حتى لقب « بزرجمهر الاسلام » وله نظم جيد ونثر فائق. ولقد كان الجاحظ كثير الاعجاب به والنقل عنه، وله رسالة فى البخل هى آية من الآيات، وكان بخيلا ظريفاً ،وله فى البخل نوادر معجبه

(٢) خمعة بنت حابس . وفى الاصل: جمعه. وهذا خطأ لا أدرى اذا كان من النساخ أو كان من الجاحظ،غير أنى تحققت أن صحة الاسم « خمعه » كما ضبطه صاحب العباب والمحكم ،وابن الشجرى فى كتابه ما اتفق لفظه واختلف معناه، وكذلك رواه

ولإياد وتميم فى الخطب خصلة ليست لأحد من العرب ، لأن رسول الله ﷺ هو الذى روى كلام قس بن ساعدة وموقفه على جمله بعكاظ وموعظته ،وهو رواه لقريش والعرب ، وهو الذى عجب من حسنه وأظهر من تصويبه . وهذا إسناد تعجز عنه الامانى، وتنقطع دونه الآمال . وإنما وفق الله ذلك الكلام لقس بن ساعدة لاحتجاجه للتوحيد ، ولاظهاره معنى الاخلاص ، وإيمانه بالبعث . ولذلك كان خطيب العرب قاطبة .

وكذلك ليس لأحد فى ذلك مثل الذى لبنى تميم ، لأن رسول الله ﷺ لما سأل عَمْرَو بْنَ الأَهْتَمِ عن الزِّبْرِقَانِ بْنِ بَدْرٍ قال : مانع لحوزته ، مطاع فى أذينه . فقال الزِّبْرِقَان : أما إنه قد علم أكثر مما قال ، لكنه حسدنى شرفى . فقال عمرو : أما لئن قال ماقال . فوالله ماعلمته إلا ضيق الصدر ، زَمِرَ المروءة ، لئيم الخال ، حديث الغنى . فلما رأى انه خالف قوله الآخر قوله الاول ورأى الانكار فى عين رسول الله ﷺ قال : يارسول الله ، رضيت فقلت أحسن ماعلمت ، وغضبت فقلت أقبح ماعلمت ، وماكذبت فى الاولى ولقد صدقت فى الآخرة . فقال النبى ﷺ عند ذلك : إن من البيان لسحرا

فهاتان الخصلتان خصت بهما إياد وتميم دون سائر القبائل

ودخل الأحنف بن قيس على معاوية بن أبى سفيان فأشار له إلى الوساد فقال له : اجلس . فجلس على الارض . فقال معاوية : مامنعك يا أحنف من الجلوس على الوساد ؟ فقال يا أمير المؤمنين : إن فيما أوصى به قَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ المِنْقَرِىُّ ولده أن قال : لاتغشَ السلطان حتى يملك ، ولا تقطعه حتى ينساك ، ولا تجلس له على فراش ولا وساد ، واجعل بينك وبينه مجلس رجل أو رجلين فانه عسى أن يأتى من هو أولى بذلك المجلس منك فتقام له فيكون قيامك زيادة له ونقصاً عليك . حسبى بهذا المجلس ياأمير المؤمنين لعله أن يأتى من هو أولى بذلك المجلس منى . فقال معاوية: لقد أوتيت تميم الحكمة مع رقة حواشى الكلام، وأنشأ يقول :

يا أيُّها السائِلُ عمَّا مَضَى وعلم هذا الزَّمنِ العائِبِ
ان كنتَ تبغي العلم أو أهلهُ أو شاهداً يُخبرُ عن غائبِ

القاضى عياض فى شرحه لحديث ام زرع . والمعروف انها بنت الخس اخت هند

فاعتبرِ الأرضَ بسكانها واعتبرِ الصاحبَ بالصاحبِ

وذهب الشاعر فى مرثية أبى دؤاد فى قوله :

وأصبرُ من عودٍ وأهدى اذا سرى من النجمِ فى داجٍ من الليلِ غيهبِ

هـذا شبيه بقول جبار بن سلمان بن مالك بن جعفر بن كلاب حين وقف على قبر عامر بن الطفيل فقال : كان والله لا يضل حتى يضل النجم ، ولا يعطش حتى يعطش البعير ، ولا يهاب حتى يهاب السيل . وكان والله خير ما يكون حين لا تظن نفس بنفس خيرا

وكان زيد بن جندب أشغى أقلح ، ولولا ذلك لـكان أخطب العرب قاطبـة . وقال عبيدة بن هلال اليشكرى فى هجائه له :

أشغى عفنْباةٌ ونابٌ ذو عصَلْ وقلحٌ بادٍ وسِنٌّ قد نصَـلْ(١)

وقال عبيدة أيضاً فيه :

ولفوكَ أشنعُ حـينَ تنطِقُ فاغراً مِن فى قَريحٍ قد أصابَ بَريرَا(٢)

وقال الـكميت :

تَشـبّه بالهـامِ آثارها مَشافرَ قرْحاً أكلنَ البَريرا

وقال أخو النمر بن تولب فى شنعة أشداق الجمل :

كم ضربةٍ لكَ تحكى فا قُراسيةٍ من المَصاعِبِ فى أشداقِهِ شنَعُ

وفى الخطباء من كان أشغى ، ومن كان أروق ، ومن كان أشدق ، ومن كان أضجم ، ومن كان أفقم

القراسية : بعير أضجم ، والضجم اعوجاج فى الفم . والفقم مثله ، والروَق ركوب السن الشفة . وفى كل ذلك روينا الشاهد والمثل

وروى الهيثم بن عدىٍّ ، عن أبى يعقوب الثقفى ، عن عبد الملك بن عمير قال : قدم علينا الأحنف الـكوفة مع مصعب بن الزبير ، فما رأيت خصلة تذم فى رجل إلا

---

(١) اشغى : بارز الاسنـان العليـا . عفنباة : حاد المخالب . ناب ذو عصل : ناب معوج . القلح : صفرة الاسنان . والسن الناصل : الخارج . (٢) البرير : ثمر الاراك أول

وقد رأيتها فيه . كان أصعل الرأس ، أحجن الأنف ، أغضف الأذن، متراكب الاسنان ، أشدق ، مائل الذقن ، ناتئ الوجنة ، باخق العين ، خفيف العارضين ، أحنف الرجلين (١) ولكنه إذا تكلم جلى عن نفسه .

ولو استطاع الهيثم أن يمنعه البيان أيضاً لمنعة ، ولولا انه لم يجد بداً من أن يجعل له شيئاً على حال لما أقر بأنه إذا تكلم جلّى عن نفسه

وقولنا فى كلمته هذه كقول هند بنت عتبة حين أتاها نعى يزيد بن أبى سفيان ، وقال لها بعض المعزين : إنا لنرجو أن يكون فى معاوية خلف من يزيد ، فقالت هند: ومثل معاوية لا يكون خلفاً من أحد، فوالله لو جمعت العرب من أقطارها ثم رمى به فيها لخرج من أى أعراضها شاء. ولكنا نقول : ألمثل الأحنف يقال: إلا انه اذا تكلم جلى عن نفسه؟

ثم رجع بنا القول الى الكلام الاول فيما يعترى اللسان من ضروب الا فات

قال ابن الاعرابى : طلّق أبو رمادة امرأته حين وجدها لثغاء وخاف أن تجيئه بولد ألثغ فقال :

لثغاء تأتي بحيفسٍ ألثغِ ... تميسُ فى الموشيّ والمصبَّغِ

الحيفس الولد القصير الصغير

وأنشد ابن الاعرابى كلمة جامعة لكثير من هذه المعانى وهو قول الشاعر :

سكتَّ ولا تنطِقْ فانت حبحابْ ... كلُّكَ ذو عيْب وأنتَ عيَّابْ

إن صدَقَ القومُ فانتَ كذّابْ ... أوْ نطقَ القومُ فأنتَ هيَّابْ

أو سكتَ القومُ فأنتَ قبقابْ ... أو أقدموا يوماً فأنتَ وجّابْ

وأنشدنى :

ولست بزمّيجةٍ في الفراشِ ... وجّابةٍ يحتمي أنْ يجيبا

ولاذى قلازمَ عندَ الحياض ... إذاما الشّريب أرابَ الشّريبا

الزميجة : الثقيل عن الحركة . والقلازم : كثرة الصياح :

وأنشدنى :

رُبَّ غريبٍ ناصحِ الجيبِ ... وابن أبٍ متَّهمِ الغيْبِ

(١) صعل الرأس : الصعل دقة الرأس مع طول . احجن: معوج : اغضف: مسترخى الاذن. باخق : اعور . احنف: الحنف اعوجاج القدمين نحو بعضهما ظهوره

وَرُبَّ عَيَّابٍ له مَنْظَرٌ مُشْتَمِلُ الثَّوْبِ على العَيْبِ

وأنشد :

وأجْرَا مَنْ رَأيْتُ بِظَهْرِ غَيْبٍ على عَيْبِ الرِّجَالِ ذوو العُيوبِ

وقال سهل بن هرون : لو عرف الزنجى فرط حاجته الى ثناياه فى اقامة الحروف وتكميل جميل البيان لما نزع ثناياه

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى سهيل بن عمرو الخطيب : يارسول الله، إنزع ثنيتية السفليين حتى يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيباً أبدا

وانما قال ذلك لان سهيلا كان أعلم من شفته السفلى

وقال خلادبن يزيد الارقط : خطب الجمحى خطبة نكاح أصاب فيها معانى الكلام ، وكان فى كلامه صفير يخرج من موضع ثناياه المنزوعة ، فأجابه زيد بن على ابن الحسين بكلام فى جودة كلامه الا أنه فضله بحسن المخرج والسلامة من الصفير . فذكر عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر سلامة لفظ زيد بسلامة أسنانه فقال فى كلمة له :

قَلَّتْ قَوَادِحُهَا وتَمَّ عَدِيدُهَا فَلَهُ بِذَاكَ مَزِيَّةٌ لاَ تُنكَرُ

ويروى : صحت مخارجها وتم حروفها

المزية : الفضيلة

وزعم يحيى بن نجيم بن معاوية بن زَمعة أحد رواة أهل البصرة قال : قال يونس ابن حبيب فى تأويل قول الأحنف بن قيس :

أنا ابنُ الزَّافِرِيَّةِ أرْضَعَتْنِي بِثَدْيٍ لا أجَدُّ ولا وَخِيمُ

أتَمَّتْنِي فَلَم تنقُصْ عِظَامى ولا صَوْتى إذا اصْطَكَّ الخصُومُ

قال: انما عنى بقوله:عظامى،أسنانه التى فى فمه . وهي التى اذا تمت تمت الحروف.

وقال يونس : وكيف يقول مثله : أتمتنى فلم تنقص عظامى ، وهو يريد بالعظام عظام اليدين والرجلين وهو أحنف من رجليه جميعاً مع قول الختات له : والله لانك ضئيل، وان أمك لورهاء ، وكان أعرف بمواقع العيوب وأبصر بدقيقها وجليلها ؟ وكيف يقول

ذلك وهو نصب عيون الاعداء والشعراء والاكفاء ، وهو أنف مضر الذى تعطس عنه ، وأبين العرب والعجم قاطبة ؟

قالوا : ولم يتكلم معاوية على منبر جماعة مذ سقطت ثناياه فى الطست

قال أبو الحسن وغيره : لما شق على معاوية سقوط مقادم فمه قال له يزيد بن معن السلمى : والله ما بلغ أحد سنك الا أبغض بعضه بعضا ، ففوك أهون علينا من سمعك وبصرك . فطابت نفسه

وقال أبو الحسن المدايني : لما شد عبد الملك أسنانه بالذهب قال : لولا المنابر والنساء ما باليت متى سقطت

قال : وسألت مباركا الزنجى الفاشكار ــ ولا أعلم زنجياً بلغ فى الفشكرة مبلغه ــ فقلت له : لم ينزع الزنجى ثناياه ؟ ولم يحدد ناس منهم أسنانهم ؟ فقال : أما أصحاب التحديد فللقتال والنهش ، ولأنهم يأكلون لحوم الناس ، ومتى حارب ملك ملكا فأخذه قتيلا أو أسيراً أكله . وكذلك اذا حارب بعضهم بعضاً أكل الغالب منهم المغلوب

وأما أصحاب القلع فانهم قالوا : نظرنا الى مقادم أفواه الغنم فكرهنا أن تشبه مقادم أفواهنا مقادم أفواه الغنم . فكم تظنهم حفظك الله فقدوا من المنافع العظام بفقد تلك الثنايا ؟

وفى هذا كلام يقع فى « كتاب الحيوان » . وقال أبو الهندى فى اللثغ :

سقيت أبا المُطَرِّحِ إذ تأتّى ... وذو الرَّعثات مُنتَصِبٌ يَصيحُ

شَرَاباً يَهْرُبُ الذّبانُ عَنهُ ... ويَلْثَغُ حينَ يَشرَبُهُ الفَصيحُ

وقال محمد بن عمرو الرومى ، مولى أمير المؤمنين : قد صحت التجربة وقامت العبرة على أن سقوط جميع الاسنان أصلح فى الابانة عن الحروف منه اذا سقط أكثرها وخالف أحد شطريها الشطر الآخر

وقد رأينا تصديق ذلك فى أفواه قوم شاهدهم الناس بعد أن سقط جميع أسنانهم وبعد أن بقى منها الثلث أو الربع . فمن سقط جميع أسنانه ، وكان معنى كلامه مفهوماً ، ألوليد بن هشام القحذمى صاحب الاخبار . ومنهم أبو سفيان ، والعلاء بن لبيد التغلبى ، وكان ذا بيان ولسن . وكان عبيد الله بن ابى غسان ظريفا يصرّف لسانه كيف أحب . وكان الاخاح على الفيس (؟) قد رد أسنانه حتى كان لا يرى أحد منها شيئا الا أن تطلع فى لحم اللثة ، وفى أصول منابت الاسنان . وكان سفيان بن الابرد

الكلبى كثيرا ما يجمع بين القار والحار ،فتساقطت أسنانه جميعا، وكان مع ذلك خطيبا بينا

وقال اهل التجربة : اذا كان فى اللحم الذى فيه مغارز الاسنان تشمير وقصر سمك ،ذهبت الحروف وفسد البيان ،واذا وجداللسان من جميع جهاته شيئا يقرعه ويصكه ولم يمر فى هواء واسع المجال وكان لسانه يملأ جوبة فمه لم يضره سقوط اسنانه الا بالمقدار المغتفر، والجزء المحتمل . ويؤكد ذلك قول صاحب المنطق فانه زعم فى « كتاب الحيوان » أن الطائر والسبع والبهيمة كلما كان لسانه الواحد منها أعرض كان أفصح وأبين،وأحكى لما يلقن ولما يسمع كنحو الببغاء والغداف وغراب البين وما أشبه ذلك ، وكالذى يتهيأ من أفواه السنانير اذا تجاوبت من الحروف المقطعة المشاركة لمخارج حروف الناس . فاما الغنم فليس يمكنها أن تقول الا « ماء» والميم والباء أول مايتهيأ فى أفواه الاطفال كقولهم:ماما ، و: بابا.لانهماخارجان من عمل اللسان ، وانهما يظهران بالتقاء الشفتين .وليس شىء من الحروف أدخل فى باب النقص والعجز من فم الاهتم من الفاء والسين اذا كانا فى وسط الكلمة . فاما الضاد فليس تخرج الا من الشدق الايمن الا أن يكون المتكلم أعسر يسراً مثل عمر ابن الخطاب رضى الله عنه كان يخرج الضادمن أى شدقية شاء.فأما الايمن والاعسر والاضبط ،فليس يمكنهم ذلك الا بالاستكراه الشديد . وكذلك الانفاس مقسومة المنخرين ، فحالا يكون الاسترواح ودفع البخار من الجوف من الشق الايمن ،وحالا يكون من الشق الايسر، ولا يجتمعان على ذلك فى وقت الا أن يستكره ذلك مستكره ،أو يتكلفه متكلف . فاما اذا ترك أنفاسه على سجيتها لم يكن الا كما قالوا

وقالوا: الدليل على أن من سقط جميع أسنانه أن عظم اللسان نافع له قول كعب بن جعيل ليزيد بن معاوية حين أمره بهجاء الانصار فقال: أرادّى أنت الى الكفر بعد الايمان ؟ لا أهجو قوما نصروا رسول الله ﷺ وآووه . ولكنى سادلك على غلام فى الحى كافر كان لسانه لسان ثور . يعنى الاخطل . وجاء فى الحديث « أن الله تبارك وتعالى يبغض الرجل يتخلل بلسانه كما تتخلل الباقرة الخلى بلسانها » . قالوا: ويدل على ذلك قول حسان بن ثابت حين قال له النبى ﷺ ما بقى من لسانك ؟ فاخرج لسانه حتى قرع بطرفه طرف أرنبته ثم قال : والله إنى لو وضعته على صخر لفلقه ، أو على شعر لحلقه،وما يسرنى به مقول من معد. وأبوالسمط (١)

(١) ابو السمط ، فى الاصل: ابو الصمت .وهو خطأ وما اثبتناه هو الصواب

مروان بن أبى الجنوب بن مروان بن أبى حفصة ، وأبوه، وانه فى نسق واحد يقرعون باطراف ألسنتهم أطراف آنفهم

وتقول الهند: لولا أن الفيل مقلوب اللسان لكان أنطق من كل طائر يتهيأ فى لسانه كثير من الحروف المقطعة المعروفة

وقد ضرب الذين يزعمون أن ذهاب جميع الاسنان أصلح فى الابانة عن الحروف من ذهاب الشطر أو الثلثين فى ذلك مثلا فقالوا : الحمام المقصوص جناحاه جميعاً أجدر أن يطير من الذى يكون أحدهما وافراً والآخر مقصوصا ، قالوا، وعلة ذلك ، التعديل والاستواء ، واذا لم يكن كذلك ارتفع أحد شقيه وانخفض الآخر فلم يجذف ولم يطر . والقطا من الطير قد يتهيأ من أفواهها أن تقول « قطا قطا » وبذلك سميت. ويتهيأ من أفواه الكلاب العينات، والفاآت، والواوات، كنحو قولها « وو، وو » وكنحو قولها « عف ، عف » قال الهيثم بن عدى : قيل لصبي : من أبوك ؟ قال « وو، وو » لان أباه كان يسمى كلبا

ولكل لغة حروف تدور فى أكثر كلامها كنحو استعمال الروم للسين ، واستعمال الجرامقة للعين . قال الاصمعى : ليس للروم ضاد ، ولا للفرس ثاء ، ولا للسريان دال

ومن ألفاظ العرب ألفاظ تنافر، وإن كانت مجموعة فى بيت شعر لم يستطع المنشد إنشادها الا ببعض استكراه . فمن ذلك قول الشاعر:

وَقَبرُ حَرْبٍ بمكانٍ قَفْرُ ... وليسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

ولما رأى من لاعلم له أن أحدا لا يستطيع أن ينشد هذين البيتين ثلاث مرات فى نسق واحد فلا يتتعتع ولا يتجاجج ، وقيل لهم : ان ذلك انما اعتراه اذ كان من أشعار الجن ، صدقوا بذلك .

ومن ذلك قول ابن يسير فى أحمد بن يوسف حين استبطأه:

هل مُعينٌ على البُكا والعويلِ ... أم مُعَزٍّ على المُصابِ الجَليلِ

مَيّتٌ ماتَ وهو في وَرَقِ العَيْـ ... ـشِ ، مقيمٌ به ، وظلٍّ ظَليلِ

في عِدادِ الموتى وفي عامِرِ الدنيا ... أبو جعفر أخي وخليلي

لم يَمُتْ مِيتَةَ الْوَفاةِ ولكن ... ماتَ مِن كُلِّ صالحٍ وجَميلِ

لا أُذِيلُ الآمالَ بَعْدَكَ إنّى   بَعْدَهَا بالآمال حَقٌّ بخيلِ

كم لهـا موقفاً بباب صَدِيقٍ   رَجَعَتْ من نداهُ بالتَّعْطِيلِ

ثم قال :

لم يُضِرْها والحمـدُ لِلّهِ شئٌ   وَانْثَنَتْ نحوَ عُرْفِ نَفْسٍ زهولِ

فتفقد النصف الاخير من هذا البيت فانك ستجد بعض ألفاظه يتبرأ من بعض

وأنشدنى أبو العاصى ، قال أنشدنى خلف الاحمر فى هذا المعنى :

وبعضُ قَرِيضِ القَوْمِ أولادُ عَلَّةٍ   يُكِدُّ لسانَ النَّاطِقِ المُتَحَفِّظِ

وقال أبو العاصى : أنشدنى فى ذلك أبو البيداء الرياحى :

وشِعرٍ كَبَعْرِ الكَبْشِ فَرَّقَ بينه   لسَانُ دَعِيٍّ فى القَرِيضِ دَخِيلِ

أما قول خلف « وبعض قريض القوم أولاد علة » فانه يقول : اذ كان الشعر متسكرها وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلا لبعض كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلات ، واذا كانت الكلمة ليس موقعها الى جنب أختها مرضياً موافقاً كان على اللسان عند إنشاء ذلك الشعر مؤونة . وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج ، فيعلم بذلك أنه أفرغ إفراغاً جيداً ، وسبك سبكا واحداً ، فهو يجرى على اللسان كما يجرى على الدهان

وأما قوله « كبعر الكبش » فانما ذهب الى أن بعر الكبش يقع متفرقاً غير مؤتلف ولا متجاور . وكذلك حروف الكلام وأجزاء الشعر من البيت تراها متفقة لسا ولينة المعاطف سهلة . وتراها مختلفة متباينة ، ومتنافرة مستكرهة ، تشق على اللسان وتكده . والاخرى تراها سهلة لينة ، ورطبة مواتية ، سلسة (١) النظام ، خفيفة على اللسان حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة ، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد

قال سحيم بن حفص : قالت بنت الحطيئة للحطيئة : تركت قوماً كراماً ونزلت فى بنى كليب بعر الكبش ؟ فعابتهم بتفرق بيوتهم . فقيل لهم : فانشدونا ببعض ملا تتنافر أجزاؤه ولا تتباين ألفاظه ، فقالوا : قال الثقفى :

---

(١) كان فى الاصل متوانية سليسة وليس هذا بشىء فأصلحناها كما هى مثبتة هنا

مَن كانَ ذا عضدٍ يُدرِكْ ظُلامتَهُ إن الذليلَ الذى ليستْ له عَضُدُ
تَنْبُو يداه إذا ما قلَّ ناصرُه ويأنفُ الضيْمَ إن أثْرَى له عَدَدُ

وأنشدوا :

رَمَتنى وَسِترُ اللهِ بيني وبينها عشيةَ أرآمِ الكِناس رميمُ
رميمُ التي قالتْ لجاراتِ بيتِهَا ضَمِنْتُ لكم أن لا يزالَ يهيمُ
ألا رُبَّ يومٍ لو رَمتْني رَمَيْتُها ولكنّ عهدى بالنّضالِ قديمُ

وأنشدوا :

ولستُ بِزِ مِّيْجَةٍ في الفراش وجّابَةٍ يحتمي أن يُجيبا
ولاذى قلازِمَ عندالحياضِ إذاماالشَّريبُ أرابَ الشريبا

قال نَوْفَلُ بنُ سالم لِرُؤْبَة بنِ العَجّاج : يا أبا الجَحّاف ، مُت متى شئت . قال: وكيف ذلك ؟ قال : رأيت عقبة بن رؤبة ينشد رجزاً أعجبنى . قال : إنه يقول لو كان لقوله قِرَان . وقال الشاعر :

مَهَارِبَةٌ مَناجِبَةٌ قِرانٌ مَنادِبَةٌ كأنَّهم الأُسُودُ (١)

وأنشد ابنُ الأعرابي :

وبتَ يَدْرُسْ شِعْراً لاَ قِرَانَ لَهْ قد كانَ ثقفَهُ حَوْلاً فما زادا

وقال بشار :

فهذا بَديهٌ لا كتحبير قائلٍ إذامَا أرادَالقولَ زوّره شَهرا

فهذا فى افتراق الالفاظ ، فاما افتراق الحروف فان الجيم لاتقارن الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين بتقديم ولا تأخير . والزاى لا تقارن الظاء ولا السين ولا الضاد ولا الذال بتقديم ولا تأخير .

وهذا باب كثير وقد يكتفى بذكر القليل حتى يستدل به على الغاية التى اليها يجرى وقد يتكلم المغلاق الذى نشأ فى سواد الكوفة بالعربية المعروفة ، ويكون لفظه

---

(١) مهاربة : مسارعون : قران : متماثلون

متخيراً فاخراً ، ومعناه شريفاً كريماً ، ويعلم مع ذلك السامع لكلامه ومخارج حروفه أنه نَبطيٌّ . وكذلك اذا تكلم الخراسانى على هذه الصفة فانك تعرف مع اعرابه وتخير ألفاظه فى مخرج كلامه أنه خراسانى . وكذلك إن كان من كتاب الأهْوَاز . ومع هـذا إنا نجد الحاكية من الناس يحكى ألفاظ سكان اليمن مع مخارج كلامهم لا يغادر من ذلك شيئا ، وكذلك تكون حكايته للخراسانى ، والاهوازى، والزنجى والسندى ، والحبشي (١) وغير ذلك . نعم حتى تجده كانه أطبع منهم . فاما اذا حكى كلام الفأفاء فكأنما قد جمعت كل طرفة فى كل فأفاء فى الارض فى لسان واحد ، كما أنك تجده يحكى الاعمى بصور ينشئها لوجهه وعينه وأعضائه لا تكاد تجد من ألف اعمى واحداً يجمع ذلك كله ، فكانه قد جمع جميع طرف (٢) حركات العميان فى أعمى واحد .

ولقد كان أبو دبُّوبة الزنجى مولى آل زياد يقف بباب الكرخ بحضرة المكارين فينهق فلا يبقى حمار مريض، ولا هرم حسير، ولا متعب بهير ، إلا نهق . وقبل ذلك تسمع نهيق الحمار على الحقيقة فلا تنبعث لذلك ولا يتحرك منها متحرك حتى كان أبو دبوبة يحركه . وكأنه قد جمع جميع الصور التى تجمع نهيق الحمار فجعلها فى نهيق واحد . وكذلك فى نباح الكلاب. ولذلك زعمت الاوائل أن الانسان انما قيل له: العالم الصغير سليل العالم الكبير، لانه يصور بيده كل صورة، ويحكى بفمه كل حكاية ، ولانه ياكل النبات كما تاكل البهائم ، وياكل الحيوان كما تاكل السباع ، وأن فيه من أخلاق جميع أجناس الحيوان أشكالا . وانما تهيأ وأمكن الحاكية بجميع مخارج الامم لما أعطى الله الانسان من الاستطاعة والتمكن ، وحين فضله على جميع الحيوان المنطق والعقل والاستطاعة ، فبطول استعمال التكلف ذلت لذلك جوارحه ومتى ترك شمائله ولسانه على سجيتها كان مقصوراً بعادة المنشأ على الشكل الذى لم يزل فيه

وهذه القضية مقصورة على هذه الجملة من مخارج الالفاظ وصور الحركات والسكون . فاما حروف الكلام فان حكمها اذا تمكنت فى الالسنة خلاف هذا الحكم . ألا ترى أن السندى اذا جلب كبيرا فانه لا يستطيع الا أن يجعل الجيم

(١) والحبشي . كان فى الاصل : الاجناس وليس هذا مقامها فمحوناها وائبتنا مكانها الحبشى كما يقتضيه السياق (٢) كان فى الاصل كلمة طرق ولم نرلها موقعاً هنا والاليق بهذا المقام كلمة « طرف » كما اثبتناها

زايا ولو أقام في عليا تميم ، وسفلى قيس ، و بين عجز هوازن ، خمسين عاما ؟ وكذلك النبطى القح خلاف المغلاق الذى نشأ فى بلاد النبط ، لان النبطى القح يجعل الزاى سينا ، فاذا أراد أن يقول : زورق . قال : سورق . ويجعل السين همزة ، فاذا أراد أن يقول : مشمعل ، قال : مشمئل . والنخاس يمتحن لسان الجارية اذا ظن أنها رومية وأهلها يزعمون أنها مولدة بان تقول ناعمة ، وتقول شمس ثلاث مرات متواليات

والذى يعترى اللسان مما يمنع من البيان أمور : منها اللثغة التى تعترى الصبيان الى أن ينشؤا ، وهو خلاف ما يعترى الشيخ الهرم الماج المسترخى الحنك المرتفع اللثة ، وخلاف ما يعترى أصحاب اللكن من العجم ومن نشأ من العرب مع العجم

فمن اللكن ، ممن كان خطيباً أو شاعراً أو كاتباً داهياً . زياد بن سلمى ابوامامة وهو زياد الاعجم ، قال ابوعبيدة : كان ينشد قوله :

فتًى زادَهُ السلطانُ في الودّ رِفعةً إذا غيَّر السُّلطانُ كلَّ خليلِ

قال : كان يجعل السين شينا ، والطاء تاء ، فيقول :

فتى زاده الشلتان في الود رفعة

ومنهم سُحيم عبد بنى الحسحاس قال له عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وانشده قصيدته التى اولها :

عُمَيْرَةَ ودّعْ إنْ تَجهَّزْتَ غَادِيا كفى الشَّيْبُ والاسلامُ للمرءِ ناهِيا

لو كان شعرك كله مثل هـذا لأجزتك

(هكذا وقع فى جميع نسخ الكتاب والحكاية مروية عن عمر رضى الله تعالى عنه فى غير هذا الموضع كما وقعت داخل الكتاب : لوقدمت الاسلام على الشيب لاجزتك (١))

قال : ما سعرت . يريد ما شعرت . فجعل الشين المعجمة سيناً غير معجمة

ومنهم عبيد الله بن زياد والى العراق ، قال لهانىء بن قبيصة : أهروري سائر اليوم ؟ يريد أحروري

ومنهم صهيب بن سنان النمرى صاحب رسول الله ﷺ ، كان يقول . إنك لهائن . يريد : انك لخائن . وصهيب بن سنان يرتضخ لكنة رومية . وعبيد الله بن زياد يرتضخ لكنة فارسية . وقد اجتمعا على جعل الحاء هاء وازدا نقاذار لكنته نبطية ، وكان مثلهما فى جعل الحاء هاء . وبعضهم يروى أنه أملى على كاتب له فقال

(١) هذه العبارة ، التى بين القوسين يظهر انها ليست من أصل الكتاب ، ولعلها حاشية علقها بعض قدماء المطلعين عليه . واذ قامت بنا هذه الشبهة وضعنا العبارة بين قوسين ونبهنا عليها

كتب : الهاصل ألف كر. فكتبها الكاتب بالهاء كما لفظ بها ، فأعاد عليه الكلام فأعاد عليه الكاتب . فلما فطن لاجتماعهما على الجهل قال : أنت لا تهسن أن تكتب وأنا لا أهسن أن أملى ، فاكتب : الجاصل الف كر . فكتبها بالجيم معجمة

ومنهم أبو مسلم صاحب الدعوة ، كان جيد الالفاظ جيد المعانى ، وكان اذا أراد أن يقول : قلت له ، قال: كلت له. فشارك فى تحويل القاف كافا عبيدالله بن زياد.

كذلك خبرنا أبو عبيدة ، وانما أتى عبيد الله بن زياد فى ذلك أنه نشأ فى الأساورة عند شِيرَويهِ الاسوارى زوج أمه مرجانة . وقد كان فى آل زياد غير واحد يسمى شيرويه . قال . وفى دار شيرويه عاد على بن ابى طالب كرم الله وجهه زياداً فى علة كانت به

فهذا ما حضرنا من لكنة البلغاء والشعراء والرؤساء ، فاما لكنة العامة ومن لم يكن له حظ فى المنطق فمثل فيل مولى زياد ، فانه مرة قال لزياد : أهدوا الينا همار وهش. يريد : حمار وحش . قال زياد: وأى شىء تقول ويلك ؟ قال : أهدوا الينا أيرا . يريد :عيراً . فقال زياد :الاول أهون .وقالت أم ولد لجرير بن الخطفى لبعض ولدها :وقع الجردان فى عجان أمكم : أبدلت الذال دالا من الجرذان وضمت الجيم وجعلت العجين عجانا .قال بعض الشعراء فى أم ولد له يذكر لكنتها

أَكثر ما أسمعُ منها في السَّحَرْ تذكيرَها الأُنثى وتأنيثَ الذَّكَرْ

والسوأة السوآءُ في ذِكر القَمرْ

لانها كانت اذا أرادت أن تقول : القمر. قالت:الكمر. وقال ابن عباد:ركبت عجوز سندية جملا فلما مشى تحتها متخلعا اعتراها كهيئة حركة الجماع فقالت . هذا الذمل يذكرنا بالسر . تريد أنه يذكرها بالوطء . فجعلت الشين سينا والجيم ذالا . وهذا كثير

وباب آخر من اللكنة كما قيل للنبطى : لم ابتعت هذه الاتان ؟ قال . أركبها وتلَّد لى: فقد جاء بالمعنى بعينه ولم يبدل الحروف بغيرها ولا زاد فيها ولا نقص ، ولكنه فتح المكسور حين قال: تلد لى ، ولم يقل تلِد لى . والصقلىّ يجعل الذال المعجمة دالا فى الحروف

باب البيان

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله

قال بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعاني : المعانى القائمة فى صدور العباد المتصورة فى أذهانهم، والمتخلجة فى نفوسهم ، والمتصلة بخواطرهم ، والحادثة عن فكرهم مستورة خفية ، و بعيدة وحشية ، ومحجوبة مكنونة ، وموجودة فى معنى معدومة ، لا يعرف الانسان ضمير صاحبه ، ولا حاجة أخيه وخليطه . ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره ، وعلى مالا يبلغه من حاجات نفسه الا بغيره * وانما تحيا تلك المعانى فى ذكرهم لها ، واخبارهم عنها ، واستعمالهم اياها * وهذه الخصال هي التى تقربها من الفهم وتجليها للعقل ، وتجعل الخفى منها ظاهراً ، والغائب شاهداً ، والبعيد قريبا . وهى التى تخلص (١) الملتبس ، وتحل المنعقد . وتجعل المهمل مقيداً ، والمقيد مطلقا ، والمجهول معروفا ، والوحشي مألوفا ، والغفل موسوما ، والموسوم معلوما ، وعلى قدر وضوح الدلالة ، وصواب الاشارة ، وحسن الاختصار ، ودقة المدخل ، يكون اظهار المعنى . وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح ، وكانت الاشارة ابين وانور ، كان انفع وانجع . والدلالة الظاهرة على المعنى الخفى هو البيان الذى سمعت الله تبارك وتعالى يمدحه يدعو اليه ويحث عليه . وبذلك نطق القرآن . وبذلك تفاخرت العرب ، وتفاضلت وأصناف الاعجام

والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى ، وهتك الحجب دون الضمير ، حتى يفضى السامع الى حقيقته ، ويهجم على محصوله ، كائنا ما كان ذلك البيان . ومن أى جنس كان ذلك الدليل ، لان مدار الامر والغاية التى اليها يجرى القائل والسامع انما هو الفهم والافهام ، فباى شيء بلغت الافهام ، وأوضحت عن المعنى ، فذلك هو البيان فى ذلك الموضع

ثم اعلم حفظك الله ان حكم المعانى خلاف حكم الألفاظ ، لأن المعانى مبسوطة الى غير غاية ، وممتدة الى غير نهاية ، وأسماء المعانى مقصورة معدودة ، ومحصلة محدودة

---

(١) كانت فى الاصل «تلخص» ولا معنى للتلخيص هنا وانما هى تخلص كما اثبتناها

وجميع أصناف الدلالات على المعانى من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء، لا تنقص ولا تزيد ، أولها : اللفظ ، ثم الاشارة ، ثم العقد ، ثم الخط ، ثم الحال ، وتسمى نصبة. والنصبة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الاصناف، ولا تقصر عن تلك الدلالات

ولكل واحد من هذه الخمسة صورة بائنة من صورة صاحبتها ، وحلية مخالفة لحلية أختها ، وهى التى تكشف لك عن أعيان المعانى فى الجملة ، ثم عن حقائقها فى التفسير ، وعن أجناسها واقدارها ، وعن خاصها وعامها ، وعن طبقاتها فى السار والضار ، وعما يكون منها لغواً بهرجا وساقطاً مطّرحاً

قال أبو عثمان : وكان فى الحق أن يكون هذا الباب فى أول هذا الكتاب ، ولكنا أخرناه لبعض التدبير

وقالوا : البيان بصر، والعى عمى ، كما أن العلم بصر، والجهل عمى. والبيان من نتاج العلم، والعى من نتاج الجهل . وقال سَهْلُ بنُ هَرُون : العقل رائد الروح ، والعلم رائد العقل ، والبيان ترجمان العلم . وقال صاحب المنطق : حد الانسان : ألحى الناطق المبين . وقالوا: حياة المروءة الصدق ، وحياة الروح العفاف ، وحياة الحلم العلم، وحياة العلم البيان . وقال يونس بن حبيب : ليس لعى مروءة ، ولا لمنقوص البيان بهاء ، ولوحك بيافوخه عنان السماء . وقالوا : شعر الرجل قطعة من كلامه ، وظنه قطعة من علمه ، واختياره قطعة من عقله . وقال ابن التوام : الروح عماد البدن ، والعلم عماد الروح ، والبيان عماد العلم

قد قلنا فى الدلالة باللفظ ، فأما الاشارة : فباليد وبالرأس وبالعين والحاجب والمنكب ، اذا تباعد الشخصان ، وبالثوب وبالسيف . وقد يتهدد رافع السوط والسيف . فيكون ذلك زاجراً رادعاً ، ويكون وعيداً وتحذيراً

والاشارة واللفظ شريكان ، ونعم العون هى له، ونعم الترجمان هى عنه ، وما اكثر ماتنوب عن اللفظ وما تغنى عن الخط ؟

وبعد، فهل تعدو الاشارة أن تكون ذات صورة معروفة ، وحلية موصوفة ، على اختلاف فى طبقاتها ودلالتها ؟ وفى الاشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح مرفق كبير، ومعونة حاضرة فى أمور يسرها الناس من بعض ، ويخفونها من الجليس وغير الجليس . ولولا الاشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص ، ولجهلوا هذا الباب البتة . ولولا أن تفسير هذه الكلمة يدخل فى باب صناعة الكلام لفسرتها لكم . وقد قال الشاعر فى دلالات الاشارة :

أشَارَتْ بِطَرْفِ العَيْنِ خيفَةَ أهْلِها إشَارَةَ مَذعُورٍ ولم تَتَكَلَّمِ
فأيقنتُ أنَّ الطرفَ قد قال مرحباً وأهلاً وسهلاً بالحَبيبِ المُتَيَّمِ

وقال الآخر :

وللقلب على القلـ ـبِ دَليلٌ حِينَ يلقاهُ
وفي الناسِ مِن النا سِ مَقاييسٌ وأشْباهُ
وفي العَينِ غِنًى للمر ءِ أنْ تنطِقَ أفواهُ

وقال الآخر :

ومَعْشَرٍ صيدٍ ذَوِي تَجِلّهْ تَرَى عليهم للنَّدَى أدِلَّهْ

وقال الآخر :

تَرَى عينُها عيني فتعرِفُ وحْيَها وتعرِفُ عيني مَا بهِ الوحْيُ يَرْجِعُ

وقال الآخر :

وعين الفتى تُبْدِي الذي في ضَمِيرِهِ وتَعْرِفُ بالنَّجْوَى الحدِيثَ المُغَمَّسَا

وقال الآخر :

العين تُبدى الذي في نفسِ صَاحبها من المحبةِ أو بغضٍ إذا كانَا
والعينُ تنطقُ والأفواهُ صَامِتَةٌ حتى ترى من ضميرِ القلبِ تِبْيَانَا

هذا ؛ ومبلغ الاشارة أبعد من مبلغ الصوت. فهذا أيضا باب تتقدم فيه الاشارة الصوت . والصوت هو آلة اللفظ ، وهو الجوهر الذى يقوم به التقطيع ، و به يوجد التأليف . ولن تكون حركات اللسان لفظاً ولا كلاما موزوناً ولا منثوراً الا بظهور الصوت . ولا تكون الحروف كلاما الا بالتقطيع والتأليف . وحسنُ الاشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان، مع الذى يكون مع الاشارة من الدل والشكل والتفتل والتثنى واستدعاء الشهوة ، وغير ذلك من الامور

قد قلنا فى الدلالة بالاشارة ، فاما الخط فمما ذكر الله تبارك وتعالى فى كتابه من فضيلة الخط والانعام بمنافع الكتاب قوله لنبيه ﷺ « إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » وأقسم به فى كتابه المنزل على نبيه المرسل ﷺ حيث قال « نْ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ » ولذلك قالوا : القلم أحد اللسانين . كما قالوا : قلة العيال أحد اليسارين . وقالوا : القلم أبقى أثراً ، واللسان أكثر هذراً . وقال عبدالرحمن بن كيسان : استعمال القلم أجدر أن يحض الذهن على تصحيح الكتاب من استعمال اللسان على تصحيح الكلام . وقالوا : اللسان مقصور على القريب الحاضر ، والقلم مطلق في الشاهد والغائب ، وهو للغابر الكائن، مثله للقائم الراهن . والكتاب يقرأ بكل مكان ، ويدرس فى كل زمان ، واللسان لا يعدو سامعه ولا يتجاوزه الى غيره

وأما القول فى العقد، وهو الحساب، دون اللفظ والخط ، فالدليل على فضيلته وعظم قدر الانتفاع به قول الله عز وجل « فالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَاعِلُ اللَّيْلِ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ » وقال جل وتقدس « الرَّحْمٰنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ » وقال تبارك وتعالى « هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ » وقال تبارك وتعالى « وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ » والحساب يشتمل على معان كثيرة ومنافع جليلة ، ولولا معرفة العباد بمعنى الحساب فى الدنيا لما فهموا عن الله عز وجل ذكره معنى الحساب فى الآخرة

وفى عدم اللفظ وفساد الخط ، والجهل بالعقد ، فساد جل النعم ، وفقدان جمهور المنافع ، واختلال كل ما جعله الله عز وجل لنا قواما، ومصلحة ونظاماً

وأما النصبة فهى الحال الناطقة بغير اللفظ ، والمشيرة بغير اليد . وذلك ظاهر فى خلق السموات والارض ، وفى كل صامت وناطق ، وجامد ونام ، ومقيم وظاعن ، وزائد وناقص . فالدلالة التى فى الموات الجامد، كالدلالة التى فى الحيوان الناطق .

فالصامت ناطق من جهة الدلالة ، والعجماء معربة من جهة البرهان . ولذلك قال الاول : سل الارض فقل : من أنهارك ، وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك ؟ فان لم تجبك حواراً ، أجابتك اعتباراً . وقال بعض الخطباء : أشهدأن السموات والارض آيات دالات ، وشواهدقائمات ، كل يؤدى عنك الحجة ، ويعرب عنك بالربوبية موسومة بآثار قدرتك ، ومعالم تدبيرك التى تجليت بها لخلقك ، فأوصلت الى القلوب من معرفتك ما آنسها من وحشة الفكر ورجم الظنون ، فهى على اعترافها لك، وذلها اليك، شاهدة بانك لا تحيط بك الصفات ، ولا تحدك الاوهام ، وأن حظ المفكر فيك الاعتراف لك . وقال خطيب من الخطباء حين قام على سرير الاسكندر وهو ميت: الاسكندر كان أمس أنطق منه اليوم ، وهو اليوم أوعظ منه أمس . ومتى دل الشيء على معنى فقد أخبر عنه وان كان صامتا ، وأشار اليه وان كان ساكتا

وهذا القول شائع فى جميع اللغات ؛ ومتفق عليه مع افراط الاختلافات

وأنشد أبو الردينى العكلى فى تنسم الذئب للريح واستنشاقه واسترواحه :

يَسْتَخْبِرُ الرِّيحَ إِذا لم يسمعِ　　　بمِثْلِ مِقْراعِ الصَّفَا الموقَّعِ

المقراع : الفأس التى يكسر بها الصخر. والموقع : المحدد، يقال: وقعت الحديدة اذا حددتها . وقال عنترة بن شداد العبسى ، وجعل نعيب الغراب خبرا للزاجر :

حَرِقُ الجَناحِ كأَنَّ لَحْيَىْ رأسِهِ　　　جَلَمَانِ بالأَخبار هَشٌّ مُولَعُ

الحرق : الاسود . شبه لحييه بالجلمين لان الغراب يخبر بالفرقة والغربة ، ويقطع كما يقطع الجلمان . وقال الراعى :

إن السَّماءَ وإن الريحَ شاهدةٌ　　　والأرضُ تشهدُ والأيامُ والبلدُ

لقد جزيتُ بنى بَدرٍ ببغْيِهم　　　يومَ الهباءةِ يوماً ما لَه قَوَدُ

وقال نُصَيبٌ فى هذا المعنى يمدح سليمان بن عبد الملك :

أقول لرَكبٍ صادِرِينَ لقيتُهم　　　قِفا ذات أوشالٍ ومولاكَ قاربُ

قِفُوا خبّرونا عن سُليمانَ إنَّنى　　　لِمعروفه من آل ودَّانَ طالب

فعاجُوا فأثنوا بالذي أنت أهلُه　　　ولو سكتوا أثْنَتْ عليك الحقائب

وهذا كثير جدا

بسم الله الرحمن الرحيم

قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : قيمة كل انسان ما يحسن
فلو لم نقف من هذا الكتاب الا على هذه الكلمة لوجدناها كافية شافية ، ومجزية مغنية ، بل لوجدناها فاضلة على الكفاية ، وغير مقصرة عن الغاية

وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ، ومعناه في ظاهر لفظه ، وكان الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة وغشاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه وتقوى قائله. فاذا كان المعنى شريفاً ، واللفظ بليغا ، وكان صحيح الطبع ، بعيداً من الاستكراه ، ومنزهاً عن الاختلال ، مصونا عن التكلف ، صنع فى القلب صنيع الغيث فى التربة الكريمة . ومتى فصلت الكلمة على هذه الشريطة ، ونفذت من قائلها على هذه الصفة ، أصحبها الله من التوفيق ، ومنحها من التأييد مالا يمتنع من تعظيمها به صدور الجبابرة ، ولا يذهل عن فهمها عقول الجهلة

وقد قال عامر بن عبد القيس : الكلمة اذا خرجت من القلب وقعت فى القلب ، واذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان

قال الحسن رضي الله تعالى عنه — وسمع متكلما يعظ فلم تقع موعظته بموضع من قلبه ولم يرق عندها — ياهذا إن بقلبك لشرا أو بقلبي . وقال على بن الحسين ابن على رضى الله عنهم . لو كان الناس يعرفون جملة الحال فى فضل الاستبانة ، وجملة الحال فى صواب التبيين ، لاعربوا عن كل ما تخالج فى صدورهم ، ولوجدوا من برد اليقين ما يغنيهم عن المنازعة الى كل حال سوى حالهم ، وعلى أن دَرَكَ ذلك كان يعدمهم فى الايام القليلة العدة ، والفكرة القصيرة المدة ، ولكنهم من بين مغمور بالجهل ، ومفتون بالعجب ، ومعدول بالهوى عن باب التثبت ، ومصروف بسوء العادة عن تفضيل التعلم . وقد جمع محمد بن على بن الحسين صلاح شأن الدنيا بحذافيرها فى كلمتين فقال : صلاح شأن جميع التعايش والتعاشر ملء مكيال : ثلثاه فطنة ، وثلثه تغافل فلم يجعل لغير الفطنة نصيبا من الخير ، ولا حظا فى الصلاح . لان الانسان لا يتغافل إلا عن شيء قد فطن له وعرفه

وذكر هذه الثلاثة الاخبار ابرهيم بن داحة ، عن محمد بن عمير . وذكرها صالح بن على الافقم عن محمد بن عمير ، وهؤلاء جميعا من مشايخ الشيع . وكان ابن عمير أغلاهم
وأخبرنى ابرهيم بن السندى . عن على بن صالح الحاجب ، عن العباس بن محمد

قال : قيل لعبد الله بن عباس : أنى لك هذا العلم ؟ قال : قلب عقول، ولسان سؤول. وقد رووا هذا الكلام عن دَغْفل بن حنظلة (١) العلامة ، وعبد الله أولى به منه. والدليل على ذلك قول الحسن : إن أول من عرف بالبصرة ابن عباس، صعد المنبر فقرأ سورة البقرة ففسرها حرفا حرفا ، وكان مِثَجّا يسيل غربا

المثج : السائل الكثير ، وهو من الثجاج. والغرب ههنا الدوام

أخبرنا هِشام بن حسان وغيره قال : قيل للحسن : ياأبا سعيد ، ان قوما زعموا انك تذم ابن عباس ؟ قالوا : فبكى حتى اخضلت لحيته ، ثم قال : إن ابن عباس كان من الاسلام بمكان ، ان ابن عباس كان من العلم بمكان ، وكان والله له لسان سؤول، وقلب عقول ، وكان والله مثجاً يسيل غربا

قالوا : وقال على بن عبد الله بن عباس : من لم يجد مس نقص الجهل فى عقله، وذل المعصية فى قلبه ، ولم يستبن موضع الخلة فى لسانه عند كلال حده عن حد خصمه، فليس ممن يفزع عن ريبة ، ولا يرغب عن حال معجزة ، ولا يكترث لفصل ما بين حجة وشبهة قالوا : وذكر محمد بن على بن عبد الله بن عباس بلاغة بعض أهله فقال: انى لا كره أن يكون مقدار لسانه فاضلا عن مقدار علمه ، كما أكره أن يكون مقدار علمه فاضلا على مقدار عقله

وهذا كلام شريف نافع، فاحفظوا لفظه وتدبروا معناه

ثم اعلموا أن المعنى الحقير الفاسد، والدنىء الساقط، يعشش فى القلب، ثم يبيض ثم يفرخ ، فاذا ضرب بجرانه ، ومكن لعروقه ، استفحل الفساد وبزل ، وتمكن الجهل وفرخ ، فعند ذلك يقوى داؤه، ويمتنع دواؤه . اللفظ الهجين الردىء، والمستكره الغبي أعلق باللسان . وآلف للسمع ، وأشد التحاما بالقلب ، من اللفظ النبيه الشريف والمعنى الرفيع الكريم . ولو جالست الجهال والنوكى، والسخفاء والحمقى، شهرا فقط لم تنق من أوضار كلامهم، وخبال معانيهم بمجالسة أهل البيان والعقل دهرا. لان الفساد أسرع الى الناس وأشد التحاما بالطبائع . والانسان بالتعلم والتكلف وبطول الاختلاف

(١) دغفل بن حنظلة السدوسي الشيبانى . كان مضرب المثل فى معرفته أنساب العرب . فكانوا يقولون «انسب من دغفل» ادرك النبى ﷺ ولم يروعنه شيئا، وله مع ابى بكر محاورة فى النسب تزيد عليه فيها . وقد وصف العلم فقال : إن للعلم آفة وإضاعة . ونكدا واستجاعة ، فآفته النسيان. واضاعته أن تحدث به من ليس بأهله ، ونكده الكذب فيه. واستجاعته أن صاحبه منهوم لا يشبع . قتله الازارقة

الى العلماء ، ومدارسة كتب الحكماء ، يجود لفظه، ويحسن أدبه . وهو لا يحتاج فى الجهل الى اكثر من ترك التعلم ، وفى فساد البيان الى اكثر من ترك التخير

ومما يؤكد قول محمد بن على بن عبد الله بن عباس قول بعض الحكماء حين قيل له : متى يكون الادب شراً من عدمه ؟ قال : اذا كثر الأدب، ونقصت القريحة. وقد قال بعض الأولين : من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه، كان حتفه فى أغلب خصال الخير عليه . وهذا كله قريب بعضه من بعض

وذكر المُغِيرَةُ بنُ شُعْبَةَ عُمرَ بن الخطاب رضى الله عنه فقال . كان والله أفضل من أن يخدع، وأعقل من أن يُخدع . وقال محمد بن على بن عبد الله بن عباس : كفاك من علم الدين أن تعلم مالا يسع جهله ، وكفاك من علم الادب أن تروى الشاهد والمثل . وكان عبد الرحمن بن اسحق القاضي يروى عن جده ابرهيم بن سلمة قال : سمعت أبا مسلم يقول : سمعت الامام ابرهيم بن محمد يقول : يكفى من حظ البلاغة أن لا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق ، ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع

قال أبو عثمان : وأما أنا فأستحسن هذا القول جداً

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ولا حول ولا قوة الا بالله . وصلى الله على سيدنا محمد خاصة ، وعلى الانبياء عامة

أخبرنى أبو الزبير كاتب محمد بن حسان ، وحدثنى محمد بن أبان ــ ولا أدرى كاتب من كان ــ قالا : قيل للفارسي : ما البلاغة ؟ قال : معرفة الفصل من الوصل . وقيل لليونانى : ما البلاغة ؟ قال : تصحيح الاقسام ، واختيار الكلام . وقيل للرومى : ما البلاغة ؟ قال : حسن الاقتضاب عند البداهة ، والغزارة يوم الاطالة . وقيل للهندى : ما البلاغة ؟ قال : وضوح الدلالة ، وانتهاز الفرصة . وحسن الاشارة . وقال بعض أهل الهند : جماع البلاغة البصر بالحجة ، والمعرفة بمواضع الفرصة . ثم قال : ومن البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة : أن تدع الافصاح بها الى الكناية عنها . اذ كان الافصاح أوعر طريقة ، وربما كان الاضراب عنها صفحاً أبلغ فى الدرك وأحق بالظفر

وقال مرة : جماع البلاغة التماس حسن الموقع . والمعرفة بساعات القول ، وقلة الخرق بما التبس من المعانى أو غمض ، وبما شرد عليك من اللفظ أو تعذر . ثم قال وزين ذلك كله وبهاؤه ، وحلاوته وسناؤه ، أن تكون الشمائل موزونة ، والالفاظ

معدلة ، واللهجة نقية ، فان جامع ذلك السن والسمت والجمال وطول الصمت ، فقد تم كل التمام ، وكمل كل الكمال

وخالف عليه سهل بن هرون ـ وكان سهل فى نفسه عتيق الوجه، حسن الاشارة، بعيداً من الفدامة، (١) معتدل القامة ، مقبول الصورة ، يُقضى له بالحكمة قبل الخبرة، و برقة الذهن قبل المخاطبة ، و بدقة المذهب قبل الامتحان ، و بالنبل قبل التكشف. فلم يمنعه ذلك أن يقول ماهو الحق عنده ، وان أدخل ذلك على حاله النقص ـ قال سهل بن هرون : لو أن رجلين خطبا أو تحدثا أو احتجا أو وصفا ، وكان أحدهما جميلا جليلا بهياً ذا لباس(٢) نبيلا، وذا حسب شريفاً ، وكان الآخر قليلا قميئا و باذ الهيئة دميا ، وخامل الذكر مجهولا ، ثم كان كلاهما فى مقدار واحد من البلاغة ، وفي وزن واحد من الصواب ، لتصدع عنهما الجمع وعامتهم تقضى للقليل الدميم على النبيل الجسيم ، وللباذ الهيئه على ذى الهيئة ، ولشغلهم التعجب منه عن مساواة صاحبه ، ولصار التعجب منه سبباً للعجب به ، ولكان الاكثار فى شأنه علةً للاكثار فى مدحه . لأن النفوس كانت له أحقر، ومن بيانه أيئس، ومن حسده أبعد . فاذا هجموا منه على مالم يحتسبوه ، وظهر منه خلاف ماقدروه ، تضاعف حسن كلامه فى صدورهم . وكبر فى عيونهم ، لان الشيء من غير معدنه أغرب ، وكلما كان أغرب كان أبعد فى الوهم ، وكلما كان أبعد فى الوهم كان أظرف ، وكلما كان أظرف كان أعجب ، وكلما كان أعجب كان أبدع ، وانما ذلك كنوادر كلام الصبيان وملح المجانين، فان ضحك السامعين من ذلك أشد ، وتعجبهم به اكثر ، والناس موكلون بتعظيم الغريب واستطراف البديع ، وليس لهم فى الموجود الراهن المقيم ، وفيما تحت قدرتهم من الرأى والهوى ، مثل الذى معهم فى الغريب القليل ، وفى النادر الشاذ ، وكل ما كان فى ملك غيرهم . وعلى ذلك زهد الجيران فى عالمهم ، والاصحاب فى الفائدة من صاحبهم ، وعلى هذه السبيل يستطرفون القادم عليهم ، ويرحلون الى النازح عنهم ، و يتركون من هو أعم نفعاً ، وأكثر فى وجوه العلم تصرفاً ، وأخف مؤنة ، وأكثر فائدة

ولذلك قدّم بعض الناس الخارجىّ على العريق ، والطارف على التليد ، وكانوا يقولون : اذا كان الخليفة بليغاً والسيد خطيباً فانك تجد جمهور الناس وأكثر الخاصة فيهما على أمرين . إما رجلا يعطى كلامهما من التعظيم والتفضيل والاكبار

(١) الفدامة : العى والغباء . (٢) فى نسخة : ولباسا نبيلا ، ولم نرلها معنى فابدلناها بما أثبتناه هنا ليستقيم اللفظ ويدنو المعنى من الصواب

والتبجيل على قدر حالهما فى نفسه، وموقعهما من قلبه . وإما رجلا تعرض له التهمة لنفسه فيهما والخوف من أن يعطى تعظيمه لهما يوهمه من صواب قولهما و بلاغة كلامهما ما ليس عندهما ، حتى يفرط فى الاشفاق ويسرف فى التهمة ، فالاول يزيد فى حقه للذى له فى نفسه. والآخر ينقصه من حقه لتهمته لنفسه ولا شفاقه من أن يكون مخدوعا فى أمره . فاذا كان الحب يعمى عن المساوى ، فالبغض يعمى عن الحقائق والمحاسن . وليس يعرف حقائق مقادير المعانى ومحصول حدود لطائف الامور الا عالم حكيم، أو معتدل الاخلاط (١)عليم . والاالقوى المنة، لوثيق العقدة، والذى لا يميل مع ما يستميل الجمهور الاعظم والسواد الاكثر

وكان سهل بن هرون شديد الاطناب فى وصف المأمون فى البلاغة والجهارة ، وبالحلاوة والفخامة ، وبجودة اللهجة والطلاوة

واذا صرنا الى ذكر ما يحضرنا من تسمية خطباء بنى هاشم،و بلغاء رجال القبائل قلنا فى وصفهما على حسب حالهما والفرق الذى بينهما ، ولاننا عسى أن نذكر جملة أسماء خطباء الجاهليين والاسلاميين والبدويين والحضريين ، و بعض مايحضرنا من صفاتهم وأقدارهم ومقاماتهم و بالله التوفيق

ثم رجع بنا القول الى ذكر الاشارة : وروى أبو شمر عن معمر أبى الأشعث خلاف القول الاول فى الاشارة والحركة عند الخطبة . وعند منازعة الرجال ومناقلة الاكفاء

وكان أبو شمر اذا نازع لم يحرك يديه ولا منكبيه، ولم يقلب عينيه ، ولم يحرك رأسه، حتى كأن كلامه انما يخرج من صدع (٢) صخرة ، وكان يقضى على صاحب الاشارة بالافتقار الى ذلك وبالعجز عن بلوغ ارادته ، وكان يقول : ليس من المنطق أن تستعين عليه بغيره ، حتى كلمه ابرهيم بن سيار النظام (٣) عند ايوب بن جعفر

---

(١) معتدل الاخلاط : معتدل المزاج (٢) الصدع : الشق

(٣) هو أبو اسحق ابرهيم بن سيار النظام،أحد شيوخ المعتزلة، واستاذا لجاحظ في علم الكلام، وفى انتحال الاعتزال. وكان من أئمة البلاغة وأعيان البيان. قرأ كثيراً من كتب الاوائل واستوعب ما تعلق منها بالطبيعيات والآلهيات ، واستنبط منها مسائل مزجها بكلام المعتزلة وتفرد بها عنهم وصار رأسا « لفرقة النظامية » المنسوبة اليه . وكان جيد المنطق ، حاد الذهن ، سريع الخاطر ، غواصا على المعانى ، دقيق الاستنباط. ذكى الفؤاد. وقد أداه ذلك الى ماذهب اليه من الآراء والافكار . ومن

فاضطره بالحجة وبالزيادة فى المسألة حتى حرك يديه ، وحلّ حبوته وحبا اليه حتى أخذ بيديه . ففى ذلك اليوم انتقل أيوب من قول أبى شمر الى قول ابرهيم

وكان الذى غرّ أبا شمر وموّه له هذا الرأى ان أصحابه كانوا يستمعون منه ، ويسلمون له ، ويميلون اليه ، ويقبلون كل مايورده عليهم ويثبته عندهم ، فلما طال عليه توقيرهم له وترك مجاذبتهم إياه ، وخفت مؤنة الكلام عليه نسى حال منازعة الأكفاء، ومجاذبة الخصوم . وكان شيخاً وقوراً وزميتاً ركيناً . وكان ذا تصرف فى العلم ، ومذكوراً بالفهم والحلم

قال مَعْمَر أبُو الأشْعَثِ : قلت لِبَهْلَةَ الهندى – أيام اجتلب يحيى بن خالد أطباءَ الهند مثل « منكة » و « بازيكر » و « قلبرقل » و « سندباذ » وفلان وفلان –

قوله : أن الجوهر مؤلف من اعراض اجتمعت . وليس بين قوله هذا و بين قول علماء الطبيعة فى عصرنا من انه لا يوجد جوهر فرد غير قابل للتجزئة ،فرق كبير . وكان من صغره يتوقد ذكاء ،ويتدفق فصاحة، ويفيض بلاغة،دفعه أبوه وهو صغير الى الخليل ابن احمد ليعلمه فقال له الخليل يوما ليمتحنه وفى يده قدح زجاج : يا بنى ، صف لى هذه الزجاجة . فقال : أبمدح ام بذم ؟ فقال : بمدح . قال : نعم، تريك القذى ، وتقيك الأذى ، ولا تستر ما ورى . قال : فذمها ، فقال : سريع كسرها ، بطىء جبرها . قال : فصف هذه النخلة ، وأومأ الى نخلة فى داره ، فقال : أبمدح أم بذم ؟ قال : بمدح . فقال : حلو مجتناها . باسق منتهاها ، ناضر أعلاها . قال: فذمها . فقال: صعبة المرتقى ، بعيدة المجتنى ، محفوفة بالاذى . فقال الخليل : يا بنى ، نحن الى التعلم منك أحوج . ثم اشتغل على أبى الهذيل العلاف بمذهب الكلام الى أن برع وظهر فى أيام المعتصم وتبعه خلق كثير . وناظر شيخه أبا الهذيل وظهر عليه مراراً . ووصف يوما عبد الوهاب الثقفى فقال : هو أحلى من أمن بعد خوف ، وبرء بعد سقم ، وخصب بعد جدب ، وغنى بعد فقر ، ومن طاعة المحبوب ، وفرج المكروب ، ومن الوصل الدائم ، مع الشباب الناعم . وكان كثير التطير وله فيه أحداث . وله كلام رشيق، وشعر رقيق . فمن كلامه: العلم شىء لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك ، فاذا اعطيته كلك فانت من اعطائه لك البعض على خطر . وقال : مما يدل على لؤم الذهب والفضة صيرورتهما عند اللئام ، فالشىء يصير الى شبهه ، والجنسية علة الضم . وقال : اذا كان فى جيرانك جنازة وليس فى بيتك دقيق فلا تحضر الجنازة ، فان المصيبة عندك اكثر منها عند القوم وبيتك أولى بالمأتم . ولد بالبصرة سنة ١٨٥ ﻫ ٨٠١ م وتوفى سنة ٢٢١ ﻫ ٨٣٥ م

ما البلاغة عند أهل الهند ؟ قال بهلة : عندنا في ذلك صحيفة مكتوبة لا أحسن ترجمتها لك ، ولم أعالج هذه الصناعة فاثق من نفسي بالقيام بخصائصها وتلخيص لطائف معانيها . قال أبو الأشعث : فلقيت بتلك الصحيفة التراجمة فاذا فيها :

« أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة . وذلك أن يكون الخطيب رابط الجاش ، ساكن الجوارح ، قليل اللحظ ، متخير اللفظ ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ، ولا الملوك بكلام السوقة ، ويكون في قواه فضل للتصرف في كل طبقة . ولا يدقق المعاني كل التدقيق ، ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح ، ولا يصفيها كل التصفية ، ولا يهذبها غاية التهذيب ، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيما أو فيلسوفاً عليما ، ومن قد تعود حذف فضول الكلام واسقاط مشتركات الألفاظ ، قد نظر في صناعة المنطق على جهة الصناعة والمبالغة ، لا على جهة الاعتراض والتصفح ، وعلى جهة الاستطراف والتظرف »

وقال من علم : حق المعنى أن يكون الاسم له طبقاً ، وتلك الحال له وفقاً ، ويكون الاسم له لا فاضلا ولا مفضولا ، ولا مقصراً ولا مشتركا ولا مضمناً ، ويكون مع ذلك ذاكراً لما عقد عليه أول كلامه ، ويكون تصفحه لمصادره في وزن تصفحه لموارده ، ويكون لفظه مؤنقاً . ولهول تلك المقامات معاوداً ومدار الامر على إفهام كل قوم بقدر طاقتهم . والحمل عليهم على اقدار منازلهم . وأن تواتيه آلته ، وتتصرف معه أداته ، ويكون في التهمة لنفسه معتدلا . وفي حسن الظن بها مقتصداً ؛ فإنه ان تجاوز مقدار الحق في تهمة لنفسه ظلمها ، فأودعها ذلة المظلومين ؛ وان تجاوز الحق في مقدار حسن الظن بها أمنها ، فأودعها تهاون الآمنين ؛ ولكل ذلك مقدار من الشغل ، ولكل شغل مقدار من الوهن ، ولكل وهن مقدار من الجهل

وقال ابرهيم بن هانئ ـ وكان ماجناً خليعاً ، كثير العبث متمرداً ـ ولولا أن كلامه هذا الذي أراد به الهزل يدخل في باب الجد لما جعلته صلة الكلام الماضي ، وليس في الارض لفظ يسقط البتة ولا معنى يبور حتى لا يصلح لمكان من الأماكن ـ قال ابرهيم بن هانئ : من تمام آلة القصص أن يكون القاص أعمى ، ويكون شيخاً بعيد مدى الصوت . ومن تمام آلة الزمر أن تكون الزامرة سوداء . ومن تمام آلة المغني أن يكون فره البرذون براق الثياب ، عظيم الكبر ، سيئ الخلق . ومن تمام آلة الخمار أن يكون ذمياً ، ويكون اسمه أذين ، أو مزيار ، أو ازدا نقاذار ، أو ميشا ، أو شلوما ، ويكون أرقط الثياب مختوم العنق . ومن تمام آلة الشعر أن يكون

الشاعر اعرابياً ، ويكون الداعى الى الله صوفيا . ومن تمام آلة السؤدد أن يكون السيد ثقيل السمع عظيم الرأس

ولذلك قال ابن سنان الجديدى لراشد بن سَلَمَةَ الهُذَلى : ماأنت بعظيم الرأس ، ولا ثقيل السمع ، فتكون سيداً ، ولا بأرسح فتكون فارسا . وقال شبيب بن شيبة الخطيب لبعض فتيان بنى منقر : والله مامطلت مطل الفرسان، ولا فتقت فتق السادة قال الشاعر

تُقَلِّبُ رَأْساً لم يكنْ رَأْسَ سيِّدٍ وكفًّا كَكَفِّ الضَّبِّ أَوْهِيَ أَحْقَر

فعاب صغر رأسه وصغر كفه ، كما عاب الشاعر كف عبد الله بن مطيع العدوى حين وجدها غليظة جافية فقال :

دَعَا ابنُ مُطيعٍ للبياعِ فجئتُهُ إلى بَيْعَةٍ قلبي لها غيرُ آلِفِ

فناولنى خَشْنَاءَ لَمَّا لَمَسْتُها بكفِّى ليستْ من أَكُفِّ الخَلائِفِ

وهذ باب يقع فى « كتاب الجوارح » مع ذكر البُرص والعرج والعسر والأدر والفُلج والحدب والقرع وغير ذلك من علل الجوارح ، وهو وارد عليكم بعد هذا الكتاب ان شاء الله تعالى

وقال إبرهيم بن هانئ : ومن تمام آلة الشيعى أن يكون وافر الجمة ، صاحب باز بكند . ومن تمام آلة الحارس أن يكون زميتاً قطوباً ، أبيض اللحية ، أقنى أجنى ، وصاحب تكلم بالفارسية

وأخبرنى ابرهيم بن السندى قال : دخل العمانى الراجز على الرشيد لينشده شعراً وعليه قلنسوة طويلة وخف ساذج فقال : إياك أن تنشدنى الا وعليك عمامة عظيمة الكور ، وخفان دمالقان. قال ابرهيم ، قال أبو نصر : فبكر عليه من الغد وقد تزيا بزى الاعراب فأنشده ثم دنا منه فقبل يده وقال : ياأمير المؤمنين قد والله أنشدت مروان ورأيت وجهه وقبلت يده وأخذت جائزته ، وأنشدت يزيد بن الوليد ، وابرهيم بن الوليد ورأيت وجوههما وقبلت أيديهما وأخذت جوائزهما، وأنشدت السفاح ورأيت وجهه وقبلت يده وأخذت جائزته ، وأنشدت المنصور ورأيت وجهه وقبلت يده وأخذت جائزته ، وأنشدت المهدى ورأيت وجهه وقبلت يده وأخذت جائزته ، وأنشدت الهادى ورأيت وجهه وقبلت يده وأخذت جائزته ، هذا الى كثير من أشباه الخلفاء وكبار الأمراء، والسادة الرؤساء ، ولا والله أن رأيت فيهم،

أبهى منظراً ، ولا أحسن وجهاً ، ولا أنعم كفاً ، ولا أندى راحة ، منك ياأمير المؤمنين.
ووالله لو ألقى فى روعى أنى أتحدث عنك ماقلت لك ماقلت. فأعظم له الجائزة على شعره ، وأضعف له على كلامه ، وأقبل عليه فبسطه حتى تمنى والله جميع من حضر انهم قاموا ذلك المقام

ثم رجع بنا القول الى الكلام الاول . قال ابن الاعرابى ، قال معاوية بن أبى سفيان لصحار بن عياش العبدى : ماهذه البلاغة التى فيكم ؟ قال : شىء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا . فقال له رجل من عرض القوم : ياأمير المؤمنين [هم] بالبسر والرطب أبصر منهم بالخطب . فقال له صحار : أجل ، والله انا لنعلم ان الريح لتنفخه ، وأن البرد ليعقده ، وأن القمر ليصبغه ، وان الحر لينضجه . فقال له معاوية : ماتعدون البلاغة فيكم ؟ قال : الايجاز . قال له معاوية : وما الايجاز ؟ قال له صحار: أن تجيب فلا تبطىء ، وأن تقول فلا تخطىء. فقال معاوية : أو كذلك تقول ؟ قال صحار : أقلنى ياأمير المؤمنين ، لا تبطىء ولا تخطىء

وشأن عبد القيس عجيب ، وذلك انهم بعد محاربة إياد تفرقوا فرقتين : ففرقة وقعت بعمان وشق عمان ، وفيهم خطباء العرب ، وفرقة وقعت الى البحرين وشق البحرين ، وهم من أشعر قبيلة فى العرب . ولم يكونوا كذلك حين كانوا فى سرة البادية، وفى معدن الفصاحة ، وهذا عجب. ومن خطبائهم المشهورين صعصعة بن صوحان، وزيد بن صوحان ، وشيخان بن صوحان . ومنهم صحار بن عياش . وصحار من شيعة عثمان ، وبنو صوحان من شيعة على. ومنهم مصقلة بن رقبة، ورقبة بن مصقلة، وكرب بن رقبة

وإذا صرنا إلى ذكر الخطباء والنسابين ذكرنا من كلام كل واحد منهم بقدر مايحضرنا وبالله التوفيق

قال لى ابن الاعرابى ، قال لى المفضل بن محمد الضبى(١) ، قلت لاعرابى منا : ماالبلاغة ؟ قال : الايجاز فى غير عجز ، والاطناب فى غير خطل . قال ابن الاعرابى فقلت للمفضل : ما الايجاز عندك ؟ قال : حذف الفضول ، وتقريب البعيد . قال ابن الاعرابى : قيل لعبد الله بن عمر : لو دعوت الله لنا بدعوات ؟ فقال : اللهم ارحمنا وعافنا وارزقنا . فقال رجل : لو زدتنا يا أبا عبد الرحمن ؟ فقال : نعوذ بالله من الاسهاب

(١) أنظر ترجمة المفضل محررة بقلمنا فى كتاب المفضليات الذى شرحناه ونشر حديثاً

﴿ باب ذكر ناس من البلغاء والخطباء والابيناء والفقهاء والامراء ﴾
(ممن لا يكاد يسكت مع قلة الخطأ والزلل)

منهم زيد بن صوحان

ومنهم أبو واثلة إياس بن معاوية المزنى القاضى القائف وصاحب الزكن والمعروف بجودة الفراسة ، ولكثرة كلامه قال له عبدالله بن شُبْرُمَة :أنا وأنت لا نتفق ، انت لا تشتهى ان تسكت ، وانا لا اشتهى ان اسمع ، واتى حلقة من حلق قريش فى مسجد دمشق فاستولى على المجلس ، ورأوه احمر دميما باذّ الهيئة قشيفاً فاستهانوا به فلما عرفوه اعتذروا اليه وقالوا : الذنب مقسوم بيننا وبينك ، اتيتنا فى زى مسكين تكلمنا بكلام الملوك . ورايت ناسا يستحسنون جواب إياس حين قيل له : ما فيك عيب غير انك معجب بقولك . قال : أفأعجبكم قولى ؟ قالوا : نعم . قال : فانا احق بان اعجب بما اقول وبما يكون منى — منكم

والناس حفظك الله لم يضعوا ذكر العجب فى هذا الموضع . والمعيب عند الناس ليس هو الذى يعرف ما يكون منه من الحسن . والمعرفة لا تدخل فى باب التسمية بالعجب ، والعجب مذموم . وقد جاء فى الحديث « إن المؤمن من ساءته سيئته وسرته حسنته » وقيل لعمر : فلان لا يعرف الشر . قال : ذلك أجدر أن يقع فيه . وانما العجب اسراف الرجل في السرور بما يكون منه ، والافراط في استحسانه حتى يظهر ذلك منه فى لفظه وفى شمائله . وهو كالذى وصف به صَعْصَعَةُ بنُ صُوْحَانَ المنذِرَ بنَ الجارود عند على بن أبى طالب كرم الله وجهه فقال : أما والله انه مع ذلك لنظار فى عطفيه ، تفال فى شراكيه ، تعجبه حمرة برديه

قال أبو الحسن : قيل لاياس : ما فيك عيب إلا كثرة الكلام . قال : فتسمعون صوابا أم خطأ ؟ قالوا : بل صوابا . قال : فالزيادة من الخير خير . وليس كما قال ، للكلام غاية ولنشاط السامعين نهاية ، وما فضل عن مقدار الاحتمال ، ودعا إلى الاستثقال والملال ، فذلك الفاضل هو الهذر ، وهو الخطل ، وهو الاسهاب الذى سمعت الحكماء يعيبونه . وذكر الأصمعى أن عمر بن هبيرة لما أراده(١) على القضاء قال: إنى لا أصلح له . قال : وكيف ذاك ؟ قال : لأنى عيي ، ولأنى دميم ، ولأنى حديد . قال

(١) لما أراده : يعنى لما أراد إياس بن معاوية

ابنُ هُبيرة : أما الحدة فان السوط يقوّمك ، وأما الدّمامة فانى لا أريد أن أحاسن بك أحداً ، وأما العى فقد عبرت عما تريد. فان كان إياس عند نفسه عيياً، فذاك أجدر ان يهجر الاكثار . وبعد هذا فما نعلم أحداً رمى إياساً بالعى وإنما عابوه بالاكثار .
وذكر صالح بن سليمان عن عتبة بن عمر بن عبد الرحمن بن الحارث قال : مارأيت عقول الناس إلا قريباً بعضها من بعض ، إلا ما كان من عقل الحجاج بن يوسف ، وإياس بن معاوية ، فان عقولهما كانت ترجح على عقول الناس كثيراً . وقال قائل لاياس : لم تَعجل بالقضاء ؟ فقال له إياس : كم لكفك من إصبع ؟ قال : خمس . قال : عجلت . قال : لم يعجل من قال بعد ماقتل الشيء علماً ويقينا . قال إياس : فهذا هو جوابي لك . وكان كثيراً ماينشد قول النابغة الجعدى :

أَبَى لى البَلاءُ وأنى امرؤٌ إذا ماتَبَيَّنْتُ لم أرْتَبِ

قال: ومدح سَلَمَةُ بنُ عياشٍ سوّارَ بنَ عبد الله بمثل ماوصف به إياس نفسه حين قال :

وأوقفَ عند الأمرِ مالم يَبِنْ لهُ وأمْضَى إذا ماشكَّ ماكان ماضيا

وكتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى الى عدىّ بن أرطاة : انّ قِبلك رجلين من مُزينة فول أحدهما قضاء البصرة . يعنى بكر بن عبد الله المزنى ، وإياس بن معاوية . فقال بكر : والله ما أحسن القضاء ، فان كنت صادقاً فما يحل لك أن توليني، وان كنت كاذباً انها لأحراهما. وكانوا اذا ذكروا البصرة قالوا شيخها الحسن، وفتاها بكر. وقال اياس بن معاوية : لست بخب والخب لايخدعنى، ولا يخدع ابن سيرين، وهو يخدع أبي ويخدع الحسن . ودخل الشام وهو غلام فتقدم خصماً له ــ وكان الخصم شيخاً كبيراً ــ الى بعض قضاة عبد الملك بن مروان، فقال له القاضى: أتتقدم شيخاً كبيراً ؟ قال الحق اكبر منه . قال : أسكت . قال : فمن ينطق بحجتى؟ قال . لا أظنك تقول حقاً حتى تقوم ؟ قال : لااله الا الله ، أحقاً هذا أم باطلا ؟ فقام القاضى ودخل على عبد الملك من ساعته فخبره بالخبر . فقال عبد الملك : اقض حاجته الساعة وأخرجه من الشام لايفسد علىّ الناس. فاذا كان من إياس وهو غلام يخاف على جماعة أهل الشام فما ظنك به وقد كبرت سنه، وعض ناجذه،

وجملة القول فى اياس انه كان من مفاخر مضر ، ومن مقدمى القضاة ، وكان فقيه البدن، رقيق المسلك فى الفطن، وكان صادق الحدس نقّابا، وعجيب الفراسة ماهيا ، وكان

عفيف الطعم ، كريم المدخل والشيم ، وجيها عند الخلفاء ، مقدما عنـد الاكفاء . وفى مزينة خير كثير

ثم رجعنا الى القول الاول : ومنهم ربيعة الرأى وكان لا يكاد يسكت . قالوا : وتكلم يوما فاكثر وأعجب بالذى كان منه، فالتفت الى اعرابى كان عنده فقال : يااعرابى ، ما تعدون العى فيكم ؟ قال : ما كنت فيه منذ اليوم . وكان يقول: الساكت بين النائم والاخرس

ومنهم عبيد الله بن محمد بن حفص التيمى ، ومحمد بن حفص هو ابن عائشة ، ثم قيل لعبيد الله بن أبى عائشة، وكان كثير العلم والسماع، متصرفا فى الخبر والاثر، وكان من أجود قريش ، وكان لا يكاد يسكت ، وهو فى ذلك كثير الفوائد . وكان أبوه محمد ابن حفص عظيم الشأن كثير العلم، بعث اليه ميخاب خليفته فى بعض الامر . فأتاه فى حلقته فى المسجد . فقال له فى بعض كلامه : أبو من أصلحك الله ؟ فقال له : هلا عرفت هذا قبل مجيئك ؟ وان كان لا بدلك من هذا فاعترض من شئت فاسأله . فقال له : إنى أريد أن تخليني . قال : أفى حاجة لك أم فى حاجة لى ؟ قال : بل فى حاجة لى . قال : فالقنى فى المنزل . قال : فان الحاجة لك . قال : مادون اخوانى ستر

ومنهم محمد بن مسعر العقيلى، وكان كريما ، كريم المجالسة، يذهب مذهب النساك، وكان جواداً . مر صديق له من بنى هاشم بقصر له و بستان نفيس فبلغه أنه استحسنه فوهبه له

ومنهم أحمد بنُ المُعَذَّلِ بن غَيْلانَ ، كان يذهب مذهب مالك، وكان ذا بيان وتبحر فى المعانى وتصرف فى الالفاظ

وممن كان يكثر الكلام جداً الفَضْلُ بنُ سَهْلٍ ، ثم الحسن بن سهل فى أيامه . وحدثنى محمد بن الجهم ودؤاد بن أبى دؤاد قالا : جلس الحسن بن سهل فى مصلى الجماعة لنُعيم بن حازم، فاقبل نعيم حافيا حاسرا وهو يقول : ذنبي أعظم من السماء ، ذنبي أعظم من الهواء ، ذنبي أعظم من المـاء . قالا : فقال الحسن بن سهل : على رسلك تقدمت منك طاعة، وكان آخر أمرك الى توبة ، وليس للذنب بينهما مكان وليس ذنبك فى الذنوب باعظم من عفو أمير المؤمنين فى العفو

ومن هؤلاء على بن هشام ، وكان لا يسكت ولا أدرى كيف كان كلامه

قال وحدثنى مهدى بن ميمون قال : حدثنا غيلان بن جرير قال : كان مطرف ابن عبد الله يقول : لا تطعم طعامك من لا يشتهيه . يقول: لا تقبل بحديثك على من

لا يقبل عليك بوجهه . وقال عبدالله بن مسعود : حدث الناس ماحدجوك باسماعهم ولحظوك بابصارهم ، فاذا رأيت منهم فترة فامسك . قال : وجعل السماك يوما يتكلم وجارية له حيث تسمع كلامه ، فلما انصرف اليها قال لها : كيف سمعت كلامى ؟ قالت : ما أحسنه لولا أنك تكثر ترداده ؟ فقال : أردده حتى يفهمه من لم يفهمه . قالت : الى أن يفهمه من لم يفهمه قد ملّه من فهمه . قال عباد بن عَوام عن شُعبة ، عن قتادة ، قال : مكتوب فى التوراة : لايعاد الحديث مرتين . وسفيان بن عيينة عن الزهرى قال : إعادة الحديث أشد من نقل الصخر . وقال بعض الحكماء : من لم ينشط لحديثك فارفع عنه مؤنة الاستماع منك

وجملة القول فى الترداد أنه ليس فيه حد ينتهى اليه ولا يؤتى الى وصفه ، وانما ذلك على قدر المستمعين له ومن يحضره من العوام والخواص . وقد رأينا الله عز وجل ردد ذكر قصة موسى وهود وهرون وشعيب وابرهيم ولوط وعاد وثمود ، وكذلك ذكر الجنة والنار وأمور كثيرة . لانه خاطب جميع الامم من العرب وأصناف العجم وأكثرهم غبي غافل ، أو معاند مشغول الفكر ساهى القلب . وأما حديث القصص والرقة فانى لم أر أحداً يعيب ذلك ، وما سمعناه باحد من الخطباء كان يرى إعادة بعض الالفاظ وترداد المعانى عياً إلا ما كان من النّخَارِ بنِ أَوْسٍ العُذْرِىّ (١) فانه كان إذا تكلم فى الحمالات ، وفى الصفح والاحتمال ، وصلاح ذات البين ، وتخويف الفريقين من التفانى والبوار ، كان ربما ردد الكلام على طريق التهويل والتخويف ، وربما حمى فنخر

قال ثُمامة بن أشرس : كان جعفر بن يحيي أنطق الناس ، قد جمع الهدوء والتمهل والجزالة والحلاوة ، وإفهاماً يغنيه عن الاعادة ، ولو كان فى الارض ناطق يستغنى بمنطقه عن الاشارة لاستغنى جعفر عن الاشارة ، كما استغنى عن الاعادة . وقال مرة : مارأيت أحداً كان لايتحبس ، ولايتلجلج ، ولايتنحنح ، ولايرتقب لفظاً قد استدعاه من بعد ، ولايلتمس التخلص الى معنى قد تعصى عليه طلبه ، أشد اقتداراً ولا أقل تكلفاً من جعفر بن يحيي . وقال ثمامة : قلت لجعفر بن يحي : ما البيان ؟ قال : أن يكون

---

(١) النخار بن أوس بن الحرث بن هزيم القضاعى . كان من المقدمين فى علم النسب ، وقال عنه ابوعبيدة انه انسب العرب . وكان فصيحا بليغاً منطيقا ، دخل معاوية فازدراه وكان عليه عباءة فقال : إن العباءة لا تكلمك

الاسم يحيط بمعناك ، ويُجَلِّي عن مغزاك ، وتخرجه من الشركة، ولا تستعين عليه بالفكرة. والذى لا بد منه أن يكون سليما من التكلف ، بعيداً من الصنعة ، بريئا من التعقيد ، غنياً عن التأويل

وهذا هو تأويل قول الأصمعى : البليغ من طبق المفصل ، وأغناك عن المفسر

خبرنى جعفر بن سعيد رضيع أيوب بن جعفر وحاجبه قال : ذكرت لِعَمْرِو بن مَسْعَدَةَ توقيعات جعفر بن يحيى قال : قد قرأت لام جعفر توقيعات فى حواشى الكتب وأسافلها فوجدتها أجود اختصارا وأجمع للمعانى . قال : ووصف اعرابى أعرابيا بالايجاز والاصابة فقال . كان والله يضع الهناء مواضع النقب . يظنون أنه نقل قول دُرَيْدِ بْنِ الصِّمَّةِ فى الخنساء بنت عمرو بن الشريد الى ذلك الموضع . وكان دريد قال فيها :

ما إنْ رَأَيْتُ ولاَ سَمِعْتُ بهِ ... كَاليوم طَالِي أينُقٍ جُرْبِ (١)

مُتَبَذِّلاً تبْدُو محاسِنُهُ ... يَضَعُ الْهِنَاء مواضِعَ النُّقْبِ

ويقولون فى إصابة عين المعنى بالكلام الموجز : فلان يفل المحز ، ويصيب المفصل . وأخذوا ذلك من صفة الجزار الحاذق فجعلوه مثلا للمصيب الموجز . وأنشدنى أبو قطن الغنوى . وهو الذى يقال له شهيد الكرم، وكان أبين من رأيته من أهل البدو والحضر :

فلو كنتُ مولَى قَيْسِ عَيْلاَنَ لَم تَجِدْ ... عليَّ لمخلوقٍ مِنَ النّاسِ دِرْهَمَا

وَلٰكنني مولَى قُضَاعَةَ كلِّها ... فلستُ أُبَالِي أنْ أدِينَ وَتَغْرَمَا

أولئك قومٌ بارَكَ اللهُ فيهمُ ... على كلِّ حالٍ ما أعَفَّ وَأَكْرَمَا

جُفَاةُ المَحَزِّ لاَ يُصيبونَ مَفْصِلاً ... وَلاَ يأكُلونَ اللحمَ الا تَخَدُّمَا (٢)

يقول: هم ملوك وأشباه الملوك، ولهم كفاة فهم لا يحسنون إصابة المفصل وأنشد أبو عبيدة فى مثل ذلك :

وصُلْعُ الرؤسِ عِظَامُ الْبُطونِ ... جُفَاةُ المَحَزِّ غِلاَظُ الْقَصَرْ (٣)

---

(١) كان فى الاصل من كلمة « فى الناس » ولما كانت الرواية الصحيحة « كاليوم » فقد اثبتناها هنا ايثاراً لصحيح على الفاسد (٢) التخدم : التكلف (٣) القصر :

وكذلك :

لَيسَ بِرَاعِي إِبِلٍ وَلاَ غَنَمْ وَلاَ بِجَزَّارٍ على ظَهْرِ وَضَمْ(١)

وقال الاخر وهو ابنُ الزِّبَعْرى :

وفِتيانِ صدقٍ حسانِ الوجوهِ لايجدونَ لشيءٍ أَلَمْ

مِنَ آلِ المغيرَةِ لاَيَشْهَدونَ عنـدَ الجازِرِ لحمَ الوَضَمْ

وقال الراعى فى المعنى الاول :

فَطَبَّقْنَ عَرْضَ القُفِّ حتى لَقِينَهُ كَما طَبَّقَتْ في العَظْمِ مُدْيَةُ جازِرِ

وأنشد الأصمعي :

وكفُّ فتًى لم يعرفِ السَّلْخَ قبلَهَا تَجُورُ يداهُ في الأديمِ وتَجْرَحُ

وأنشد الاصمعي :

---

(١) الوضم والوضمة : خشبة (أرمة) الجزار وقد نسب هذا البيت فى هامش الاعناق النسخة التى طبعت سنة ١٣٣٢ الى الشريف الرضي مع أن الجاحظ كانت وفاته فى سنة ٢٥٥ وكانت ولادة الشريف فى سنة ٣٥٩ ، وقد كتبنا فى هذا وأمثاله نقداً نشرناه بجريدتنا «الثمرات» بعددها الصادر في ٢٠ يونيه سنة ١٩١٦. هذا والصحيح أن هذا البيت من أرجوزة لرشيد بن رميض العنزى فى شريح بن ضبيعة المعروف بالحطم . وكان شريح هـذا غزا اليمن فى جموع من ربيعة فغنم وأسر وسبي، وكان من أسراه فرعان بن مهدى بن معديكرب عم الاشعث بن قيس الكندى فمر فى عودته بمفازة ضل فيها الدليل ومات فرعان فى أيديهم عطشاً مع خلق كثير، وجعل شريح يسوق بأصحابه سوقا عنيفاً حتى أدركوا الماء فقال فيه رشيد :

هذا أوان الشد فاشتدى زيم نام الحداة وابن هند لم ينم

بات يقاسيها غلام كالزلم خدلج الساقين خفاق القدم

قد لفها الليل بسواق حطم ليس براعى ابل ولا غنم

ولا بجزار على ظهر وضم

فلقب من يومئذ بالحطم لقول رشيد فيه . أدرك الحطم الاسلام وأسلم ثم ارتد بعد وفاة النبي ﷺ

لا يُمسِكُ العُرْفَ إلاّ رَيْثَ يُرْسِلُهُ   ولا يُلاطِمُ عندَ اللَّحْمِ في السُّوقِ

وقد فسر ذلك لبيد بن ربيعة وبيّنه وضرب المثل به حيث قال فى الحكم بين عامر ابنِ الطفيلِ وعَلْقَمَةَ بن علاثة :

يا هَرِمَ ابنَ الأكرمِينَ مَنْصِبا   إنَّكَ قد أُوتِيتَ حُكْماً مُعْجِبا

فَطَبِّقِ المَفْصِلَ واغْنَمْ طَيِّبا

يقول : أحكم بين عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة بكلمة فصل و بأمر قاطع فتفصل بهما بين الحق والباطل كما يفصل الجزار الحاذق مفصل العظمين . وقد قال الشاعر فى هرم :

قَضَى هَرِمٌ يومَ المرِيرَةِ بَيْنَهُمْ   قَضَاءَ امرِئٍ بالأوَّلِيَّةِ عالِمِ

قَضَى ثم وَلّى الْحُكْمَ مَنْ كانَ أَهْلَهُ   وليس ذُنَابَى الرِّيشِ مثلَ القَوَادِمِ

ويقال فى الفحل اذا لم يحسن الضراب: جمل عياياء ، وجمل طباقاء. وقالت امرأة فى الجاهلية تشكو زوجها : زوجي عَياياء طباقاء وكل داء له دواء . حتى جعلوا ذلك مثلا للعى الفدم الذى لا يتجه للحجة . وقال الشاعر :

طباقاءُ لم يَشْهَدْ خُصوماً ولم يَقُدْ   رِكاباً الى أكْوارِها حِينَ تَعْكِفُ

وذكر زُهَيْرُ بنُ أَبِي سُلْمَى الخَطَلَ فعابه فقال :

وذِي خَطَلٍ في القولِ يَحْسَبُ أَنَّهُ   مُصيبٌ فما يُلْمِمْ بهِ فهو قائِلُهْ

عَبَأْتُ له حلماً وأكْرمتُ غيرَهُ   وأعرضْتُ عنه وهو بادٍ مَقَاتِلُهْ

وقال الشاعر :

شُمُسٌ اذا خَطِلَ الحديثُ أوانِسٌ   يَرْقُبْنَ كلَّ مُجَذَّرٍ تِنْبَالِ

الشمس : مأخوذة من الخيل وهى الخيل المرحة الضاربة بأذنها من النشاط . والمجذر : القصير . والتنبال : القصير الدنى .

وقال ابو الاسود الدؤلى — واسم أبى الاسود ظالم بن عمرو — وكان من المقدمين فى العلم :

وشاعِرِ سُوءٍ يَهْضِبُ القول ظالمـا كما اقْتَمَّ أعْمَى مُظْلِم الليلِ حاطِب

وأنشد :

أعوذُ باللهِ الأعَزِّ الأكْرَمِ مِن قَوْلَى الشيءِ الذي لم أعْلَمِ

تَخَبُّطَ الأعمى الضريرِ الأيْهَمِ

وقال ابرهيم بن هرمة فى تطبيق المفصل ، وتلحق هذه بمعانى أخواتها قبل :

وعَميمةٍ قد سُقْتُ فيها عائراً غفْـلاً وفيهـا عائِرٌ مَوْسُومُ

طَبَّقتُ مَفْصِلَها بِغَـيْرِ حَدِيدةٍ فرآى العَدُوُّ غناى حَيْثُ أقومُ

وهذه الصفات التى ذكرها ثمامة بن أشرس فوصف بهـا جعفر بن يحيى كان ثمامة بن أشرس قد انتظمها لنفسه واستولى عليها دون جميع اهل عصره . وما علمت أنه كان فى زمانه قَرَوِيٌّ ولا بلدى كان بلغ من حسن الافهام مع قِلة عدد الحروف ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التـكلف ما كان بلغه . وكان لفظه فى وزن إشارته ، ومعناه فى طبقة لفظه ، ولم يكن لفظه إلى سمعك باسرع من معناه إلى قلبك قال بعض الـكتاب : معانى ثمامة الظاهرة فى ألفاظه الواضحة فى مخارج كلامه كما

وصف الخُـزَيمى شعرَ نفسه فى مديح أبى دلَـف حيث يقول :

لهُ كَلِمٌ فيـكَ معقُولَةٌ إِزاءَ القلوبِ كرُكْبٍ وُقُوفْ

وأول هذه القصيدة :

أبَا دُلَفٍ دَلَفَتْ حاجَتِى إليك وما خلْتُها بالدَّلُوف

ويظنون أن الخُـزيمى إنما احتذى في هذا البيت على أيوب بن القِرِّية حين قال له بعض السلاطين[1] ما أعددت لهذا الموقف ؟ قال : ثلاثة حروف، كأنهن ركب وقوف ، دنيا وآخرة ومعروف

وحدثنى صالح بن خاقان قال قال شبيب بن شيبة : الناسُ موكلون بتفضيل جودة الابتداء و بمدح صاحبه ، وأنا موكل بتفضيل جودة القطع وبمدح صاحبه ، وحظ

(١) المراد ببعض السلاطين هنا هو الحجاج بن يوسف الثقفى وله مع ابن القرية خطوب

جودة القافية وإن كانت كلمة واحدة أرفع من حظ سائر البيت . ثم قال شبيب : فان ابتليت بمقام لا بدّ لك فيه من الاطالة فقدم إحكام البلوغ فى طلب السلامة من الخطل قبل التقدم فى إحكام البلوغ فى شرف التجويد ، وإياك أن تعدل بالسلامة شيئا ، فان قليلا كافياً خير من كثير غير شاف

ويقال انهم لم يروا قط خطيباً بلديا إلا وهو فى أول تكلفه لتلك المقامات كان مستثقلا مستصلفاً أيام رياضته كلها إلى أن يتوقح وتستجيب له المعانى ويتمكن من الالفاظ ، إلا شبيب بن شيبة فانه ابتدأ بحلاوة ورشاقة وسهولة وعذوبة فلم يزل يزداد منها حتى صار فى كل موقف يبلغ بقليل الكلام مالا يبلغه الخطباء المصاقع بكثيره . قالوا : ولما مات شبيب بن شيبة أتاهم صالح المرى أو بعض من أتاهم للتعزية فقال : رحمة الله على أديب الملوك ، وجليس الفقراء ، وأخى المساكين. وقال الراجز:

اذا غدتْ سعْدٌ على شَبيبِها ... على فَتاها وعلى خَطيبِها
مِن مَطْلَعِ الشَّمسِ الي مَغيبِها ... عَجِبْتُ من كَثْرَتِها وطِيبِها

حدثنى صديق لى قال: قلت للعتابى: ما البلاغة ؟ قال : كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة ، فهو بليغ .فاذا اردت اللسان الذى يروق الالسنة ويفوق كل خطيب باظهار ما غمض من الحق وتصوير الباطل فى صورة الحق. قال: فقلت له: قد عرفت الاعادة والحبسة فما الاستعانة؟ قال: أما تراه اذا تحدث قال عند مقاطع كلامه : ياهناه ، وياهذا ، وياهيه ، واسمع منى ، واستمع الىّ ، وافهم عنى ، أو لست تفهم ، أو لست تعقل ؟ فهذا كله وما أشبهه عِى وفساد

قال عبد الكريم بن روح الغفارى ، حدثنى عمر الشمرى قال : قيل لعمرو بن عبيد : ما البلاغة ؟ قال : ما بلغ بك الجنة وعدل بك عن النار ، وما بصرك مواقع رشدك وعواقب غيك . قال السائل : ليس هذا أريد ، قال : من لم يحسن أن يستمع ، ومن لم يحسن الاستماع لم يحسن القول . قال : ليس هذا أريد ، قال : قال النبي ﷺ : إنا معشر الانبياء بِكاء .

أى قليلو الكلام . ومنه قيل : رجل بكى . وكانوا يكرهون أن يزيد منطق الرجل على عقله

قال السائل : ليس هذا أريد ، قال : كانوا يخافون من فتنة القول ومن سقطات الكلام ، مالا يخافون من فتنة السكوت ومن سقطات الصمت . قال السائل : ليس

هذا أريد ؟ قال عمرو : فكانك إنما تريد تحبير اللفظ فى حسن الافهام ؟ قال : نعم . قال : إنك إن اردت تقرير حجة الله فى عقول المتكلمين ، وتخفيف المؤنة على المستمعين، وتزيين تلك المعانى فى قلوب المريدين ، بالالفاظ المستحسنة فى الآذان ، المقبولة عند الاذهان ، رغبة فى سرعة استجابتهم ، ونفى الشواغل عن قلوبهم ، بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة ، كنت قد أوتيت فصل الخطاب ، واستوجبت على الله جزيل الثواب

قلت لعبد الكريم : من هذا الذى صبر له عمرو هذا الصبر ؟ قال : قد سألت عن ذلك أبا حفص فقال : ومن كان يجترئ عليه هذه الجراءة الا حفص بن سالم ؟

قال عُمر الشمرى: كان عمرو بن عبيد لا يكاد يتكلم ، فان تكلم لم يكد يطيل. وكان يقول : لاخير فى المتكلم اذا كان كلامه لمن شهده دون نفسه ، واذا طال الكلام عرضت للمتكلم أسباب التكلف ،ولاخير فى شيء يأتيك به التكلف

وقال بعضهم ـ وهو من أحسن ما اجتبيناه ودوّناه ـ لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه ، فلا يكون لفظه الى سمعك أسبق من معناه الى قلبك .

وكان موسى بن عمران يقول : لم أر أنطق من أيوب بن جعفر ويحى بن خالد. وكان ثمامة يقول : لم أر انطق من جعفر بن يحى بن خالد . وكان سهل بن هرون يقول. لم أر أنطق من المأمون امير المؤمنين . وقال ثمامة : سمعت جعفر بن يحى يقول لكتابه : ان استطعتم أن يكون كلامكم كله مثل التوقيع فافعلوا . وسمعت أبا العتاهية يقول: لو شئت أن يكون حديثى كله شعراً موزونا لكان . وقال اسحق بن حسان ابن قوهة : لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع أحد قط ، سئل ما البلاغة ؟ قال : البلاغة اسم جامع لمعان تجرى فى وجوه كثيرة . فمنها مايكون فى السكوت ، ومنها ما يكون فى الاستماع ، ومنها مايكون فى الاشارة . ومنها مايكون فى الحديث ، ومنها مايكون فى الاحتجاج ، ومنها ما يكون جوابا ، ومنها مايكون ابتداء . ومنها ما يكون شعراً ، ومنها مايكون سجعاً وخطباً ، ومنها مايكون رسائل . فعامة ما يكون من هذه الابواب ألوحى فيها والاشارة الى المعنى . والايجاز هو البلاغة . فاما الخطب بين السماطين وفى اصلاح ذات البين فالاكثار فى غير خطل ، والاطالة فى غير املال ، وليكن فى صدر كلامك دليل على حاجتك ، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذى اذا سمعت صدره عرفت قافيته

كأنه يقول : فرّق بين صدر خطبة النكاح ، وبين صدر خطبة العيد ، وخطبة الصلح ، وخطبة المواهب، حتى يكون لكل فن من ذلك صدر يدل على عجزه ، فانه لاخير فى كلام لا يدل على معناك ، ولا يشير الى مغزاك، والى العمود الذى اليه قصدت، والغرض الذى اليه نزعت .

قال: فقيل له: فان مل المستمع الاطالة التى ذكرت أنها حق ذلك الموقف؟ قال: اذا أعطيت كل مقام حقه ، وقمت بالذى يجب من سياسة ذلك المقام ، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام ، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو ، فانه لا يرضيهما شيء ، وأما الجاهل فلست منه وليس منك، ورضا جميع الناس شيء لا تناله ، وقد كان يقال : رضا الناس شيء لا ينال

قال : والسنة فى خطبة النكاح أن يطيل الخاطب ويقصر المجيب . ألا ترى الى قيس بن خارجة بن سنان لما ضرب بصفيحة سيفه مؤخرة راحلتى الحاملين فى شأن حمالة داحس والغبراء ، وقال: مالى فيها أيها العشمتان ؟ قالا : بل ما عندك ؟ قال : عندى قرى كل نازل ، ورضا كل ساخط ، وخطبة من لدن تطلع الشمس الى أن تغرب ، آمر فيها بالتواصل ، وأنهى فيها عن التقاطع

قالوا : فخطب يوماً الى الليل ، فما أعاد فيها كلمة ولا معنى

فقيل لابى يعقوب : هلا أكتفى بالامر بالتواصل عن النهى عن التقاطع ؟ أو ليس الامر بالصلة هو النهى عن القطيعة ؟ قال : أو ما علمت أن الكناية والتعريض لا يعملان فى العقول عمل الافصاح والتكشف ؟

قال : وسئل ابن المقفع عن قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ما يتصعدنى كلام كما تصعدنى خطبة النكاح . قال : ما أعرفه إلا أن يكون أراد قرب الوجوه من الوجوه ، ونظر الحداق من قرب فى أجواف الحداق، ولأنه اذا كان جالساً معهم كانوا كأنهم نظراء وأكفاء ، واذا علا المنبر صاروا سوقة ورعية . وقد ذهب ذاهبون لى أن تأويل قول عمر يرجع الى أن الخطيب لا يجد بداً من تزكية الخاطب ، فلعله كره أن يمدحه بما ليس فيه فيكون قد قال زوراً وغر القوم من صاحبه . ولعمرى ان هذا التأويل ليجوز اذا كان الخطيب موقوفاً على الخطابة ، فأما عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأشباهه من الأئمة الراشدين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين فلم يكونوا ليتكلفوا ذلك الا فيمن يستحق المدح

وروى أبو مخنف عن الحارث الأعور قال : والله لقد رأيت علياً وانه ليخطب

قاعداً كقائم ، ومحار بأكسالم . يريد بقوله ، قاعداً ، خطبة النكاح

وقال الهيثم بن عدى : لم تكن الخطباء تخطب قعوداً إلا فى خطبة النكاح

وكانوا يستحسنون أن يكون فى الخطب يوم الحفل، وفى الكلام يوم الجمع ، آى من القرآن . فان ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار، والرقة وحسن الموقع. قال الهيثم: قال عمرانُ بنُ حطّان : إن أول خطبة خطبتها عند زياد ــ أو قال عند ابن زياد ــ فأعجب بها زياد وشهدها عمى وأبى . ثم أنى مررت ببعض المجالس فسمعت رجلا يقول لبعضهم : هذا الفتى أخطب العرب لو كان فى خطبته شيء من القرآن

وأكثر الخطباء لا يتمثلون فى خطبهم الطوال بشيء من الشعر ، ولا يكرهونه فى الرسائل إلا أن تكون الى الخلفاء . وسمعت مُؤملَ بنَ خاقان ــ وذكر فى خطبته تميم بن مر ــ فقال : إن تميما له الشرف القديم العوْد ،والعز الأقعس، والعدد الهيضل، وهي فى الجاهلية القدّام ، والذّروة والسنام . وقد قال الشاعر :

فقلتُ لهُ وأنْكرَ بعضَ شأنِى ألم تَعْرِفْ رِقابَ بنى تميم ؟

وكان المؤمّل وأهله يخالفون جمهور بنى سعد فى المقالة، فاشدة تحدّبه على سعد وشفقته عليهم ،كان يناضل عند السلطان كل من سعى على أهل مقالتهم وان كان قوله خلاف قولهم حدباً عليهم . وكان صالحُ المرى القاصَ العابدَ البليغ كثيراً ماينشد فى قصصه وفى مواعظه هذا البيت :

فبَاتَ يُرَوِّى أصُولَ الفَسِيل فعاشَ الفَسِيلُ ومَاتَ الرَّجلْ

وأنشد الحسن فى مجلسه وفى قصصه وفى مواعظه :

ليسَ من ماتَ فاستَراحَ بمَيْتٍ إنَّمَا المَيْتُ مَيّتُ الأحْيـاءِ

وأنشد عبدُ الصمد بنُ الفَضلِ بن عيسى بن أبان الرقاشي الخطيب القاص الشجاع ، إما فى قصصه وإما فى خطبة من خطبه رحمه الله سبحانه وتعالى :

أرْضٌ تَخَيَّرَها لِطِيبِ مَقِيلِها كَعْبُ بنُ مَامَةَ وابنُ أُمّ دُؤَادِ

جَرَتِ الرِّيَاحُ على مَحَلِّ دِيارِهِمْ فَكأنهُمْ كانوا على مِيعادِ

فأرَى النعيمَ وكُلّ ما يُلْهَى بِهِ يَوْماً يَصِيرُ إلَى بِلًى ونَفَادِ

وقال أبو الحسن : خطب عبد الله بن الحسن على منبر البصرة فى العيد فأنشد

فى خطبته :

أينَ الملوكُ التى عن حظّها غفلتْ   حتّى سقاها بكأسِ الموتِ ساقيها

تلكَ المدائنُ بالآفاقِ خاليةٌ   أمستْ خلاءً وذاقَ الموتَ بانيها

وكان مالك بن دينار يقول فى قصصه : ما أشد فطام الكبير ؟
وهو كما قال القائل :

وترُوضُ عِرسَكَ بعدَ ما هرِمتْ   ومِنَ العناءِ رياضةُ الهرِمِ

ومثله أيضاً قول صالح بن عبد القدوس:

والشيخُ لاَ يترُكُ أخلاقَهُ   حتّى يُوارَى فى ثرَى رَمسِهِ

إذا ارعَوَى عادَ إلَى جهْلِهِ   كذِى الضنَى عادَ إلى نُكسِهِ

قال كلثوم بن عمرو العتّابى :

وكنتَ امرأً لو شئتَ أن تبلُغَ المدَى   بلغتَ بأدْنَى نعمةٍ تستديمُها

ولكنْ فِطامُ النفْسِ أثقلُ محمَلاً   مِنَ الصخْرَةِ الصمّاءِ حينَ ترُومُها

وكانوا يمدحون الجهير الصوت، ويذمون الضئيل الصوت .ولذلك تشادقوا فى الكلام ومدحوا سعة الفم . وذموا صغر الفم . حدثنى محمد بن بشير الشاعر : قيل لأعرابى : ما الجمال ؟ قال القامة . وضخم الهامة ، ورحب الشدق، وبعد الصوت.
وسأل جعفر بن سليمان أبا المخش عن ابنه المخش . وكان جزع عليه جزعاً شديداً قال : صف لى المخش ، فقال : كان أشدق خرطمانيا سائلا لعابه كأنما ينظر من قلتين . كأن ترقوته بوان أو خالفة . كأن منكبه كركرة جمل ثقال ، فقأ الله عينى إن كنت رأيت قبله أو بعده مثله . قال . وقلت لأعرابى : ما الجمال ؟ قال : غؤور العينين ، وإشراف الحجبين . ورحب الشدقين

قال دغفل بن حنظلة النسابة وخطيب العلامة حين سأله معاوية عن قبائل قريش فلما انتهى الى بنى مخزوم قال بنى مخزوم . قال: معزى مطيرة، عليها قشعريرة إلا بنى المغيرة . فإن فيهم تشادق الكلام ، ومصاهرة الكرام
وقال الشاعر فى عمرو بن سعيد الأشدق :

تَشَادَقَ حتى مَالَ بِالْقَوْلِ شِدْقُه   وَكلُّ خَطِيبٍ لا أَبالكَ أَشْدَقْ

وأنشد أبو عبيدة :

وصُلعُ الرُّؤسِ عِظَامُ البُطُونِ   رِحابُ الشِّدَاقِ طِوَالُ الْقَصَرْ

وتكلم يوماً عنـد معاوية الخطباء فأحسنوا فقال : والله لأُرمينهم بالخطيب الأشدق ، قم يا يزيد فتكلم

وهذا القول وغيره من الاخبار والاشعار حجة لمن زعم أن عمرو بن سعيد لم يسم الاشدق للفقم ولا لِلَّقْوة . وقال يحي بن نَوْفَلٍ فى خالد بن عبد الله القسرى :

بَلَّ السَّرَاوِيلَ مِنْ خَوْفٍ وَمِن وَهَلٍ   وَاسْتَطْعَمَ الماءَ لمَّا جدَّ في الْهَرَبِ

وأَلْحَنُ النَّاسِ كُلِّ النَّاسِ قاطِبَةً   وكانَ يُولَعُ بِالتَّشْدِيقِ فِي الْخُطَبِ

و يدلك على تفضيلهم سعة الاشداق وهجائهم ضيق الافواه قول الشاعر :

لَحَا اللهُ أفْوَاهَ الدَّبَى من قَبيلَةٍ   إذا ذكرتْ فى النَّائِباتِ أُمُورها

وقال الآخر :

وأفْوَاهُ الدَّبَى حَامُوا قَليلاً   وليسَ أخو الحِمَايَةِ كالضَّجُورِ

وإنما شبه أفواههم بافواه الدَّبى لصغر أفواههم وضيقها . وعلى ذلك المعنى هجا عَبدة بنُ الطبيب حييَّ بن هزال وابنيه فقال :

تدعُو بنيّكَ عبَّاداً وجرثمـةً   يا فأرَةَ شَجَّها فِى الجُحْرِ مِحْفارُ

وقد كان العباسُ بنُ عبـد المطلب جهيراً ، جهير الصوت ، وقد مدح بذلك ، وقد نفع الله المسلمين بجهارة صوته يوم حنين حين ذهب الناس عن رسول الله ﷺ فنادى العباس : يا أصحاب سورة البقرة هذا رسول الله ﷺ . فتراجع القوم وأنزل الله عز وجل النصرة وأتى بالفتح .

أخبرنى ابنُ الـكلبى عن أبيه عن أبى صالح عن ابن عباس قال: كان قَيْسُ بنُ مَخْرمة بن المطلب بن عبد مناف يمكو حول البيت فيسمع ذلك من حراء . قال الله تعالى « وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُـكَاءً وَتَصْدِيَةً » فالتصدية التصفيق. والمـكاء التصفير، أو شبيه بالصفير . ولذلك قال عَنترة :

وحَليلِ غانِيَةٍ تركتُ مُجَدَّلاً تَمْكُو فَرِيصتُهُ كَشِدْقِ الأَعْلَمِ

وقال العجير السلولى فى شدة الصوت :

ومنهنّ قَرْعى كلّ باب كأنما به القومُ ، يرجون الأذين نشورُ

فجئتُ وخصمى يصرفون نيوبهم كما قصبت بين الشفار جزورُ

لدى كلّ موثوقٍ به عند مثلها له قدمٌ في الناطقين خطيرُ

جهيرٌ وممتدُّ العنانِ مناقلٌ بصيرٌ بعوراتِ الكلامِ خبيرُ

فظلّ رداءُ العصبِ ملقًى كأنّهُ سلى فرسٍ تحت الرجالِ عقيرُ

لو انّ الصخورَ الصُّمّ يسمعن صلْقَنا لرحنَ وفي أعراضهنّ فطورُ

الصلق : شدة الصوت : وفطور: شقوق. وقال مُهَلْهِل :

ولولا الريحُ أسمع أهلَ نجدٍ صليلُ البيضِ تقرعُ بالذكورِ

والصريف : صوت احتكاك الانياب ، والصليل : صوت الحديد ههنا . وفى شدة الصوت يقول الأعشى فى وصفه الخطيب بذلك :

فيهم الخِصبُ والسَّماحةُ والنجْـ ـدةُ جمعاً والخاطبُ الصلّاقُ

وقال بَشار بنُ برد فى ذلك ويهجو بعض الخطباء :

ومن عجبِ الأيامِ أنْ قمتَ ناطقاً وأنتَ ضئيلُ الصوتِ منتفخُ السَّحْرِ

ووقع بين فتى من النصارى و بين ابن فهريز كلام ، فقال له الفتى : ماينبغى أن يكون فى الأرض رجلٌ واحدٌ أجهل منك ؛ وكان ابن فهريز فى نفسه اكثر الناس علماً وأدباً . وكان حريصاً على الجثلقة ، فقال للفتى : وكيف حلت عندك هذا المحل ؟ قال: لأنك تعلم أنا لا نتخذ الجاثليق إلا مديدَ القامة،وأنت قصيرُ القامة ، ولا نتخذه الا جهيرَ الصوت، جيدَ الخلق،وأنت دقيقُ الصوت رديءُ الخلق ، ولا نتخذه الا وهو وافرُ اللحية عظيمها وأنت خفيفُ اللحية صغيرُها ، وأنت تعلم أنا لانختار للجثلقة الارجلاً زاهداً فى الرياسة.وأنت أشدُّ الناس عليها كَلَباً،وأظهرهم لها طلباً ، فكيف لاتكون أجهل الناس وخصالك هذه كلها تمنع من الجثلقة ؟ وأنت

قد شغَلْتَ فى طلبها بالك ، وأسهرت فيها ليلك ؟ وقال أبو الحجناء فى شدة الصوت:

إنّى إذَا مَا زَبَّب الأَشْداقُ   والتَجَّ حَوْلِى النّقْعُ وَاللّقْلاقُ

ثَبْتُ الجَنَانِ مِرْجَمٌ وَدَّاقُ

المِرجم: الحاذق بالمراجمة بالحجارة . والوداق: الذى يسيل الحجارة كالودق من المطر . وجاء فى الحديث « مَنْ وُقِي شرَّ لَقلقه وقَبقَبِه وذَبذبه وُقِي الشّر » يعنى لسانه وبطنه وفرجه . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه في بواكى خالد بن الوليد ابن المغيرة: وما عليهن أن يُرقن من دموعهن على أبى سُليمان مالم يكن نَقْعٌ أو لَقلَقَةٌ ؟ وجاء فى الاثر « ليس منا من حَلق أو صَلق أو سَلق أو شَق »

ومما مدح به العُمانى هرون الرشيد بالقصيد دون الرجز قوله :

جَهِيرُ العُطَاسِ شَدِيدُ النِّيَاطِ   جَهِيرُ الرُّوَاءِ جَهِيرِ النغَمْ

وَيَخْطُو على الأَينِ خَطْوَ الظَّلِيمِ   وَيَعْلُو السِّمَاطَ بجِسْمٍ عَمَمْ

النياط : معاليق القلب . الأين : الاعياء . الظليم: ذكر النعام . عمم : حسن . ومنه قيل : نبت عميم ، أى حسن كثير . ويقال: ان جسمه لعممٌ ، وانه لعم الجسم ، اذا كان تاماً .

وكان الرشيد اذا طاف بالبيت جعل لازاره ذنبين عن يمين وشمال ثم طاف بأوسع من خطو الظليم ، وأسرع من رجع يد الارنب . وقد أخبرنى ابرهيمُ بن السندى بمحصول ذرع ذلك الخطو ، الا انى أحسبه فراسخ فما رأيته يذهب اليه . قال ابرهيم ـ ونظر اليه اعرابى فى تلك الحال والهيئة ـ فقال : « خَطْوَ الظَّلِيمِ رِيعَ مُمْسَى فَانْشَمَرْ »

ريع . فزع . ممسى : حين المساء . انشمر : جد فى الهرب .

وحدثنى ابراهيم السندى قال لما أتى عبدَ الملك بن صالح وفدُ الروم ، وهو فى البلاد أقام على رأسه رجالا فى السماطين لهم قَصَرٌ وَهَامٌ ، وَمَنَاكِبُ وأجسامٌ ، وشوارب وشعور . فبيناهم قيام يكلمونه ، ومنهم رجل وجهه فى قفا البطريق اذ عطس عطسة ضئيلة فلحظه عبد الملك فلم يدر أىَّ شىء أنكر منه ! فلما مضى الوفد قال له: ويلك ، هلا اذ كنت ضيق المنخر كزّ الخيشوم أتبعتها بصيحة تخلع بها قلب العلج ؟

وفي تفضيل الجهارة يقول شبة بن عقال بعقب خطبته عند سليمان بن على ابن عبد الله بن عباس :

أَلاَ لَيْتَ أُمَّ الْجَهْمِ واللهُ سامعٌ ... تَرَى حَيْثُ كانَتْ بالعِراقِ مَقَامِي

عَشِيَّةَ بَذَّ النَّاسَ جَهْرِي ومنْطِقِي ... وبَذَّ كلامَ النَّاطِقِينَ كلامي

وقال الحطيئة يمدح معاوية بالجهارة وبجودة الخطبة :

رَكُوبُ المَنابِرِ وَثَّابُها ... مِعَنٌّ بخطبته مِجْهَرُ

تُرِيعُ إِلَيْهِ هَوادي الكلام ... إذا ضلَّ خطْبَتَهُ المِهْذَرُ

معنّ : تعرض له الخطبة فيخطبها مقتضبا لها. تُريع اليه : ترجع إليه. هوادى الكلام : أوائله . فأراد أن معاوية يخطب فى الوقت الذى يذهب فيه كلام المهذر. والمهذر . المكثار

وزعموا أن أبا عطية عفيفا النصرى فى الحرب التى كانت بين ثقيف وبين بنى نصر لما رأى الخيل بعقوته يومئذ وأيس نادى : ياصباحاه ، أتيتم يابنى نصر فألقت الحبالى أولادها من شدة صوته . قالوا : فقال ربيعةُ بنُ مسعود يصف تلك الحرب وصوت عفيف :

عُقاماً ضَرُوساً بينَ عَوْفٍ ومالكٍ ... شَدِيداً لَظاها تَتْرُكُ الطِّفْلَ أَشْيَبا

وكانَتْ جَعِيلٌ يَوْمَ عمرو أراكةٍ ... أَسُودَ الغَضا غادَرْنَ لَحْماً مُتَرَّبا

ويومٍ بِكَرْثاءَ سَدَّتْ مُعَتِّبٌ ... بِغاراتِها قَدْ كانَ يوماً عَصَبْصبا

فأسْقَطَ أحْبالَ النِّساءِ بِصَوْتِهِ ... عفيفٌ وقد نادى بنَصْرٍ فطَرَّبا

وكان أبو عروة ــ الذى يقال له أبو عروة السباع ــ يصيح بالسبع وقد احتمل الشاة فيخليها ، ويذهب هاربا على وجهه . فضرب به الشاعر المثل ، وهو النابغة الجعدى فقال :

وأَزْجُرُ الكاشِحَ العَدُوَّ إذا اغْتا ... بَكَ عِندى زَجْراً على أَضَمِ

زَجْرَ أَبِي عُرْوَةَ السِّباعَ إذا ... أَشْفَقَ أنْ يلْتَبِسْنَ بالغَنَمِ

وأنشد أبو عمرو الشيبانى لرجل من الخوارج يصف صيحة شبيب بن يزيد ابن نعيم (١) قال أبو عبيدة وأبو الحسن : كان شبيب يصيح فى جنبات الجيش إذا أتاه فلا يلوى أحد على أحد . وقال الشاعر فيه :

إنْ صَاحَ يَوْماً حَسِبتَ الصَّخْرَ مُنْحَدِراً والرِّيحَ عاصِفَةً والمَوْجَ يَلْتَطِمُ

قال أبو العاصى : أنشدنى أبو محرز خلف بن حيان (٢) ـ وهو خلف الاحمر مولى الاشعريين فى ـ عيب التشادق :

---

(١) هو شبيب بن يزيد بن نعيم الشيبانى الحرورى الخارجى أمير الخوارج في عصره ، ومزلزل أركان الدولة الاموية أيام عبد الملك بن مروان ، صاحب الوقائع الهائلة ، والاحداث العظيمة مع شيخ العتاة ، وأسد الولاة الحجاج بن يوسف الثقفى ، وقاتل قواده ، ومبيد أجناده . دخل الكوفة ـ وهى غاصة بجند السلطان ، حاشدة بأبطال الدولة وعلى رأسهم الحجاج ـ عنوة لينيل زوجته غزالة وفاء نذرها من الصلاة في مسجدها الجامع فأدت صلاتها ، وأطالت فيها ماشاءت ، ثم خرج يخترق بها صفوف أعدائه ولم يصب بأذى ، ولم ينلها مكروه .

وكانت زوجته غزالة من الشجاعة والفروسية بالموضع العظيم ، فكانت تباشر الحروب بنفسها ، وتخوض المعامع بسيفها ، وتصرع الأبطال بقوة جنانها ، وهى التى لما أحجم الحجاج فى إحدى المواقع عن مبارزتها عيره بعض الشعراء بقوله :

أسد علىّ وفى الحروب نعامة فتخاء تنفر من صفير الصافر

هلا برزت الى غزالة فى الوغى ؟ بل كان قلبك فى جناحى طائر

ولد شبيب سنة ٢٥ هـ ٦٤٥ م ومات غرقاً فى نهر دجيل سنة ٧٧ هـ ٦٩٦ م

(٢) ابو محرز خلف بن حيان الاحمر . كان مولى بلال بن أبى بردة بن أبى موسى الأشعرى . وكان راوية علامة ، شاعراً بليغاً يصنع الشعر وينسبه الى العرب ، فيشبه كلامه كلامهم ، وكان يذهب مذهب الأصمعى فى الرواية ، حتى قيل انه معلم الاصمعى . وهما اللذان فتقا المعانى ، وأوضحا المسالك ، وبينا المعالم ، ولم يكن لهما فى علم الشعر نظير . ثم نسك فى أواخر أيامه وترك الشعر والكلام فيه . وعليه قرأ أهل الكوفة أشعارهم ، وكانوا يقصدونه بعد وفاة حماد الراوية ، لكنه فاق حمادا . ولما نسك خرج الى أهل الكوفة فعرفهم الأشعار التى أدخلها فى أشعار الناس ، فقالوا له : أنت كنت عندنا فى ذلك الوقت أوثق منك الساعة . مات سنة ١٨٠ هـ ٧٩٦ م

له حنجرٌ رَحْبٌ وقَوْلٌ مُنَقَّحٌ ... وفَصْلُ خِطابٍ لَيسَ فيهِ تَشادُقُ

إذا كانَ صَوتُ المَرْءِ خَلْفَ لَهاتِهِ ... وأنْحى بأشْداقٍ لهُنَّ شَقاشِقُ

وقَبْقَبَ يَحْكِي مُقْرَماً في هِبابِهِ ... فلَيْسَ بمَسْبوقٍ ولا هُو سابِقُ

وقال الفرزدق : شَقاشِقُ بينَ أشْداقٍ وهامِ

وأنشد خلف :

وما في يَدَيْهِ غيرُ شِدْقٍ يُميلُهُ ... وشِقْشِقَةٍ خَرْساءَ ليسَ لَها تَعْبُ

متى رامَ قَوْلاً خالفَتْهُ سَجيَّةٌ ... وضِرْسٌ كقَعْبِ القَينِ ثَلَّمَهُ الشَّعْبُ

وأنشد أبو عمرو بن [العلاء] :

وجاءَتْ قُرَيْشٌ قُرَيْشُ البِطاحِ ... هِيَ العُصَبُ الاوَلُ الدَّاخِلَهْ

يقودُهُمُ الفيلُ والزَّنْدَبيلُ ... وذُو الضِّرْسِ والشَّفَةِ المائِلَهْ

والفيل والزندبيل : أبان والحكم ابنا عبد الملك بن بشر بن مروان . وذو الضرس وذو الشفة المائلة : هو خالد بن سلمة المخزومي الخطيب . يعني دخولهم على ابن هبيرة. والزندبيل : الانثى من الفيلة فيما ذكر أبو اليقظان بحيم بن حفص . وقال غيره: هو الذكر . فلم يقفوا من ذلك على شيء .

وقال الشاعر في خالد بن سلمة المخزومي الخطيب :

فما كانَ قائلُهُمْ دَغْفَلٌ ... ولا الحَيْقُطانُ ولا ذو الشَّفَهْ

قوله : دَغفل . يريد دغفل بن يزيد بن حنظلة الخطيب الناسب. والحيقطان : عبد أسود ، وكان خطيباً لايجارى

وأنشد أصحابنا :

وقافِيَةٍ لَجْلَجْتُها فرَدَدْتُها ... لِذِي الضِّرْسِ لو أرْسَلْتُها قَطَرَتْ دَما

وقال الفرزدق : أنا عند الناس أشعر العرب ، ولربما كان نزع ضرس أيسر علي من أن أقول بيت شعر .

وأنشدنا منيع :

فَجِئْتُ وَوَهْبٌ كَالخلاةِ تَضمُّها ... إلَى الشِّدْقِ أَنْيابٌ لَهُنَّ صَرِيفُ

فقعقعتُ لَحْيَىْ خالِدٍ واهتَضَمْتُهُ ... بحُجَّةِ خَصْمٍ بالخصومِ عَنِيفُ

أبو يعقوب الثقفى عن عبد الملك بن عمير قال : سئل الحارث بن أبى ربيعة عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه ؟ فقال : كم كان له ما شئت من ضرس قاطع فى العلم بكتاب الله ، والفقه فى السنة ، والهجرة الى الله ورسوله، والبسطة فى العشيرة ، والنجدة فى الحرب ، والبذل للماعون . قال الاخر :

ولم تُلفِنِى فَهًّا ولم تلفِ حُجَّتى ... مُلَجلَجَةً أَبْغِى لَهَا مَنْ يُقِيمُهَا

ولا بِتُّ أُزْجِيها قَضِيباً وتَلتَوِى ... أُراوِغُها طَوْراً وطَوْراً أُضِيمُها

وأنشدنى أبو الردينى العكلى :

فَتًى كانَ يَعْلُو مَفْرِقَ الحَقِّ قَوْلُهُ ... إذا الخُطَبَاءُ الصِّيدُ عَضَّلَ قِيلُهَا

وقال الخُزيمى (١) فى تشادق على بن الهيثم (٢) :

---

(١) الخزيمى : هو اسحق بن حسان ، ويكنى أبا يعقوب ، أصله من فارس ، وهو مولى ابن خزيم الناعم من بنى مرة بن عوف . كان شاعراً حسن الديباج ، جيد المعانى. وكان متصلا بمحمد بن منصور بن زياد كاتب البرامكة ، وله فيه مدائح جياد ، ثم رثاه بعد موته فقيل له : يا أبا يعقوب ، مراثيك لال منصور بن زياد أحسن من مدائحك وأجود ! فقال : كنا نعمل على الرجاء ، ونحن الان نعمل على الوفاء ، و بينهما بون بعيد . وكان قد عمى فقال :

اذا ما ماتك بعضك فابك بعضا ... فان البعض من بعض قريب

يمنينى الطبيب شفاء عينى ... وهل غير الاله لها طبيب ؟

وقال فى معنى الغيرة والصيانة ، وهو كلام جيد :

ما أحسن الغيرة فى وقتها ... وأقبح الغيرة فى كل حين

من لم يزل متهما عرسه ... مناصبا فيها لريب الظنون

أوشك أن يغريها بالذى ... يخاف أن يبرزها للعيون

حسبك من تحصينها وضعها ... منك الى عرض صحيح ودين

لا تطلع منك على ريبة ... فيتبع المقرون حبل القرين

(٢) على بن الهيثم الكاتب الانبارى ، كان يعرف بجونقا ، وكان أديبا فاضلا

يا عَلِيَّ بْنَ هَيْثَمٍ يا سُماقا | قد مَلأتَ الدُّنْيا علينا بقاقا
خَلِّ لَحْيَيْكَ يَسْكُنانِ ولا تَضْـ | ـرِبْ على تَغْلِبٍ بلَحْيَيْكَ طاقا
لا تَشَادَقْ إذا تَكَلَّمْتَ وَاعلَمْ | أنَّ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ أشْداقا

وكان على بن الهيثم جوادا بليغ اللسان والقلم

قال لى أبو يعقوب الخزيمى : ما رأيت كثلاثة رجال يأكلون الناس أكلا حتى إذا رأوا ثلاثة رجال ذابوا كما يذوب الملح فى الماء ، أو الرصاص عند النار . كان هشامُ بن الكلبي علامة نسابة ، وراية للمثالب عيابة ، فاذا رأى الهيثمَ ابن عديّ ذاب كما يذوب الرصاص عند النار . وكان الهيثمُ بنُ عدى مُفَقِّعاً نيا صاحب تفقيع وتقعير ، و يستولى على كلام أهل المجلس لا يحفل بشاعر ولا بخطيب ، فاذا رأى موسى الضبي ذاب كما يذوب الرصاص عند النار . وكان عَلَّوَيْه المغنى أحد الناس فى الرواية ، وفى الحكاية ، وفى صنعة الغناء ، وجودة الضرب ، وفى الاطراب وحسن الخلق ، فاذا رأى مخارقاً ذاب كما يذوب الرصاص عند النار

ثم رجع بنا القول إلى ذكر التشديق وبعد الصوت . قال أبو عبيدة : كان عروة ابن عتبة بن جعفر بن كلاب رديفا للملوك ورحالا اليهم ، وكان يقال له عروة الرحّال فكان يوم أقبل مع ابن الجون يريد بنى عامر ، فلما انتهى إلى واردات مع الصبح قال له عروة : انك قد عرفت طول صحبتى لك ، ونصيحتى اياك ، فأذن لى فأهتف بقومى هتفة . قال : نعم ، وثلاثا . فقام فنادى « ياصاحباه » ثلاث مرات ، قال: فسمعنا شيوخنا يزعمون أنه أسمع أهلَ الشعب فتلببوا للحرب وعَسَّوا الرَّبايا (١) ينظرون من أين يأتى القوم . قالوا: وتقول الروم : لولا ضجة أهل رُومية وأصواتهم سمع الناس جميعا صوت وجوب القرص فى المغرب

وأعيب عندهم من دقة الصوت، وضيق مخرجه، وضعف قوته، أن يعترض الخطيب البهر والارتعاش والرعدة والعرق . قال أبو الحسن : قال سُفيان بن عيينة : تكلم صعصعة عند معاوية فعرق . فقال معاوية : بهرك القول ؟ فقال صعصعة :

وخطيبا مفوها، صاحب تشادق وتقعير، كثير الاستعمال لعويص اللغة . كتب في ديوان المأمون وغيره من الخلفاء وكان المأمون يتحفظ فى كلامه اذا كان حاضرا

(١) عسوا الربايا : أكثروا الديدبانات والرقباء

إن الجياد نضاحة بالماء

والفرس إذا كان سريع العرق وكان هشا كان ذلك عيبا . وكذلك هو في الكثرة . واذا أبطأ ذلك وكان قليلا قيل: قد كبا ، وهو فرس كاب ، وذلك عيب أيضا

وأنشدني ابنُ الأعرابي لابي مسمار العكلي في شبيه بذلك قوله :

لله دَرُّ عامِرٍ إذا نَطَقْ في حَفْلِ إملاكٍ وفي تلك الحِلَقْ

ليسَ كقومٍ يُعْرَفونَ بالشَّدَقْ مِنْ خُطَبِ النّاسِ وَممّا في الوَرَقْ

يُلَفِّقُونَ القَوْلَ تَلْفيقَ الخَلَقْ مِنْ كُلِّ نَضّاحِ الذّفارى بالعَرَقْ

إذا رَمَتْهُ الخطَباءُ بالحَدَقْ

والذفارى هنا : يعني بدَن الخطيب . والذفريان للبعير : وهما اللحمتان في قفاه . وانما ذكر خطب الاملاك لانهم يذكرون أنه يعرض للخطيب فيها من الحصر أكثر مما يعرض لصاحب المنبر ، ولذلك قال عُمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه : ما يتصعدني كلام كما تتصعدني خطبة النكاح . وقال العُماني :

لا ذَفِرٌ هَشٌّ ولا بِكابِ ولا بِلَجْلاجٍ ولا هَيَّابِ

الهشّ : الذي يجود بعرقه سريعاً ، وذلك عيب . والذفِرْ : الكثير العرق . والكابي : الذي لا يكاد يعرق ، كالزند الكابي الذي لا يكاد يوري . فجعل له العماني حالا بين حالين إذا خطب ، وخبر أنه رابط الجأش ، معاود لتلك المقامات

وقال الكميتُ بن زيد ، وكان خطيباً : إن للخطبة صعداء وهي على ذي اللبّ أرمى

وقولهم : أرمى وأربى سواء ، يقال : فلان قد أرمى على المائة وأربى . ولم أر الكميت أفصح عن هذا المعنى ولا تخلص الى خاصته ، وانما يجترئ على الخطبة الغمرُ الجاهل الماضي الذي لا يثنيه شيء ، أو المطبوع الحاذق الواثق بغرازته واقتداره فالثقة تنفي عن قلبه كل خاطر يورث اللجلجة والنحنحة والانقطاع والبُهر والعرق .

قال عبيدُ الله بن زياد ، وكان خطيبا على لكنة كانت فيه : نعم الشيء الامارة لولا قعقعة البُرد والتشدق للخطب . وقيل لعبد الملك بن مروان : عجل عليك الشيب يا أمير المؤمنين ؟ قال : وكيف لا يعجل علي وأنا أعرض عقلي على الناس في كل جمعة مرة أو مرتين ؟

يعني خطبة الجمعة وبعض ما يعرض من الامور . قال بعض الكلابيين .

وَإِذَا خطَبْتَ على الرِّجالِ فلا تَكُنْ ... خَطِلَ الْكَلامِ تقولُه مُخْتالا
واْعلَمْ بأنّ مِنَ السُّكوتِ إبانَةً ... ومِنَ التَّكلّم مايَكُونُ خَبَالا

﴿ كلام بِشْر بنِ المُعْتَمِر [1] ﴾ حين مر بابرهيم بن جَبلة بن مَخْرَمة السَّكونى الخطيب وهو يعلم فتيانهم الخطابة . فوقف بِشرٌ ، فظن ابرهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من النظارة . فقال بشر : أضربوا عما قال صفحا ، واطووا عنه كشحاً ثم دفع اليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه ، وكان أول ذلك الكلام :

« خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك واجابتها إياك ، فان قليل تلك الساعة أكرم جوهراً ، وأشرفُ حسباً ، وأحسن فى الاسماع ، وأحلى فى الصدور

---

(١) بشر بن المعتمر ، يكنى أبا سهل ، كان من وجوه أهل الكلام . ومن أفاضل علماء المعتزلة ، ومن أكابر بلغاء الدهر وأبينائه ، وكان جميع معتزلة بغداد من مستجيبيه وكان به برص . وكان له ولع بأبى الهذيل العلاف كثير الوقوع فيه ، ورميه بالنفاق . ومن أبلغ وأظرف ما قاله فيه قوله : لأن يكون أبو الهذيل لا يعلم وهو عند الناس يعلم أحب إليه من أن يعلم وهو عند الناس لا يعلم ، ولأن يكون من السفلة وهو عند الناس من العلية أحب اليه من أن يكون من العلية وهو عند الناس من السفلة ، ولأن يكون نبيل المنظر سخيف المخبر أحب إليه من أن يكون نبيل المخبر سخيف المنظر . وهو بالنفاق أشد عجباً منه بالاخلاص ، ولباطل مقبول أحب إليه من حق مدفوع

وهو رأس فرقة من فرق المعتزلة تنسب اليه يقال لها « البشرية » لها أراء ومسائل أخذتها عنه وانفردت بها عن سائر الفرق . ولبشر أشعار كثيرة يحتج فيها على أصحاب المقالات . قال الجاحظ : أنه لم ير أحداً أقوى على المخمس والمزدوج مما قوى عليه بشر ، وانه كان فى ذلك أكثر وأقدر من أبان اللاحقى . ومن شعره :

إن كنت تعلم ما أقو ... ل وما تقول فأنت عالم
أو كنت تجهل ذا وذا ... ك فكن لاهل العلم لازم
أهل الرياسة من ينـ ... ـازعهم رياستهم فظالم
سهرت عيونهم وانـ ... ـت من الذى قاسوه حالم
لا تطلبن رياسة ... بالجهل أنت لها مخاصم
لولا مقامهم رأيـ ... ـت الدين مضطرب الدعائم

وأسلم من فاحش الخطأ ، وأجلب لكل عين وغرّة من لفظ شريف ومعنى بديع
واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاولة والمجاهدة
وبالتكلف والمعاودة . ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصداً ، وخفيفا
على اللسان سهلا ، وكما خرج من ينبوعه ، ونجم من معدنه . وإياك والتوعّر ،
فان التوعر يسلمك الى التعقيد ، والتعقيد هو الذى يستهلك معانيك ويشين ألفاظك .
ومن أراد معنى كريما فليلتمس له لفظاً كريما ، فان حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ،
ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجّنهما ، وعما تعود من أجله الى أن تكون
أسوأ حالا منك قبل أن تلتمس اظهارهما ، وترتهن نفسك بملابستهما ، وقضاء حقهما .
وكن فى ثلاث منازل . فان أولى الثلاث : أن يكون لفظك رشيقاً عذبا ، وفخما سهلا ،
ويكون معناك ظاهراً مكشوفا ، وقريبا معروفا ، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة
قصدت ، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت . والمعنى ليس يَشرُف بان يكون
من معانى الخاصة ، وكذلك ليس يتضع بان يكون من معانى العامة ، وإنما مدار
الشرف على الصواب واحراز المنفعة ، مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من
المقال . وكذلك اللفظ العامى والخاصى . فان أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك ، وبلاغة
قلمك ، ولطف مداخلك ، واقتدارك على نفسك ، على أن تفهم العامة معانى الخاصة وتكسوها
الالفاظ الواسطة التى لا تلطف عن الدهماء ، ولا تجفو عن الاكفاء ، فانت البليغ التام »

قال بشر : فلما قرئت على إبرهيم قال لى : أنا احوج الى هذا من هؤلاء الفتيان

قال أبو عثمان : أما أنا فلم أر قوما قط أمثل طريقة فى البلاغة من الكتاب ،
فانهم قد التمسوا من الألفاظ مالم يكن متوعّراً وحشياً ، ولا ساقطاً سوقيا . واذا
سمعتمونى أذكر العوام فانى لست أعنى الفلاحين والحشوة ، والصناع والباعة ،
ولست أعنى الاكراد فى الجبال ، وسكان الجزائر فى البحار ، ولست أعنى من الامم
مثل البير والطيلسان ، ومثل موقان وجيلان ، ومثل الزنج وأمثال الزنج ؟ وانما الامم
المذكورون من جميع الناس أربع : العرب ، وفارس ، والهند ، والروم . والباقون
همج وأشباه الهمج . وأما العوام من أهل ملتنا ودعوتنا ولغتنا وأدبنا وأخلاقنا
فالطبقة التى عقولها وأخلاقها فوق تلك الامم ولم يبلغوا منزلة الخاصة منا ، على أن
الخاصة تتفاضل فى الطبقات أيضا

ثم رجع بنا القول إلى بقية كلام بشر بن المعتمر ، والى ما ذكر من الاقسام .
قال بشر :

« فان كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تعتريك ، ولا تسنح لك عند أول نظرك وفي أول تكلفك ، وتجد اللفظة لم تقع موقعها ، ولم تصر الى قرارها ، والى حقها من أماكنها المقسومة لها ، والقافية لم تحلّ في مركزها وفي نصابها ، ولم تصل بشكلها ، وكانت قلقةً في مكانها ، نافرة من موضعها ، فلا تُكرهها على اغتصاب الاماكن والنزول في غير اوطانها ، فانك اذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون ، ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور لم يُعبك بترك ذلك أحد . وان أنت تكلفتها ولم تكن حاذقا مطبوعا ، ولا محكما لسانك بصيراً بما عليك او مالك ، عابك من انت أقل عيبا منه ، ورآى من هو دونك انه فوقك . فان ابتليت بان تتكلف القولَ ، وتتعاطى الصنعة ، ولم تسمح لك الطباع في اول وهلة ، وتعصّى عليك بعد إجالة الفكرة ، فلا تعجل ولا تضجر ، ودعه بياض يومك ، او سواد ليلك ، وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك فانك لا تعدم الاجابة والمواتاة ، ان كانت هناك طبيعة ، او جريت من الصناعة على عِرق . فان تمنع عليك بعد ذلك من غير حادث شغل عرض ، ومن غير طول اهمال ، فالمنزلة الثالثة أن تتحول من هذه الصناعة الى اشهى الصناعات اليك ، واخفها عليك ، فانك لم تشتهه ولم تنازع اليه الا و بينكما نسب ، والشيء لا يحن الا الى ما يشاكله ، وان كانت المشاكلة قد تكون في طبقات ، لان النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة ، ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة ، كما تجود به مع المحبة والشهوة . فهكذا هذا »

وقال : ينبغي للمتكلم ان يعرف اقدار المعانى ، ويوازن بينها وبين اقدار المستمعين ، وبين اقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ، ولكل حالة من ذلك مقاما ، حتى يقسم اقدار الكلام على اقدار المعانى ، ويقسم اقدار المعانى على اقدار المقامات ، واقدار المستمعين على اقدار تلك الحالات . فان كان الخطيب مُتكلما تجنب الفاظ المتكلمين ، كما انه ان عبر عن شيء من صناعة الكلام : واصفا ، او مجيبا ، أوسائلا ، كان اولى الالفاظ به الفاظ المتكلمين ، اذ كانوا لتلك العبارات أفهم ، والى تلك الالفاظ أميل ، واليها أحن ، وبها أشغف ، ولان كبار المتكلمين ورؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء ، وابلغ من كثير من البلغاء ، وهم تخيروا تلك الالفاظ لتلك المعانى ، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الاسماء ، وهم اصطلحوا على تسمية مالم يكن له في لغة العرب اسم ، فصاروا في ذلك سلفاً لكل خلف ، وقدوة لكل تابع . ولذلك قالوا : العرَض ، والجوهر ، وأيس ، وليس . وفرقوا بين البطلان والتلاشي . وذكروا الهَذِيّة والهُوية والماهية . واشباه ذلك ، وكما وضع الخليل بن

احد لاوزان القصيد وقصار الارجاز ألقابا لم تكن العرب تتعارف تلك الاعاريض بتلك الالقاب ، وتلك الاوزان بتلك الاسماء ، كما ذكر الطويل والبسيط والمديد والوافر والكامل، واشباه ذلك ، وكما ذكر الاوتادَ والاسباب والخرم والزِّحاف . وقد ذكرت العرب فى أشعارها السنادَ والاقواءَ والاكفاء ، ولم اسمع الايطاء . وقالوا في القصيد والرجز والسجع والخطب . وذكروا حروف الرَّوِىِّ والقوافى. وقالوا : هذا بيت ، وهذا مِصراع . وقد قال جندَل الطهوى حين مدح شعره :

لم اقْوِفيهنَّ ولم أُساندِ

وقال ذُو الرُّمَّة :

وشِعْرٍ قد أرِقْتُ لهُ غَرِيبٍ   أُجانِبُهُ المسانِد والمحالا

وقل أبو حِزَامٍ العُكْلىُّ :

بُيُوتاً نَصَبْنا لتَقويمِها   جُذُولَ الرَّبيئِينَ في المَرْبَأَهْ (١)

بيوتاً على الهَا لَهَا سَجْحَةٌ   بغير السِّنادِ ولا المُكْفَأَهْ (٢)

وكما سمى النحويون فذكروا الحال والظرف وما أشبه ذلك ، لانهم لو لم يضعوا هذه العلامات لم يستطيعوا تعريف القرويين وأبناء البلديين علم العروض والنحو . وكذلك أصحاب الحساب قد اجتلبوا أسماء وجعلوها علامات للتفاهم

قالوا : وقبيح بالخطيب أن يقوم بخطبة العيد ، أو يوم السماطين أو على منبر جماعة ، أو فى سُدة دار الخلافة ، أو فى يوم جمع وحفل ، إما فى اصلاح بين العشائر ، واحتمال دماء القبائل ، واستلال تلك الضغائن والسخائم ، فيقول كما قال بعض من خطب على منبر ضخم الشان رفيع المكان : ثم ان الله عز وجل بعد أن أنشأ الخلق وسواهم ومكن لهم لاشاهم فتلاشوا . ولولا أن المتكلم افتقر الى أن يلفظ بالتلاشى لكان ينبغى أن يؤخذ فوق يده . وخطب آخر فى وسط دار الخلافة فقال فى خطبته : واخرجه الله من باب الليسيَّة فادخله فى باب الايسيه (٣)

(١) جذول الربيئين : استطلاع المراقبين . فى المربأة : فى المرقب (٢) سجحة يماثل . السناد والاكفاء : من عيوب القافية (٣) الليسية : النفى . والايسية الاثبات . وذلك من اصطلاح المتكلمين

وقال مرة أخرى فى خطبة له: هذا فريق ما بين السارّ والضار والدّفاغ . وقال مرة أخرى : فدل ساتره على غامره ، ودل غامره على منحله . فكاد ابرهيم ابن السندى يطير شفقا ، ويتقد غيظا . هذا وابرهيم من المتكلمين والخطيب لم يكن من المتكلمين

وإنما جازت هذه الالفاظ فى صناعة الكلام حين عجزت الاسماء عن اتساع المعانى . وقد تحسن أيضا ألفاظ المتكلمين فى مثل شعر ابى نواس ، وفى كل ماقالوه على جهة التظرف والتملح . كقول أبى نواس:

وذاتِ خَدٍّ مُوَرَّدْ ... قُوهِيَّةِ المُتَجَرَّدْ (١)

تَأَمَّلُ العينُ مِنها ... مَحاسِناً ليسَ تَنْفَدْ

فَبَعْضُها قد «تَناهَى» ... وبعضُها «يَتَوَلَّدْ»

والحُسْنُ فى كلِ عُضْوٍ ... مِنها مُعَادٌ مُرَدَّدْ

وكقوله .

ياعاقِدَ القَلْبِ مِنّى ... هَلاّ تَذَكَّرْتَ حَلاّ

تَرَكْتَ قَلبى قَليلاً ... مِنَ القَليلِ أَقلاّ

يَكادُ «لايَتَجَزّا» ... أَقَلُّ فى اللفظِ مِنْ: لا

وقد يتلمح الاعرابى بان يدخل فى شعره شيئا من كلام الفارسية كقول العُمانى(٢) للرشيد فى قصيدته التى مدحه فيها :

(١) قوهية المتجرد . بيضاء الجسم بضته حتى تكاد تشبه المقانع القوهية المنسوبة الى قوهستان . وهذه الابيات فى وصف جنان ، وفيها بعض خلاف عما فى الديوان

(٢) العُمانى : هو محمد بن ذؤيب الحنظلى الدارمى الفقيمى . شاعر بصرى ، قيل أنه لم يرَ عمان لاهو ولا أبوه ،وانما لقب «العمانى» لصفرة لونه . وكان شاعراً راجزاً من متوسطى شعراء الدولة العباسية ، ولم يكن من طبقة معاصرية أمثال أشجع ومسلم ومروان بن أبى حفصة ، ولكنه كان لطيفا داهيا مقبولا، وكان الرشيد يستظرفه ويهش له فأفاد من ذلك مالا جايلا

مَنْ يَلْقَهُ مِنْ بَطَلٍ مُسْرَنْدِ في زَغْفَةٍ مُحْكَمَةٍ بالسَّرْدِ
يَجُولُ بَيْنَ رَأْسِهِ و « الْكَرْدِ »

يعنى العنق . ويقول فيه أيضا :

لمَّا هوَى بَيْنَ غِيَاضِ الأُسْدِ وصارَ في كَفِّ الْهِزَبْرِ الوَرْدِ
آلى يَذُوقُ الدَّهْرَ « آبَ سَرْدِ »

وكقول الآخر :

وَوَلَّهَنِي وَقْعُ الأَسِنَّةِ والْقَنَا و « كافر كوبات » لَها عِجَرٌ قُفْدُ
بأيدِي رِجَالٍ ما كَلامِى كلامُهُمْ يَسُومُونَنى « مُرْدًا » وما أنا « والمرْدُ »

ومثل هذا موجود فى شعر العُذافر الكندى وغيره . ويجوز أيضا أن يكون الشعر مثل شعر الحروشاذ ، وأسود بن أبى كريمة ، كما قال يزيد بن ربيعة بن مُفرغ (١)

آب اَسْتُ نَبِيذَ اَسْتْ عُصاراتِ زَبِيبَ اَسْتْ
سُمَيَّةُ رُوسبيد اَسْتْ

وقال أسود بن أبى كريمة :

لَزِمَ الغُرَّامُ ثَوْبِى بكْرَةً في يَوْمِ سَبْتِ
فَمَايَلْتُ عَلَيْهِمْ مَيْلَ زَنْكِيٍّ بِمَسْتِ
قَدْحَسَا الدَّاذِيَّ صِرْفا أو عقاراً بايخست

---

(١) يزيد بن مفرغ الحميرى: كان شاعراً مجيدا غزلا، له أشعار كثيرة فى هجاء يزيد ابن معاوية وفى آل زياد، لأنه صحب عباد بن زياد لما ولى خراسان واشتغل عنه عباد بحروبه فذمه أقبح ذم وهجاه أوجع هجاء ، وسلقه بلسانه فحبسه وكان له معه ومع أخيه عبيد الله بن زياد خطوب . وله فى سعيد بن عثمان وغيره ممن واسوه فى نكباته مدائح جياد

ثم كفستم ذو زياد ويحكم ان خر كفت

إنَّ جِلْدِى دَبَغَتْهُ أهلُ صَنْعاءَ بحفت

وأبو عمْرَةَ عِنْدِى ان كور يذىمست

جالِس اندر مكناد ايا عمـد بنهشت

وكما لا ينبغى أن يكون اللفظ عاميا ساقطاً سوقيا ، فكذلك لا ينبغى أن يكون غريبا وحشيا ، الا أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا ، فان الوحشى من الكلام يفهمه الوحشى من الناس، كما يفهم السوقى رطانة السوقى

وكلام الناس فى طبقات ، كما أن الناس أنفسهم فى طبقات . فمن الكلام : الجزلُ ، والسخيفُ ، والمليحُ ، والحسنُ ، والقبيحُ ، والسميحُ ، والخفيفُ ، والثقيلُ ، وكله عربى ، وبكلٍ قد تكلموا ، وبكل قد تمادحوا وتعايبوا . قال زعم زاعم أنه لم يكن فى كلامهم تفاضل ، ولا بينهم فى ذلك تفاوت ، فلم ذكروا العَيِىَّ ، والبَكِيَّ ، والحَصِرَ ، والمُفْحَمَ ، والخَطِلَ ، والمسهبَ والمتشدق ، والمتفيهق ، والمهماز ، والثرثار ، والمكثار ، والهماز ؟ ولم ذكروا الهُجر والهـذر والهذيان والتخليط ؟ وقالوا : رجل تَلقاعة وتَلهاعة ، وفلان يتلهيع فى خطبته . وقالوا : فلان يخطىء فى جوابه ، ويحيل فى كلامه ، ويناقض فى خبره . ولولا أن هـذه الامور قد كانت تكون فى بعضهم دون بعض لما سمى ذلك البعض والبعض الاخر بهذه الاسماء

وأنا أقول انه ليس فى الأرض كلام هو أمتع ، ولا أنفع ، ولا آنق ، ولا ألذ فى الاسماع ، ولا أشدّ اتصالا بالعقول السليمة ، ولا أفتق للسان ، ولا أجود تقويما للبيان . من طول استماع حديث الاعراب الفصحاء العقلاء ، والعلماء البلغاء . وقد أصاب القوم فى عامة ما وصفوا، الا أنى أزعم أن سخيف الالفاظ مشاكل لسخيف المعانى، وقد يحتاج الى السخيف فى بعض المواضع، وربما أمتع بأكثر من امتاع الجزل الفخم ، ومن الالفاظ الشريفة الكريمة المعانى . كما أن النادرة الباردة جدًّا قد تكون أطيب من النادرة الحارة جدًّا . وانما الكرب الذى يخيم (١) على القلوب

(١) فى نسخة : يحتم . وليس هذا مقام تحتيم ، والصحيح يخيم . كما يقتضيه السياق كما أثبتناه ها هنا

ويأخذ بالأنفاس: ألنادرةُ الفاترة التي لا هي حارةٌ ولا هي باردةٌ . وكذلك الشعر الوسط ، والغناء الوسط . وانما الشأن في الحارّ جدًّا والبارد جدًّا

وكان محمد بن عباد بن كاسب يقول : والله لفلان أثقل من مغنّ وسط ، وأبغض من ظريف وسط

ومتى سمعت حفظك الله بنادرة من كلام الاعراب فاياك وأن تحكيها الا مع إعرابها ومخارج ألفاظها ؟ فانك ان غيرتها بان تلحن في إعرابها وأخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير . وكذلك اذا سمعت بنادرة من نوادر العوامّ ، وملحة من ملح الحشوة والطغام ، فاياك وأن تستعمل فيها الاعراب ، أو أن تتخير لها لفظا حسنا ، أو تجعل لها من فيك مخرجا سريا ، فان ذلك يفسد الامتاع بها ويخرجها من صورتها ومن الذى أريدت له ويُذهب استطابتهم اياها واستملاحهم لها

ثم اعلم أن أقبح اللحن لحن أصحاب التقعير والتقعيب ، والتشديق والتمطيط ، والجهورة والتفخيم . وأقبح من ذلك لحن الاعاريب النازلين على طرق السابلة وبقرب مجامع الاسواق . ولاهل المدينة ألسنةٌ ذَلقةٌ وألفاظ حسنةٌ ، وعبارة جيدة . واللحن في عوامّهم فاش ، وعلى من لم ينظر في النحو منهم غالب

واللحن من الجوارى الظراف ، ومن الكواعب النواهد ، ومن الشواب الملاح ، ومن ذوات الخدور الغرائر ، أيسر . وربما استملح الرجل ذلك منهن ما لم تكن الجارية صاحبة تكلف . ولكن اذا كان اللحن سجية سكان البلد . وكما يستملحون اللثغاء اذا كانت حديثة السن ، ومقدودة مجدولة ، فاذا أسنت واكتهلت تغير ذلك الاستملاح ، وربما كان اسم الجارية غُليم وصبية وما اشبه ذلك ، فاذا صارت كهلة جزلة ، وعجوزاً شهلة ، وحملت اللحم ، وتراكم عليها الشحم ، وصار بنوها رجالا ، وبناتها نساء ، فما أقبح حينئذ أن يقال لها : ياغليم كيف أصبحت ، ويا صبية كيف أمسيت ؟ ولأمرما كنّتِ العرب البنات فقالوا : فعلت أم الفضل ، وقالت أم عمرو ، وذهبت ام حكيم ، نعم حتى دعاهم ذلك الى التقدم في تلك الكنى

وقد فسرنا ذلك كله في « كتاب الاسماء والكنى والالقاب والانباز »

وقد قال مالك بن أسماء في استملاح اللحن من بعض نسائه :

أَمُغَطّىً مِنّى على بَصَرى لِلْـ حُبِّ ، أم أنتِ أكملُ النّاسِ حُسْنا ؟

وحَـديثٍ أَلَذُّهُ هو مِمَّـا يَنْعَتُ النَّـاعِتُونَ يُوزَنُ وَزْنَا
مَنْطِقٌ صَائِبٌ وتَلْحَنُ أحْيَـا نًا وأحْـلَى الحديثِ ما كانَ لَحْنا(١)

وهم يمدحون الحذق والرفق والتخلص الى حبات القلوب ، والى إصابة عيون المعانى . ويقولون : أصاب الهدف ، اذا أصاب الحق فى الجملة . ويقولون قَرْطَسَ فلان ، وأصاب القرطاس ، اذا كان أجود اصابة من الأول . فاذا قالوا : رمى فاصاب الغرة ، وأصابَ عين القِرطاس ، فهو الذى ليس فوقه أحد . ومن ذلك قولهم : فلان يفل المحز ويصيب المفصل ، ويضع الهناء مواضع النقب . وقال زُرارةُ بنُ جَزء حين أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فتكلم عنده ورفع حاجته اليه :

أَتَيْتُ أبا حَفْصٍ ولا يَسْتَطِيعُهُ مِنَ النَّاسِ إلاَّ كالسِّنَانِ طَرِيرُ
فَوَفَّقَنِي الرَّحْمنُ لَمَّـا لَقِيتُهُ وللْبابِ من دُونِ الخصومِ صَرِيرُ
قُرُومٌ غَيارَى عِنْدَ بابٍ مُمَنَّعٍ تُنازِعُ مَلْكاً يَهْتَدِي ويَجورُ
فَقُلْتُ له قَوْلاً أصابَ فُؤادَهُ وبَعْضُ كلامِ القائلينَ غُرورُ

وفى شبيه ذلك يقول عبد الرحمن بن حسان حيث يقول :

رِجالٌ أصِحَّاء الجُلودِ من الخَنا والسنَّةُ مَعْرُوفَةٌ أينَ تَذْهَبُ

(١) روى ابو الفرج الاصبهانى بسنده عن على بن يحيي المنجم أنه قال : قلت للجاحظ : إنى قرأت فى فصل من كتابك « البيان والتبيين : وإنما يستحسن من النساء اللحن فى الكلام » واستشهدت ببيتى مالك بن أسماء ؟ قال : هو كذلك . فقلت : أما سمعت بخبر هند ابنة اسماء بن خارجة مع الحجاج حين لحنت فى كلامها فعاب ذلك عليها فاحتجت ببيتي أخيها فقال لها : إن أخاك أراد أن المرأة فطنة تلحن بالكلام الى غير الظاهر بالمعنى لتستر معناه وتورى عنه وتفهمه من أرادت بالتعريض ، كما قال الله عز وجل ولتعرفنهم فى لحن القول . ولم يرد الخطأ من الكلام والخطأ لا يستحسن من أحد ؟ ؟ ؟

فوجم الجاحظ ساعة ثم قال : لو سقط الىَّ هذا الخبر أولا لما قلت ما تقدم . فقلت له : فأصلحه . فقال : الآن وقد سار به الكتاب فى الآفاق ؟

وفى اصابة فص الشيء وعينه ، يقول ذو الرُّمة فى مديح بلال بن أبى بردة الاشعرى :

تُناخي عِنْـدَ خيْرِ فَتًى يَمَانٍ   إذا النَّـكْبَاءُ عَارَضَتِ الشَّمالا

وخَيْرِهم مآثِرَ أهْلِ بَيْتٍ   وأكْرَمِهِمْ وَإنْ كَرُمُوا فِعَالا

وأبْعَدِهِمْ مَسَافَةَ غَوْرِ عَقْلٍ   إذا ما الأمْرُ فى الشُّبُهاتِ عَالا

ولَبَّس بينَ أقْوَامٍ فَكُلٌّ   أعَدَّ لَهُ الشَّغَازِبَ والمِحَالا (١)

وكُلُّهمُ ألَدُّ لهُ كِظَاظٌ   أعَدَّ لِكُلِّ حالِ القَوْمِ حالا (٢)

فَصَلْتَ بِحِكْمَةٍ فأصَبْتَ مِنها   فُصُوصَ الحَقِّ فانفَصَلَ انفِصَالا

وكان أبو سعيد الراى، وهو شرشير المدنى، يعيب أبا حنيفة (٣) فقال الشاعر :

عِنْدِي مَسَائِلُ لاشَرْشِيرُ يُحْسِنُهَا   عِنْدَ السُّؤَالِ ولاأصْحابُ شُرْشِيرِ

ولا يُصِيبُ فُصُوصَ الحَقِّ تَعْلَمُهُ   إلاّ حَنِيفِيَّةٌ كُوفِيَّةُ الدُّور

ومما قالوا فى الايجاز و بلوغ المعانى بالالفاظ اليسيرة ، قال ثابت بن قطنة :

مازِلْتُ بَعْدَكَ في هَمٍّ يَجِيشُ بِهِ   صَدْرِي وفي نَصَبٍ قد كادَ يُبْلِينِي

إنِّي تَذَكَّرْتُ قَتْلَى لَوْ شَهِدْتُهُمُ   فى غَمْرَةِ المَوْتِ لَمْ يُصْلَوْا بِهادُونِي

لاأُكْثِرُ القَوْلَ فِيما يَهْضِبونَ بِهِ   مِنَ الكَلَامِ قَلِيلٌ مِنهُ يَكْفِينِي (٤)

وقال رجل من طيء ومدح كلام رجل فقال : هذا كلام يكتفى بأولاه، و يشتفى بأخراه . وقال أبو وجرة السعدى ، من سعد بن بكر، يصف كلام رجل :

يَكْفِي قَلِيلُ كَلامِهِ وكَثِيرُهُ   ثَبْتٌ إذا طالَ النِّضالُ مُصِيبُ

(١) الشغازب : المصارع الشغزبية وهى حركة من حركات المصارعين . وهى أن يعقل المصارع رجله برجل خصمه فيصرعه. والمحال: الاحتيال(٢) له كظاظ : أى صاحب تجارب ومراس فى الحرب (٣) ابوحنيفةهوالامام الاعظم ابوحنيفة النعمان صاحب المذهب وهو اشهر من أن يعرف توفى سنة ١٥٠ هـ ٧٦٧ م (٤) يهضبون : يسحون بالكلام سحا

ومن كلامهم الموجز فى أشعارهم قول العكلى فى صفة قوس :

فى كَفِّه مُعْطِيَةٌ مَنُوعُ　　　مُوثَقَةٌ صَابِرَةٌ جَزُوعُ

وقال الآخر ووصف سهم رام أصاب حمارا فقال : حَتَّى نَجَا مِنْ جَوْفِهِ وما نَجا

وقال الاخر وهو يصف ذئبا :

أَطْلَسُ يُخْفِي شَخْصَهُ غُبارُهُ　　　فِي شِـدْقِهِ شَفْرَتُه ونارُهُ

وَهْوَ الْخَبِيثُ عَيْنُهُ فِرَارُه　　　بَهْمُ بَنِى مُحارِبٍ مُزْدارُهُ

ووصف الآخر ناقة فقال : خَرْقَاءُ إلا أنها صَنَاعُ

وقال الآخر ووصف سهما صارداً (١)

أَلْقَى على مَفْطُوحِها مَفْطُوحا　　　غادَرَ داءً ونَجـا صَحِيحا

المفطوح الاول للقوس ، وهو العريض ، وهو هاهنا موضع مقبض القوس .
والمفطوح الثانى السهم العريض . يعنى أنه ألقى على مقبض القوس سهما عريضا

وقال الاخر :

إِنكَ يا ابْنَ جَعْفَرٍ لا تُفْلِحُ　　　اللَّيْلُ أَخْفَى والنَّهارُ أَفْضَحُ

وقالوا فى المثل: الليل أخفى للويل

وقال رؤبة يصف حمارا:

حَشْرَجَ فِي الْجَوْفِ سَحِيلاً أَوْشَهَقْ　　　حتى يُقـالَ ناهِقٌ وما نَهَقْ

.حشرجة: صوت الصدر. والسحيل: صوت الحمار اذا مده. والشهيق: أن يقطع الصـوت

وقال بعض ولد العباس بن مرداس السلمى فى فرس أبى الاعور السلمى :

جاء كَلَمْحِ الْبَرْقِ جاشَ ناظِرُهْ　　　يَسْبَحُ أُولاهُ ويطفو آخِرُهْ

---

(١) فى نسخة صادرا وهو خطأ، والصواب صارداً كما اثبتناه

فَمَا يَمَسُّ الأَرْضَ مِنْهُ حافِرُهُ

قوله : جاش ناظره ، أى جاش بمائه . وناظر البرق سحابه . يسبح يعنى يمد ضبعية ، فاذا مدها علا كفله

وقال الاخر : إنْ سَرَّكَ الأَهْوَن فابْدَأْ بالأَشَدّ

وقال العجّاج :

يُمَكِّنُ السَّيْفَ إِذا الرُّمْحُ انأَطَرْ مِنْ هَامَةِ اللَّيْثِ إِذا اللَّيْثُ هَتَرْ (١)

كَجَمَلِ البَحْرِ إِذا خاضَ جَسَرْ غَوارِبَ اليَمِّ إذا اليَمُّ هَدَرْ

حتى يُقالَ جاسِرٌ وما جَسَرْ

اليمّ : معظم الماء . وغوارب اليم معظمة . جسر : قطع . ومنه قيل للجسر جسرٌ لان الناس يقطعون عليه . وقوله حتى يقال جاسر وما جسر ، اى قطع الامر وهو بعد فيه لما يرون من مضائه فيه وقدرته عليه

وقال الآخر :

يا دارُ قد غَيَّرَها بِلاهَا كأنَّمَا بِقَلَمٍ مَحَاهَا

أَخْرَبَها عُمْرانُ مَنْ بَناها وَكَرُّ مُمْسَاهَا على مَغْناها

وطَفِقَتْ سَحابَةٌ تَغْشاها تَبْكِي على عِراصِها عَيْناها

قوله : أخربها عمران من بناها ، يقول : عمرها بالخراب . وأصل العمران مأخوذ من العمر وهو البقاء ، فاذا بقى الرجل فى داره فقد عمرها . فيقول: ان مدة بقائه فيها أبلت منها، لان الايام مؤثرة فى الاشياء بالنقص والبلاء . فلما بقى الخراب بها وقام مقام العمران فى غيرها سمى بالعمران

وقال غيره

يا عَجَبَ لِزَّحْفِ بِأَعْنابِ عامِرَتِ البَيْتِ بِخَرِبِ

يعنى الفأر . يقول : هذا عمرانها ، كما يقول الرجل : ما نرى من خيرك ورفدك

(١) إنأطر : انثنى والتوى فى يده

الا ما يبلغنا من خطبك علينا وفتك فى أعضادنا ؟ وقال الله عز وجل « هَذَا نُزُلُهم يومَ الدين »والعذاب لا يكون نزلا،ولكنه لما أقام العذاب لهم في موضع النعيم لغيرهم سمى باسمه

وقال الآخر :

فَقُلْتُ أَطْعِمنى عُمَيرُ تَمْرا فكانَ تَمرِى كَهرَةً وزَبْرا(١)

والتمر لا يكون كهرة وزبزا ، ولكنه على ذا : وقال الله عز وجل « ولهم رزقهم فيها بُكرة وَعشيا »وليس فى الجنة بكرةولا عشي،ولكن علىمقدار البكر والعشيات . وعلى هذا قول الله عز وجل « وقال الذين فى النارلخزنة جهنم » والخزنة الحفظة، وجهنم لا يضيع منها شيء فيحفظ ، ولا يختار دخولها انسان فيمنع منها ، ولكن لما قامت الملائكة مقام الحافظ الخازن سميت به

قوله ممساها يعنى مساءها . ومغناها : موضعها الذىأقيم فيه . والمغانى:المنازل التى كان بها أهلوها ، وطفقت يعنىظلت . تبكى على عراصها عيناها:يقال لكلجوبة منفتقة ليس فيها بناء « عرْصه » . عيناها هاهنا السحاب ، وجعل المطر بكاءمن السحاب، على طريق الاستعارة ، وتسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه

وقال أبو عمرو بن العلاء : (٢) اجتمع ثلاثة من الرّواة فقال لهم قائل : أى نصف بيت شعر أحكم وأوجز ؟ فقال أحدهم : قول حُمَيْدِ بنِ ثَورِ الهِلاَلِيِّ :

وَحَسبُكَ داءً أنْ تَصِحَّ وتَسلَما

ولعل حُمَيْدًا أخذهعن النَّمرِ بنِ تَوْلَبٍ ،قال النمر :

---

(١) الكهر : الزجر والردع. والزبر :الرمى بما فى اليد من حجر ونحوه

(٢) ابو عمرو بن العلاء : هو امام أهل البصرة فى النحو واللغة والقراءآت . وهو آحد القراء السبعة المشهورين . أحذ عن جماعة من التابعين وقرأ القرآن على سعيد بن جبير ومجاهد ، وروىعن أنس بن مالك وأبى صالح السمان وعطاء وغيرهم مدحه الفرزدق ووثقه يحي بن معين . وكان صدوقاثقة حجة . قال ابو عبيدة : ابو عمرو أعلم الناس بالقراءآت والعربية و أيام العرب والشعر . وكان من سادات العرب ووجوههم . قرأ عليه اليزيدى وعبدالله بن المبارك وغيرهما خلق كثير.وأخذ عنه الأدب ابو عبيدة والاصمعى وغيرهما مات سنة ١٥٩ ﻫ ٧٧٥ م

يُحِبُّ الفتَى طُولَ السَّلامةِ والغِنَى فَكَيفَ تَرَى طُولَ السّلامةِ يَفعَلُ؟

وقال أَبُو العَتَاهِيَة : أَسرَعَ في نَقْضِ أَمرٍ تَمَامُهُ

ذهب إلى كلام الأول : كلّ ما أقام شَخص ، وكلّ ما ازداد نَقص، ولو كان الناس يُميتهم الداء إذاً لأعاشهم الدواء .

وقال الثانى من الرواة الثلاثة : بل قول أبي خراش الهذلى :(١)

نُوَكّلُ بالأَدْنَى وإِنْ جَلّ مايَمْضِي

وقال الثالث: بل قول أبى ذُؤَيب الهذلى :

وإِذا تُرَدُّ إِلى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

فقال قائل : هذا من مفاخر هُذَيل أن يكون ثلاثة من الرواة لم يصيبوا فى جميع أشعار العرب إلا ثلاثة أنصاف ، إثنان منها لِهُذَيل وحدها . فقيل لهذا القائل: إنما كان الشرط أن يأتوا بثلاثة أنصاف مستغنيات بأنفسها . والنصف الذى لأبى ذؤيب لا يستغنى بنفسه ، ولا يفهم السامع معنى هذا النصف حتى يكون موصولا بالنصف الاول ، لانك إذا أنشدت رجلا لم يسمع بالنصف الاول وسمع « وإذا تُرد إلى قليل تقنعُ » قال : ومن هذه التي تُرد الى قليل فتقنع ؟ وليس المضمن كالمطلق . وليس هذا النصف مما رواه هذا العالم، و إنما الرواية قوله :

والدّهرُ لَيْسَ بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ

---

(١) ابو خراش الهذلى : هو خويلد بن مرة من شعراء هذيل المذكورين ، وفصائحهم المعروفين، أدرك الجاهلية والاسلام فأسلم .وكان من العدائين الذين يسبقون الخيل على أرجلهم . نهشته أفعى فمات في خلافة عمر بن الخطاب . وهذا الشطر من قصيدة يرثى بها أخاه عروة ويذكر خلاص ولده خراش :

حمدت الهى بعد عروة إذ نجا خراش وبعض الشر أهون من بعض
فوالله لا أنسى قتيلا رزئته بجانب قوسى ماحييت على الارض
بلى إنها تعفو الكلام وإنما نوكل بالأدنى وإن جل مايمضى
ولم أدر من ألقى عليه رداءه ولكنه قد سل عن ماجد محض

ومما مدحوا به الايجاز ، والـكلام الذى كالوحى والاشارة ، قول أبى دؤاد بن جرير الايادى :

يَرْمُونَ بِالخُطَبِ الطِّوَالِ وَتارَةً　　وَحْيَ المَلاَحِظِ خِيفَةَ الرُّقَبَاءِ

فدح كما ترى الاطالة فى موضعها ، والحذف فى موضعه

ومما يدل على شغفهم وكلفهم وشدة حبهم للفهم والافهام قول الاسـدى فى صفة كلام رجل نعت له موضعا من تلك السباسب التى لا أمارة فيها باقل اللفظ وأوجزه، فوصف إيجاز الناعت وسرعة فهم المنعوت له فقال :

بِضَرْبَةِ نَعْتٍ لَمْ تُعَـدْ غَـيْرَ أَنَّنِى　　عَقُولٌ لأَوْصَافِ الرِّجَالِ ذَكُورُها

وهو كقولهم لابن عباس : أنى لك هذا العلم ؟ قال: قلب عقول، ولسان سؤول وقد قال الراجز :

ومَهْمَهَيْنِ فَدْفَدَيْنِ مَرْتَيْنِ　　جُبْتُهما بالنعْتِ لا بالنَّعْتَيْنِ

وقالوا فى التحـذير من ميسم الشعر ، ومن شدة وقع اللسان ، ومن بقاء أثره على الممدوح والمهجوّ . قال امرؤ القيس بن حُجْر :

ولَوْ عَنْ نَثَا غَيرِهِ جاءَنِي　　وجُرْحُ اللِّسانِ كَجُرْحِ الْيَدِ (١)

وقال طَرَفَةُ :

بِحُسَامِ سَيْفِكَ أَوْ لِسَانِكَ وَالْ　　كَلِمُ الأَصيلُ كَأَرْغبِ الْكَلْمِ (٢)

قال وأنشدنى محمد بن زياد :

لَحوْتُ شَمَّاساً كما تُلْحَى الْعِصِيّ　　سَبًّا لَوْ أَنَّ السَّبَّ يُدْمِى لَدَمِى (٣)

مِنْ نَفَرٍ كُلُّهُمُ نِكْسٌ دَنِىّ　　مَحامِدُ الرَّذْلِ مَثَالِبُ السَّرِىّ (٤)

---

(١) النثا : الحديث عن الغير . (٢) كارغب الـكلم : أى أن من الـكلام ما يجرح جرحا هو أوسع من جرح السيف أو السنان

(٣) لحوته : قشرته ، أى كشفت المستور منه يسبى له (٤) نكس دنى : نذل لا خير فيه . وهو موضع حمد الارازل ، ومهبط لعنات السراة والأماثل

مَخَابِطُ الْعِكْمِ مَوَادِيعُ الْمُطَىّ   مَتارِكُ الرَّفِيقِ بِالخَرْقِ النَّطِىّ

وانشد محمد بن زياد :

تَمَنَّى أبو العفَّاقِ عِنْدِى هَجْمَةً   تُسَهِّلُ مأْوَى لَيْلِهَا بالْـكَلَاكِلِ

ولاعَقْلَ عِنْدِى غَيْرُ طَعْنٍ نوافِذٍ   وضَرْبٍ كأشْدَاقِ الفِصالِ الْهَوَادِلِ

وَسَبٍّ يَوَدُّ المَرْءُ لَوْ مَاتَ قَبْلَهُ   كَصَدْعِ الصَّفا فَلَّقْتَهُ بالمَعَاوِلِ

الهَـجْـمة: القطعة من النوق فيها فحل . والـكلـكل : الصدر . والفصال : جمع فصيل ، والفصيل ولد الناقة إذا فصل عنها . والهوادل: العظام المشافر . والعقل ها هنا الدية. والعاقلة: أهل القاتل الادنونَ والابعدونَ . والصفا: جمع صفاة وهي الصخرة

وقال طرفة :

رَايْتُ الْقَوَافِي يَتَّلِجْنَ مَوَالِجاً   تَضَايَقُ عنْهَا أنْ تَوَلَّجهَا الإِبَرْ

وقال الأخطل (١)

حَتَّى أقَرُّوا وهُمْ مِنِّى على مَضَضٍ   والقَوْلُ يَنْفذُ مالا تَنْفُذُ الإِبَرُ

وقال العُمانى:

إِذ هُنَّ في الرَّيْطِ وفي الْمَوَادِعِ   تَرْمِى اليَهِنَّ كَبِذْرِ الزَّارِعِ

الرَّيط : الثياب واحدها ريطة ، والريطة كلُّ ملاءةٍ لم تكن لفقين . والحلة لا تكون إلا ثوبين . والموادع : الثياب التى تصون غيرها ، واحدها ميدعة

وقالوا : الحرب أولها شكوى ، وأوسطها نجوى، وآخرها بلوى . وكتب نصر ابن سيار الى ابن هُبَيْرَةَ أيام تحرك أمير السواد بخراسان :

---

(١) الأخطل : هو غياث بن غوث، يكنى أبا مالك، شاعر فحل من أكابر شعراء الاسلام ينازع جريراً والفرزدق التقدم والتفوق ، وقد فضله كثير فى العلماء بالشعر عليهما . وكان نصرانيا هاجى جريرا والفرزدق وغيرهما من الشعراء . وهو شاعر بنى أمية بلا منازع ، وهذا من قصيدة له طويلة مطلعها :

خف القطين فراحوا منك أو بكروا   وازعجتهم نوى فى صرفها غير

مدح فيها عبد الملك بن مروان و بنى امية وهجا قيسا . وهى من أجود شعره ولد بالجزيرة سنة ٢٠ هـ ٦٤٠ م وتوفى سنة ٩٢ هـ ٧٤٠ م

أرَى خَلَلَ الرَّمادِ وَميضَ جَمْرٍ فيُوشكُ أن يكونَ لهُ اضطِرامُ
فانَّ النَّارَ بالعُودَيْنِ تُذكي وانَّ الحربَ أوّلُها كلامُ
فقُلتُ منَ التَّعجُّبِ: ليتَ شِعْرِي أأيقاظٌ أُميَّةُ أمْ نِيامُ
فَانْ كَانُوا لحِينِهِمُ نِياماً فقُلْ قُومُوا فقَدْ حَانَ القِيامُ

وقال بعض المولدين :

إذا نِلتُ العَطيةَ بَعدَ مَطلٍ فلا كانَت، وإنْ كانَتْ جَزيلهْ
وَسقياً لِلعَطيةِ ثمَّ سقْياً إذا سَهُلَتْ، وإنْ كانتْ قَليله
وللشُّعَراءِ ألسِنةٌ حِدَادٌ عَلى العَوْرَاتِ مُوفِيَةٌ دَليلهْ
ومنْ عقلِ الكَريمِ إذا اتَّقاهُمْ وداراهُم مُداراةً جَميلهْ
إذا وَضَعُوا مكاذِبَهُمْ عَليهِ وإنْ كَذَبُوا فَليسَ لَهنَّ حِيله

وقالوا : مذاكرة الرجال تلقيح لألبابها . ومما قالوا فى صفة اللسان قول الاسدى، أنشدنيها ابنُ الاعرابى:

وأصبَحْتُ أعدَدْتُ للنَّائِبَاتِ عِرضاً بَريئاً وَعَضْباً صَقيلا
ووقعَ لِسانٍ كحَدِّ السِّنانِ وَرُمْحاً طويلَ القَناةِ عَسُولا

وقال الاعشى :

أُدافعُ عَنْ أعْرَاضِكم وأُعيرُكُم لِساناً كمِقْرَاضِ الخفاجِيِّ مِلحباً

الملحب : القاطع .

وقال ابنُ هرمة :

قُلْ للذِي ظلَّ ذا لوْنَيْنِ يا كُلُني لقدْ خَلوْتَ بلحمٍ عارِمِ البَشَمِ
إيَّاكَ لاَ أَلزِمَنْ لَحيَيْكَ مِنْ لُجُمٍ نِكْلاً يُنَكِّلُ قرّاصاً مِنَ اللجُمِ

إنّي امرُؤٌ لاَ أصُوغُ الحَلْيَ تَعْمَلُهُ كَفَّايَ لَكِنْ لِسَانِي صَائغُ الكَلِمِ

وقال الراجز :

إِنِّي بَغَيْتُ الشِّعْرَ وابْتَغانِي حَتَّى وَجَدْتُ الشِّعْرَ في مَكانِي

في عَيْبَةٍ مِفْتَاحُهَا لِسانِي

وأنشد :

إِنِي وإِنْ كانَ إِزَارِي خَلَقَا وَبُرْدَتَايَ سَمَلًا قد أَخْلِقَا

قَدْ جَعَلَ اللهُ لِسَانِي مُطْلَقَاً

بسم الله الرحمن الرحيم

قال أبو عثمان: والعتَّابي (١) حين زعم : أن كل من أفهمك حاجته فهو بليغ ، لم يعن أن كل من أفهمنا من معاشر المولدين والبلديين قصدَه ومعناه بالكلام الملحون ، والمعدول عن جهته ، والمصروف من حقه ، أنه محكوم له بالبلاغة كيف كان ، بعد أن نكون قد فهمنا عنه معنى كلام النبطى الذى قيل له : لم اشتريت هذه الاتان ؟ قال : أركبها وتَلَدَلى ، وقد علمنا أن معناه كان صحيحا . وقدفهمنا قول الشيخ الفارسي

---

(١) العتابى: هو كلثوم بن عمرو التغلبي شاعر مطبوع ، وكاتب بليغ ، وخطيب مفوه . كان من شعراء الدولة العباسية ومن متقدميهم ، وكان منقطعا الى البرامكة فوصفوه للرشيد ووصلوه به فبلغ عنده كل مبلغ ، وعظمت منه فوائده . قيل أنه جاء وهو حدث الى بشار فانشده :

أتصدف عن أمامة أم تقيم وعهدك بالصبا عهد قديم
أقول لمستطار القلب عنى على عزماته السير العديم
أما يكفيك ان دموع عينى شآبيب يفيض بها الهموم
اشيم فلا ارد الطرف الا على ارجائه ماء سجوم

فمد بشار يده اليه ثم قال له : انت بصير؟ قال : نعم. قال : عجباً لبصير ان يقول هذا الشعر ؟

حين قال لاهل مجلسه : ما من شر من دين . و إنه قال حين قيل له : ولم ذاك يا أبا فلان ؟ قال : من جرى يتعلقون . وما نشك أنه قد ذهب مذهبا . وانه كما قال معنى قول أبى الجهير الخرسانى النخاس حين قال له الحجاج :أتبيع الدواب المعيبة من جند السلطان ؟ قال : شريكاتنا فى هوازها وشريكاتنا فى مداينها وكما تجىء تكون . قال الحجاج : ما تقول و يلك ؟ فقال بعض من قد كان اعتاد سماع الخطأ وكلام العلوج بالعربية حتى صار يفهم مثل ذلك : يقول شركاؤنا بالاهواز والمدائن يبعثون الينا بهذه الدواب فنحن نبيعها على وجوهها . وقلت لخادم لى : فى أى صناعة أسلم هذا الغلام ؟ قال : أصحاب سند نعال . يريد : فى أصحاب النعال السندية وكذلك قول الكاتب المغلاق للكاتب الذى دونه : اكتب لى قل حطين وريحنى منه .

فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل جعل الفصاحة واللكنة والخطأ والصواب والاغلاق والابانة والملحون والمعرب كله سواء وكله بيانا. وكيف يكون ذلك كله بيانا ولولا طول مخالطة السامع للعجم وسماعه للفاسد من الكلام لما عرفه ؟ ونحن لم نفهم عنه الا للنقص الذى فينا . وأهل هذه اللغة وأرباب هذا البيان لا يستدلون على معانى هؤلاء بكلامهم كما لا يعرفون رطانة الرومى والصقلبى. وان كان هذا الاسم انما يستحقونه بأنا نفهم عنهم كثيراً من حوائجهم فنحن قد نفهم من حمحمة الفرس كثيراً من حاجاته، ونفهم بضغاء السنّور كثيراً من ارادته . وكذلك الكلب والحمار والصبي الرضيع ، وانما عنى العتّابى إفهامك العرب حاجتك على مجرى كلام الفصحاء . وأصحاب هذه اللغة لا يفقهون قول القائل منا :

« مُكْرَهٌ أخاكَ لا بَطَلْ » و « إِذا عَزَّ أخاكَ فهُن »

ومن لم يفهم هذا لم يفهم قولهم : ذهبت الى أبو زيد .ورأيت أبى عمرو. ومتى وجد النحويون أعرابياً يفهم هذا وأشباهه بهرجوه (١) ولم يسمعوا منه ، لأن ذلك يدل على طول إقامته فى الدار التى تُفسد اللغة وتنقص البيان. لأن تلك اللغة انما انقادت واستوت واطردت وتكاملت بالخصال التى اجتمعت لها فى تلك الجزيرة وفى تلك الجيرة . ولفقد الخطأ من جميع الامم . ولقد كان بين يزيد بن كثوة يوم قدم علينا البصرة وبينه يوم مات بون بعيد . على أنه قد كان وضع منزله فى آخر موضع الفصاحة وأول موضع العُجمة . وكان لا ينفك من رواة ومذاكرين .

(١) بهرجوه : زيفوه

وزعم أصحابنا البصريون عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال . لم أر قرويين أفصح من الحسن(١) والحجاج . وكان مازعموا لايبرئهما من اللحن .وزعم أبوالعاصي أنه لم ير قروياً قط لايلحن في حديثه وفيما يجرى بينه وبين الناس إلا ماتفقده من أبي زيد النحوى(٢) ومن أبي سعيد المعلم .

وقد روى أصحابنا أن رجلا من البلديين قال لاعرابي . كيف أهلِك ؟ قالها بكسر اللام ، قال : صَلباً . لأنه أجابه على فهمه ، ولم يعلم أنه أراد المسألة عن أهله وعياله .وسمعت ابن بشير ،وقال له المفضل العنبرى : انى عثرت البارحة بكتاب وقد التقطته وهوعندى، وقد ذكروا أن فيه شعراً ،فان أردته وهبته لك ـ قال ابن بشير : اريده ان كان مقيداً . قال : والله ماأدرى أكان مقيداً أو مغلولا! ولوعرف التقييد

---

(١) الحسن : هو أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن البصرى . كان بارع الفصاحة ، بليغ المواعظ ، كثير العلم . وكان أبوه يسمى يسار من أهل ميسان مولى لزيد بن ثابت الانصارى وكانت أمه خيرة مملوكة لأم سلمة زوج النبي ﷺ وكان ربما بكى فأعطته ثديها . ومن كلامه ، وقد تلا يوماً « إنا عرضنا الأمانة على السموات والارض والجبال » إن قوماً غنوا فى المطارف العتاق،والعمائم الرقاق ، يطلبون الإمارات ، ويضيعون الأمانات ، يتعرضون للبلاء وهم منه فى عافية ، حتى اذا أخافوا من فوقهم من أهل العفة،وظلموا من تحتهم من أهل الذمة، أهزلوا دينهم ، وأسمنوا براذينهم ، ووسعوا دورهم ، وضيقوا قبورهم ، ألم ترهم قد جددوا الثياب وأخلقوا الدين ؟ تبكى يمين أحدهم على شماله ، ويأكل من غير ماله ، طعامه غصب ،وخدمته سخرة ، يدعو بحلو بعد حامض ، وبحار بعد بارد ،وبرطب بعد يابس : حتى اذا أخذته الكظة تجشأ من البشم ثم قال :ياجاريه ،هاتى حاطوماً ، يعنى هاضوماً يهضم الطعام ، يا أحمق ، لا والله لن تهضم إلا دينك ، أين جارك ؟ أين يتيمك ؟ أين مسكينك ؟ أين ما أوصاك الله به ؟ . وله مواعظ كثيرة آية فى البلاغة والاعتبار . وهو من سادات التابعين وأعيانهم ولد بالبصرة سنة ٢١ هـ ٦٤١ م وتوفى بالبصرة سنة ١١٠ هـ ٧٢٨ م (٢) أبو زيد : هو سعيد بن أوس الانصارى كان أماما فى النحو والأدب واللغة والنوادر والغريب ، وكان حجة ثقة . أخذ عن أبي العباس المفضل بن محمد الضبي. قال أبو عثمان المازنى : رأيت الاصمعى جاء الى حلقة أبي زيد فقبل رأسه وجلس بين يديه وقال : أنت سيدنا ورئيسنا منذ خمسين سنة . وله تصانيف كثيرة ولد سنة ١٢٢ هـ ٧٣٩ م وتوفى سنة ٢١٥ هـ ٨٣٠ م

لم يلتفت الى روايته . وحكى الكسائى (١) أنه قال لغلام بالبادية : من خلقْك ؟ وجزم القاف ـ فلم يدر ماقال ولم يجبه . فرد عليه السؤال . فقال الغلام : لعلك تريد من خَلَقَكَ ؟ وكان بعض الاعراب اذا سمع رجلا يقول : نعم . فى الجواب . قال: نعم وشاء . لأن لغته « نِعم » وقيل لعمر بن لجاء : قل « إنّا مِنَ المجْرِمُونَ منتقمين » ؟ قال « إنا من المجرمين منتقمون » وأنشد الكسائى كلاماً دار بينه وبين بعض فتيان البادية فقال :

عَجَباً مَا عَجَبٌ أعْجَبَنِي مِنْ غُلَامٍ حكَمِيٍّ أُصُلاَ

قُلْتُ هَلْ أحْسَسْتَ ركباً نَزَلوا حِضناً مادُونَهُ ؟ قال : هلاَ

قلتُ بيِّنْ ماهلاء هلْ نَزَلوا ؟ قال : حُوبا . ثُمَّ ولّى عَجِلا

لستُ أدْرى عِنْدَهَا ما قال لِى أنعَمْ ماقال لى ؟ أم قال : لاَ

تِلكَ مِنْهُ لُغَةٌ تُعْجِبُنى زادَتِ الْقَلْبَ خَبالا خبَلا

قال أبو الحسن: قال مولى زياد لزياد : أهدوا لنا هِمار وهش. قال : أى شيء تقول ويلك ؟ قال : أهدوا لنا أيْراً ، يريد أهدوا لنا عيرا . قال زياد : ويلك الاول خير . وقال الشاعر يذكر جارية له لكناء :

أوَّلُ مَا أسْمَعُ مِنْهَا فِي السَّحَرْ تَذْكِيرُهَا الأُنْثَى وَتأْنِيثُ الذَّكَرْ

والسَّوْأةُ السَّوْآءُ في ذِكْرِ الْقَمر

فزياد قد فهم عن مولاه، وصاحب الجارية قد فهم عن جاريته . ولكنهما لم يفهما عنهما من إفهامها لها . ولكنهما لما طال مقامهما فى الموضع الذى يكثر فيه سماعهما لهذا الضرب صارا يفهمان هذا الضرب من الكلام

---

(١) الكسائى : هو على بن حمزة الشهير بالكسائى إمام الكوفيين فى النحو واللغة وأحد القراء السبعة المشهورين . قال ابن الاعرابى : كان الكسائى أعلم الناس بالفقه ضابطاً عالماً بالعربية قارئاً صدوقاً الا إنه كان يديم شرب النبيذ وغيره . مات بالرى سنة ١٩٢ هـ ٨٠٧ م

﴿ ذكر ماقالوا فى مديح اللسان بالشعر الموزون واللفظ المنثور ﴾

(ماجاء في الأثر وصح به الخبر)

قال الشاعر:

أرى النّاس في الأخلاق أهل تخلّقٍ   وأخبارهم شتّى فعُرفٌ ومُنكرُ
قريباً تدانيهم إذا ما رأيتهم   ومختلفاً ما بينهم حين تخبُرُ
فلا تحمدنّ الدّهر ظاهر صفحةٍ   من المرء مالم تبلُ ما ليس يظهرُ
فما المرءُ إلا الأصغران لسانُهُ   ومعقولهُ والجسمُ خلقٌ مصوّرُ
وما الزّينُ في ثوبٍ تراهُ وإنما   يزينُ الفتى مخبورُهُ حين يُخبرُ
فانْ طُرّةٌ راقتكَ منهُمْ فرُبما   أمرَّ مذاقُ العود والعودُ أخضرُ

وقال سويد بنُ أبي كاهل (١) في ذلك:

ودعتني برُقاها انهــا   تُنْزِلُ الأعصمَ مِنْ رأسِ اليفعَ (٢)
تُسمعُ الحُدّاثَ قولاً حسناً   لوْ أرادوا غيرهُ لمْ يُستطعْ
ولِساناً صيرفيّاً صارماً   كحُسامِ السّيفِ ما مسّ قطعْ

وقال جرير: (٣)

---

(١) سويد بن أبي كاهل اليشكرى: شاعر متقدم من مخضرمى الشعراء فى الجاهلية والاسلام. وهذه الابيات من قصيدته البارعة التى قال فيها الأصمعى: كانت العرب تفضلها وتعدها من حكمها، وكانت تسميها فى الجاهلية «اليتيمة» وهى مثبتة كاملة بالمفضليات ومشروحة بقلمنا، فمن شاءها فليرجع اليها

(٢) الاعصم: صفة من صفات الظباء والوعول. اليفع: المكان المرتفع

(٣) جرير: هو جرير بن عطية بن الخطفى اليربوعى يكنى أبا حزرة، وهو والفرزدق والاخطل المقدمون على شعراء الاسلام، وكان جرير اكثرهم فنون شعر، وأسهلهم ألفاظا، واقلهم تكلفها، وأرقهم نسيباً، وأسيرهم شعراً، مع عفة ودين.

وليسَ لِسيَفي في العِظامِ بَقيّةٌ ولا السَّيفُ أشوَى وَقْعةً من لسانيا

وقال الآخر:

وَجرْحُ السَّيفِ تدمُلهُ فيبرَى ويَبقي الدَّهرَ ما جرَحَ اللِّسَانُ

وقال الآخر:

أبا ضبيعةَ لاَ تعجَلْ بسَيِّئةٍ الى ابنِ عمِّكَ واذ كُرْهُ باحسان
إمَّا ترَانى وَأثوَابي مقاربة ليست بخز ولا من نسج كتَّانِ
فانَّ فى المَجْدِ همَّاتي وفى لغَتى عُلْوِيَّةٌ وَلساني غيرُ لحَّان

وفيما مدحوا به الاعرابيّ اذا كان أديباً انشدنى ابنُ أبى خُزيمة واسمه أسود:

ألا زَعَمَتْ عفْرَاء بالشَّامِ أنَّني غُلامُ جوَارٍ لا غُلامُ حرُوبِ
وإنّى لأَهدَى بالأَوَانسِ كالدُّمَى وإنّى بأطرَافِ القَنَا لَلَعُوبُ
واني على ما كانَ من عُجْهيّتي وَلوْثَةِ أعْرَابيَّتى لاديبُ

وقال ابنُ هرْمةَ:

للهِ دَرُّكَ منْ فتًى فَجعَت بهِ يَوْمَ البَقيعِ حوَادِثُ الأيَّامِ
هَشٌّ إذا نزَلَ الوفود ببابهِ سهْلُ الحِجابِ مودَّبُ الخدَّامِ
فذ رأيتَ شقيقَه وصَديقَه لَمْ تدرِ أيُّهما أخو الأرحامِ

وقال كَعْبُ بنْ سَعْد الغنَوى:

حَبيبٌ الي الزُّوَّار غِشيانُ بيتهِ جَميلُ المحيَّا شبَّ وَهوَ أديب

قل الاصمعي: كان ينهش جريراً ثلاثة وأربعون شاعراً فينبذهم وراء ظهره ويرمى بهم واحدا واحداء ومنهم من كان ينفحه فيرمى به وثبت له الفرزدق والاخطل.

كانت ولادة جرير سنة ٢٩ هـ ٦٤٩ م. وتوفى بعد الفرزدق سنة. وكانت وفاته باليمامة سنة ١١١ هـ ٧٢٩ م

اذا ما تراآهُ الرّجال تحفّظوا فلمْ تنطقِ العوْراء وهْوَ قريب

وقال الحارثى :

وتعلم أنّى ماجدٌ وتزوعُها بقيةُ أعرابيةٍ فى مُهاجر

وقال الآخر :

وانّ امرأً فى النّاسِ يُعطى ظُلامةً ويُمنَعُ نصفَ الْحقّ منه لَراضِع

أ ألموتَ يخشَى أثكلَ اللهُ أمَّهُ أمِ الْعيْشَ يرْجو نفعَه وهوَ ضائع

ويطعَم مالَمْ ينْدفِعْ في مَريئِهِ ويَمْسحُ أعْلَى بَطْنِهِ وهوَ جائعُ

وإنّ العُقولَ فاعْلَمَنَّ أَسنَّةٌ حِدادُ النواحِي أرْهفَتْها المواقعُ

ويقول : كأن لسانه لسان ثور. وحدثنى من سمع أعرابياً مدح رجلا برقة اللسان فقال : كان والله لسانه أرق من ورقة، وألين من سرقة. وقال النبى ﷺ لحسان بن ثابت : ما بقى من لسانك ؟ فاخرج لسانه حتى ضرب بطرفه أرنبته ثم قال : والله ما يسرنى به مقول من معد ، والله لو وضعته على صخر لفلقه، أو على شعر لحلقه . قال: وسمعت أعرابياً يصف لسان رجل فقال : كان يشول بلسانه شولان البروق، ويتخلل به تخلل الحية . وأظن هذا الاعرابى أبا وجيه العكلى

يشول : يرفع . البروق: الناقة اذا طابت الفحل فانها حينئذ ترفع ذنبها . وانما سمى شوّال شوّالا لان النوق شالت باذنابها فيه . فان قال قائل : قد يتفق أن يكون شوّال فى وقت لا تشول الناقة بذنبها فيه فلم بقى هذا الاسم عليه وقد ينتقل ماله لزم عنه ؟ قيل له : إنما جعل هذا الاسم له سمة حيث اتفق أن شالت النوق باذنابها فيه فبقى عليه كالسمة ، وكذلك رمضان إنما سمى لرمض الماء فيه ، وان كان قد يتفق هذا الاسم فى وقت البرد والحر

ووصف أعرابى رجلا فقال : أتيناه فاخرج لسانه كأنه مخراق لاعب . وقال العباس بن عبد المطلب للنبى ﷺ : يارسول الله ، فيم الجمال ؟ قال: فى اللسان . وكان مجاشع بن درام خطيبا سليطا ، وكان نهشل بكيئاً منزوراً ، فلما خرجا من عند بعض الملوك عذله مجاشع فى تركه الكلام. فقال له نهشل: انى والله لاأحسن تكذابك ولا تأثامك ، تشول بلسانك شولان البروق .

وقالوا : على جميع الخلق مرتبة الملائكة ، ثم الانس، ثم الجن . وأنما صار لهؤلاء المزية على جميع الخلق بالعقل ، وبالاستطاعة على التصرف ، وبالمنطق .

وقال خالد بن صفوان : ما الانسان لولا اللسان الا صورة ممثلة ، أو بهيمة مهملة.

وقال رجل لخالد بن صفوان : مالى اذا رأيتكم تتذاكرون الاخبار ، وتتدارسون الآثار ، وتتناشدون الاشعار ، وقع عليَّ النوم؟ قال : لانك حمار فى مسلاخ انسان .

وقال صاحب المنطق : حد الانسان الحى الناطق المبين . وقال الاعور الشنى (١)

وكائِنْ تَرَى مِنْ صامِتٍ لكَ مُعْجَبٍ ... زِيَادَتُهُ أَوْ نَقْصُهُ فى التَّكلمِ

لِسانُ الفَتَى نِصفٌ ونِصفٌ فؤادُهُ ... فَلَمْ تَبْقَ الا صُورَةُ اللحْمِ والدَّمِ

ولما دخل ضمرة بن ضمرة على النعمان بن المنذر زرى عليه للذى رأى من دمامته وقصره وقلته فقال النعمان : تسمع بالْمُعَيْديِّ لا أن تراه . فقال : أبيت اللعن ، ان الرجال لا تكال بالقفزان، ولا توزن بميزان ، وليست بمسوك يستقى بها ، وانما المرء بأصغريه بقلبه ولسانه ، ان صال صال بجنان ، وان قال قال ببيان .

واليمانية تجعل هذا للصقعب النهدى ، فان كان ذلك كذلك فقد أقروا أن نهداً من معد .

وكان يقال : عقل المرء مدفون بلسانه

﴿ باب فى ذكر اللسان ﴾

أبو الحسن قال : قال الحسن : لسان العاقل من وراء قلبه ، فاذا أراد الكلام تفكر ، فان كان له قال ، وان كان عليه سكت . وقلب الجاهل من وراء لسانه ، فان هم بالكلام تكلم به له أو عليه

قال ابو عبيدة ، قال أبو الوجيه : حدثنى الفرزدق (٢) قال : كنا فى ضيافه

---

(١) هذان البيتان يرويان لزهير بن أبى سلمى وهما ضمن معلقته . ويظهر أن هذا من خلط الرواة وعبثهم

(٢) الفرزدق : هو همام بن غالب بن صعصعة التميمى، ويكنى أبا فراس ، وهو وجرير والاخطل الذين ذهبوا بالتقدم على شعراء الاسلام ، وكان شاعراً فخم العبارة

معاوية بن أبى سفيان ومعنا كعب بن جعيل التغلبي فقال له يزيد : ان ابن حسان. ـ يريد عبد الرحمن ـ قد فضحنا فاهج الانصار . قال: أرادى أنت الى الاشراك بعد الاسلام ؟ لا أهجو قوما نصروا رسول الله ﷺ ولكنى أدلك على غلام منا نصرانى كأن لسانه لسان ثور : يعنى الاخطل

وقال سعد بن أبى وقاص لعمر ابنه ـ حين نطق مع القوم فبذهم وقد كانوا كلموه فى الرضا عنه :ـ هذا الذى أغضبنى عليه أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول « يكون قوم يأكلون الدنيا بألسنهم كما تلحس الارض البقرة بلسانها » .

وقال معاوية لعمرو بن العاص : يا عمرو ان أهل العراق قد أكرهوا عليا على أبى موسى ، وأنا وأهل الشام راضون بك ، وقد ضم اليك رجل طويل اللسان قصير الرأى ، فأجد الحز وطبق المفصل ، ولا تلقه برأيك كله

والعجب من قول ابن الزبير الاعرآب : سلاحكم رث ، وحديثكم غث؟ وكيف يكون هذا وقد ذكروا أنه أحسن الناس حديثا وأن أبا نضرة وعبد الله بن أبى بكر انما كانا يحكيانه، فلا ادرى الا ان يكون حسن حديثه هو الذى القى الحسد بينه وبين كل حسن الحديث.

وقد ذكروا ان خالد بن صفوان تكلم فى بعض الامر فأجابه رجل من أهل المدينة بكلام لم يظن خالد أن الكلام كان عنده فلما طال بهما المجلس كان خالد عرض له (١) ببعض الامر فقال المدنى : يا أبا صفوان ، ما من ذنب الا اتفاق الصناعتين . ذكر ذلك الاصمعى . قال فضال الازرق ، قال رجل من بنى منقر : تكلم خالد بن صفوان فى صلح بكلام لم يسمع الناس قبله مثله ، واذا اعرابى فى بت (٢) ما فى رجليه حذاء ، فاجابه بكلام وددت والله أنى كنت مت وأن ذلك

شديد أسر الكلام ، جيد الاسلوب . وكانت بينه وبين جرير والاخطل مناقضات ومنافرات ومنافسات واهاج . مات سنة ١١٠ هـ ٧٢٨ م ورثاه جرير بأبيات منها

فلا ولدت بعد الفرزدق حامل ولا ذات بعل من نفاس تعلت

هو الوافد الميمون والراتق الثأى اذا النعل يوما بالعشيرة زلت

(١) فى الأصل: أعرض، وليست بذلك ، والصواب: عرّض كما اثبتناه (٢) فى الاصل : بث ، ولا معنى للبث الذى هو الحزن الشديد ههنا، والصحيح انها : بت ، وهو طيلسان من خز أو نحوه أو هو قباء غليظ

لم يكن ، فلما رأى خالد ما نزل بى قال : كيف نجاريهم وانما نحكيهم ، وكيف نسابقهم وانما نجرى على ما سبق الينا من أعراقهم ؟ (١) وليفرخ روعك(٢) فانه من مقاعس ، ومقاعس لك . فقلت : يا أبا صفوان والله ما ألومك على الاولى ، ولا أدع حمدك على الاخرى

قال أبو اليقظان: قال عمر بن عبد العزيز : ما كلمنى رجل من بنى أسد الا تمنيت أن يمد له فى حجته حتى يكثر كلامه فأسمعه

وقال يونس : ليس فى بنى أسد الا خطيب ، أو شاعر ، أو قائف، أو زاجر ، أو كاهن ، أو فارس . قال : وليس في هذيل الا شاعر ، أو رام ، أو شديد العدو

التّرْجمَانُ بنُ هُرَيْمِ بن عدى بن أبى طحمة قال : دعى رقبة بن مصقلة ــ أو كرب بن رقبة ــ الى مجلس ليتكلم فيه فرأى مكان أعرابى في شملة فانكر موضعه فسال الذى عن يمينه عنه فخبره أنه الذى أعدوه لجوابه، فنهض مسرعا لا يلوى على شيء كراهة أن يجمع بين الديباجتين فيتضع عند الجميع .

وقال خلاد بن يزيد : لم يكن أحد بعد أبى نضرة أحسن حديثا من مسلم بن قتيبة قال: وكان يزيد بن عمر بن هبيرة يقول : احذفوا الحديث كما يحذفه مسلم بن قتيبة

ويزعمون أنه لم يروا محدثاً قط صاحب آثار كان أجود حذفا وأحسن اختصارا للحديث من سفيان بن عيينة ، سالوه مرة عن قول طاوس في زكاة الجراد فقال ابنه عنه ، زكاته أخذه

(وباب آخر) وكانوا يمدحون شدة العارضة ، وقوة المسنة ، وظهور الحجة وثبات الجنان ، وكثرة الريق ، والعلو عن الخصم . ويهجون بخلاف ذلك قال الشاعر :

طَباقاءُ لم يَشْهَدْ خُصوماً ولم يَعِشْ   حَميداً ولم يَشهدْ حلالا ولا عِطْرا

قال ابو زبيد الطائى (٣)

وخَطيبٍ إذا تَموت الأوْ   جه يَوْماً فى مأقط مَشْهود

طباقاء : يقال للبعير إذا لم يحسن الضراب جمل عياياه ، وجمل طباقاء ، وهو هنا للرجل الذى لا يتجه للحجة . الحلال : الجماعات ، و يقال : حى حلال، اذا كانوا

---

(١) أعراقهم : اصولهم (٢) ليفرخ روعك : ليهدأ بالك ولتطمئن نفسك
(٣) فى الاصل : ابو زيد وليس كذلك ،والصحيح انه ابو زبيد الطائى . وابو

متجاورين مقيمين . والعطر ها هنا : الحرس . المأقط : الموضع الضيق ، والمأقط : الموضع الذى يقتتل فيه

وقال نافعُ بن خليفةَ الغنويُّ :

وخَصْمٍ لَدَى بابِ الأميرِ كأنَّهمْ قُرومٌ فَشَافِيها الزَّوائِرِ والهَدْر

القروم : الجمال المصاعب . الزوائر : الذين يزأرون . الهدر : صوته عند هيجه، ويقال له : الهديرُ

دَلَفْتُ لَهمْ دونَ المُنَى بِمِلِمّةٍ من الدُّرّ فى أعقَابِ دُرَّتِها شَذْر

دَ لفت : دنوت

إِذَا القومُ قالوا : أَدْنِ مِنها وَجَدْتَها مطَبِّقَةً يَهْماءَ لَيسَ لها خَصْر

قوله : أدنِ منها ، أى قللها واختصرها . وجدتها مطبقة : أى طبقتهم بالحجة. اليهماء : الارض التى لا يهتدى فيها الطريق ، ويهماء ها هنا يعنى التى لا يهتدى اليها ، ويضل الخصوم عندها . والأيهم من الرجال : الحائر الذى لا يهتدى لشيء، وأرض يهماءُ : اذا لم تكن فيها علامة

وقال الأسلع بن قطاف الطهوى :

فِداءٌ لِقوْمي كلُّ مَعْشَرِ جارِمٍ طَرِيدٍ ومَخذولٍ بما جرَّ مُسلَمْ

هُم أفْحَمُوا الخَصْمَ الذِى يَستَقْيِدني وَهُمْ فَصَموا حِجْلي وهم حَقَنوا دَمِى (١)

بأَيْدٍ يُفَرِّجْنَ المَضيقَ وألْسنٍ سِلَاطٍ وَجَمعٍ ذِي زُهاء عَرَمْرَمِ

اذَا شِئتَ لَمْ تَعدَم لدَى البَابِ مِنْهُم جَميلَ المُحيَّا وَاضِحاً غَيرَ توأمِ

التوأمان : الاخوان المولودان فى بطن .

وقال التَّميمى فى ذلك:

زبيد الطائى هو حرملة بن المنذر شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والاسلام ، ومات نصرانيا وكان لسنا فصيحا وصافا بليغا وهو الذى وصف الاسد فى حضرة عثمان عمر عمراً طويلا ومات فى عهد معاوية (١) حجلى : قيدى

أمَا رَأيْتَ الألْسُنَ السِّلاَطا وَالجاهَ وَالاقْدَامَ والنَّشاطا ؟

إنَّ النَّدَى حيثُ تَرَى الضِّغَاطا

ذهب فى البيت الأخير الى قول الشاعر :

يَسقُطُ الطَّيْرُ حَيْثُ يَنْتَثِرُ الْحَبُّ وتُغْشَى مَنَازِلُ الكُرَماءِ

والى قول الآخر :

يَرْفَضُّ عَنْ بَيْتِ الفَقِيرِ ضُيوفُهُ وتَرَى الغنِىَ يَهْدِى لَكَ الزُّوَّارا

وأنشد فى المعنى الأول :

وخَطِيبِ قَوْمٍ قَدَّمُوهُ أمَامَهمْ ثِقَةً بِهِ مُتَخَمِّطٍ تَيَّاحِ

جَاوَبْتُ خُطْبَتَهُ فَظَلَّ كأنَّهُ لَمّا خطَبتُ مُمَلَّحٌ بِمِلاَحِ

المتخمط : المتكبر مع غضب . التَّيَّاحُ والمُتيح : الذى يَعرض فى كل شيء، ويدخل فيما لا يعنيه . قوله مملح بملاح : أى منقبض كأنه ملح من الملح .

وأنشد أيضاً :

أرِقْتُ لِضَوْءِ بَرْقٍ فى نَشاص تَلألأَ فى مُمَلأَّةٍ غِصَاص

النشاص : السحاب الابيض المرتفع بعضه فوق بعض ، وليس بمنبسط. والتلألؤ : ظهور البرق فى سرعة . مُمَلأَّةٍ بالماء . غصاص : قد غُصت بالماء

لواقِحُ دُلَّحٌ بالماءِ سُحْمٌ تَمُجُّ الْغَيْثَ مِنْ خَلَلِ الْخَصاص

اللَّواقحُ : التى قد لقحت من الريح . والدُّلَّحُ : الدانية الظاهر المثقلة بالماء . سُحم : سود . الخصاص هاهنا خَللُ السحاب :

سَلِ الخُطَباءَ هَلْ سَبَحُوا كَسَبْحِي بُحُورَ الْقَوْلِ أو غَاصوا مَغاصِي

لِسَاني بالنَّثيرِ وبالْقَوَافِي وبالأسْجَاعِ أمْهَرُ في الغِوَاص

النثر : الكلام المنثور. القوافي : خواتم أبيات الشعر . الاسجاع : الكلام لمزدوج على غير وزن

مِنَ الحوتِ الذِي في لُجِّ بَحْرٍ يُجِيدُ الْغَوْصَ فى لُجَجِ المَنَاصِ
لَعَمْرُكَ إنَّنى لأُدِفُّ نَفْسى وأَسْتُر بِالتَّكَرُّمِ مِن خصاصِ

وأنشد لرجل من بنى ناشب بن سلامة بن سعد بن مالك بن ثعلبة :

لنَا قَمرُ السَّماء وكلُّ نَجْمٍ يُضِيء لَنا إِذَا الْقَمَرانِ غَارَا
ومَن يَفْخَر بِغَيرِ أَبِي نِزَارٍ فَليسَ بِأَوَّلِ الْخُطَباء جَارَا

وأنشد للاقرع :

إنّى امرُؤٌ لاَ أُقِيلُ الخصمَ عَثْرَتَهُ عِندَ الأَمِيرِ اذا ماخَصْمُهُ طَلَعا
ينير وَجْهِي إذَا جَدَّ الخِصامُ بِنا ووَجهُ خَصمِي تَرَاهُ الدَّهرَ مُلْتَفِعَا

وأنشد :

تَرَاه بِنَصْرِي فى الحفيظة وَاثِقاً وَإنْ صَدَّعَنى العَيْن مِنه وَحاجِبه
وَإنْ خَطَرَتْ أَيْدِى الكُماة وجَدَتَنى نَصوراً إذا ما اسْتَيْبَسَ الرِّيقَ عاصِبه

عاصبه : يابسه يعتصم به حتى يتم كلامه . الكُمَاة : جمع كَمِيٍّ ، والكَمِيُّ الرجل المُتَكَمِّي ، وهو المتكمى بالسلاح ، يعنى المتكفر به المستتر ، ويقال كَمَى الرجل شهادته يكميها إذا كتمها وسترها

وقال ابن أحمر ، وذكر الريق والاعتصام به :

هـذا الثَّناء وَأَجدِرْ أَنْ أُصَاحبه وَقَد يُدَوِّمُ رِيقَ الطَّامِعِ الأَمَلْ

وقال الزُبَيْرُ بنُ العَوَّامِ وهو يُرقص ابنه عروة :

أَبيضُ من آلِ أَبِي عَتِيقِ مبارَكٌ من وَلَدِ الصِّدّيقِ

أَلَذُّهُ كما أَلَذُّ رِيقِي

وقالت امرأةٌ من بني أسد :

أَلا بَكَرَ النَّاعِي بِخيرِ بَنِي أَسَد ... بِعمرِو بنِ مَسعُودٍ وبالسَّيِّدِ الصَّمد

فمَنْ كَانَ يَعيَا بِالجَوَابِ فإِنَّهُ ... أَبُو مَعقِلٍ لا حَجْرَ عنْهُ ولا صَدَدْ

أَثارُوا بِصَحْرَاءِ الثَّوِيَّةِ قَبْرَهُ ... وما كُنتُ أَخشى أَنْ تَنَاءَى بِهِ البَلَدْ

تنَاءَى: تبعد . الثَّوية : موضع يقال له صحراء الثوية ، ومن قال الثُّوَيّة فهي تصغير الثَّوِيّة

وقال أَوسُ بن حَجَرٍ في فُضالة بنِ كَلَدة :

أَبا دُلَيْجَةَ مَنْ يوصَى بأَرْمَلَةٍ ؟ ... أَمْ مَنْ لأَشْعَثَ ذِي هِدْمَيْنِ طِملالِ

أَمْ مَنْ يكُونُ خطِيبَ القَوْمِ إِنْ حفَلوا ... لَدَى المُلُوكِ أُولِي كَيْدٍ وأَقْوَالِ ؟

هدمين : ثوبين خَلَقين، يقال: ثوب أهدام، إذا كان خَلَقاً . والطملال: الفقير

وقال أيضاً في فُضالة بنِ كَلَدة :

أَلَهفاً عَلَى حُسْنِ آلائِهِ ... على الجَابِرِ الحَيِّ والحَارِبِ

وَرِقْبَتِهِ حَتَماتِ المُلُوكِ ... بَيْنَ السُّرَادِقِ والحَاجِبِ

ويَكْفِي المَقَالةَ أَهلَ الرِّجا ... لِ غَيرَ مَعِيبٍ ولا عائِبِ

ورقبته: انتظاره إذن الملوك : وجعله بين السرادق والحاجب ليدل على مكانته من الملك

وأنشد أيضاً :

مُخَضَّرمٌ غُذْنَابٍ يَنْفُضُونَ رؤُوسَهُمْ ... أُولِي قَدَمٍ فِي الشَّغْبِ صُهْبٍ سِبَالُها

تَحرَّبَتْ لَهُمْ إِبْطَ التِّهَامِ فَصَبَّحَتْ ... يَرُدُّ غُوَاةً آخَرِينَ نَكَالُها

إبط الشمال : يعني الفؤاد ، لأنه يكون في تلك الناحية

وقال شُتيم بن خُويلد :

وَقُلْتُ لِسَيِّدِنا : يا حَلِيمُ ... إِنَّكَ لَم تأْسُ أَسْواً رَفِيقا

أَعِنْتَ عَدِيًّا عَلَى شَأْوِها ... تُعادِي فَرِيقاً وَتُبْقِي فَرِيقا

زَجَرْتَ بها لَيْلَةً كُلَّها ... فَجِئْتَ بها مُؤْيِداً خَنْفَقِيقا

تاسو: تداوي ، أسواً وأسي مصدران . والآسي : الطبيب . ومُؤْيِدٌ : داهية . خنفقيق : داهية أيضاً . الشأو : الغلوة لركض الفرس

وأنشد لآدم مولى بلعنبر يقولها لابن له :

يا بأَبِي أَنْتَ وَيا فَوْقَ بِأَبْ ... يا بأَبِي خُصيكَ مِنْ خُصًى وَزُبْ

أَنْتَ الحَبيبُ وكَذا قولُ المحِبّ ... جَنَّبَكَ اللهُ مَعَارِيضَ الوَصَبْ

حَتَّى تُفيدَ وتُدَاوِي ذَا الجَرَبْ ... وذا الجُنُونِ مِنْ سُعالٍ وكَلَبْ

والجَذْبَ حَتَّى يَسْتَقيمَ ذُو الحَدَبْ ... وتَحمِلَ الشاعِرَ في اليَوْمِ العَصِبْ

على مَباهِيرَ كَثِيرَاتِ التَّعَبْ ... وإِنْ أَرَادَ جَدِلٌ صَعْبٌ أَرِبْ

خُصومةً تَنْقُبُ أَوْساطَ الرُّكَبْ ... أَظْلَعْتَهُ مِنْ رَتَبٍ الى رُتَبْ

حَتَّى تَرَى الأَبْصارُ أَمْثالَ الشُّهُبْ ... يَرْمِي بها أَشْوَسُ مِلْحاحٌ كَلِبْ

مُجَرَّبُ الشَّدَّاتِ مَيْمُونٌ مِذَبْ

أوصب : المرض . والعصب : الشديد ، يقال : يوم عَصِبٌ ، وعصيب ، وعصبصب اذا كان شديداً . مباهير : متاعب ، قد علاهم البُهر . الارب : يقال رجل أريب وأرب وله أرَبٌ ، اذا كان عاقلا أديباً حازماً . أظلعته : يقال ظلع الرجل اذا خمع في مشيه . الرتبة : واحدة الرتب والرتبات ، وهي الدرج ، وهي هاهنا الاشياء المختلفة : أي تخرجه من شيء الى شيء . الأشوس : الذي ينظر بمؤخر عينه . والملحاح :

مُلحّ ، من الالحاح على الشيء . كلِبٌ : أى الذى قد كلَبَ . مذب : أى يذب عن حريمه وعن نفسه

وقالت ابنةُ وَثيمةَ ترثى أباها وَثيمةَ بنَ عثمان :

الواهبَ المالَ التلاَ دَ لنـا ويكفينا العظيمهْ
ويكونُ مِدْرَهنا إذا نزلَتْ مُجَلّحَةٌ عظيمهْ
واحمرَّ آفاقُ السما ءِ ولم تقعْ في الأرض دِيمهْ
وتعذّرَ الآكالُ حتى كانَ أحمدَها الهشيمَهْ
لاَ ثُلّةٌ ترعى ولاَ إبلٌ ولاَ بقرٌ مُسيمهْ
ألفيتهُ مأوى الأرا مِلِ والمدفّعَةِ اليتيمهْ
والدافِعَ الخصمَ الألدَّ إذا تفوضحَ فى الخصومَهْ
بلسانِ لُقمانِ بنِ عا دٍ وفصْلِ خُطْبَتِهِ الحكيمه
ألجمتهمْ بعدَ التدا فعِ والتجاذُبِ في الحُكومَهْ

التلاد : القديم من المال ، والطارف : المستفاد . والمدره : لسان القوم المتكلم عنهم . مجلحة : أى داهية مصممة . احمر آفاق السماء . اشتد البرد وقل المطر وكثر القحط . ديمة : واحدة الديم ، وهى الامطار الدائمة مع سكون ، تعذر : تمنع . الآكال ، جمع أكل وهو ما يؤكل . الهشيمة : ما يهشم من الشجر ، أى يكسر . الثلة : ما بين الست الى العشر من الغنم . مسيمة : راعية

وكانت العرب تعظم شأن لقمان بن عاد الاكبر والاصغر ، ولقيم بن لقمان فى النباهة والقدر ، وفى العلم والحكم ، وفى اللسان وفى الحلم . وهذان غير لقمان الحكيم المذكور فى القرآن على ما يقول المفسرون . ولارتفاع قدره وعظم شأنه قال النمر بن تولب :

لُقَيْمُ بنُ لُقْمَانَ مِنْ اُخْتِهِ   فَكَانَ بنَ أُخْتٍ لهُ وابْنَمَا
لَيَالِيَ حُمِّقَ فَاسْتَحْصَنَتْ   عليهِ فَغُرَّ بهـا مُظْلِمَا
فَغُرَّ بها رَجُلٌ مُحْكَمٌ   فجاءتْ بِهِ رَجلاً مُحْكَمَا

وذلك أن أخت لقمان قالت لامرأة لقمان : إنى امرأة مُحْمِقَةٌ ، ولقمان رجل منجب محكم ، وأنا فى ليلة طهرى ، فهبى لى ليلتك . ففعلت . فباتت فى بيت امرأة لقمان ، وقع عليهـا ، فأحبلها بلقيم . فلذلك قال النمر بن تولب ماقال . والمرأة اذا ولدت الحَمْقَى فهى مُحْمِقَةٌ ، ولا يُعلم ذلك حتى يُرى ولد زوجها من غيرها أكياساً

وقالت امرأة ذات بنات :

وما أبالى أنْ أكُونَ مُحْمِقَهْ   اذا رأيتُ خُصْيَةً مُعَلَّقَهْ

وقال الآخر :

أزْرَى بِسَعْيِكَ أن كُنْتَ امرَا حَمِقاً   مِنْ نَسْلِ ضَاوِيَةِ الأعْرَاقِ مِحماقِ

ضاوية الاعراق : أى ضعيفة الاعراق نحيفتها ، يقال رجل ضاو وفيه ضاوية اذا كان نحيفاً قليل الجسم ، وجاء فى الحديث « إغتربوا لاتضووا » أى لايتزوج الرجل القرابةَ القريبة فيجيء ولده ضاوياً ، والفعل منـه ضَوِيَ يَضْوَى ضوًى . والاعراق : الأصول . والمحماق : التى عادتها أن تلد الحَمْقَى

ولبعضهم فى البنات قالت احدى القوابل :

أيا سَحابُ طَرِّقِي بِخيرِ   وَطرِّقِي بِخُصْيَةٍ وأيرِ
وَلا تُرِينا طَرَفَ الْبُظَيرِ

وقال آخر فى إنجاب الامهات ، وهو يخاطب بنى اخوته :

عَفَارِيتاً عَليَّ وَأكلِ مَالِي   وَحِلماً عَنْ أناسٍ آخرينا
فَهلاَّ غيرَ عمِّكمُ ظَلَمتُمْ   اِذا ما كُنْتُمْ مُتَظَلِّمِينا

فَلَوْ كُنْتُمْ لِكَيِّسَةٍ أَكَاسَتْ ... وَكَيْسُ الأُمِّ أَكْيَسُ لِلْبَنِينَا

وَكَانَ لَنَا فَزَارَةُ عَمَّ سُوءٍ ... وَكُنْتُ لَهُ كَشَرِّ بَنِي الأَخِينَا

ولبغض البنات هجر أبو حمزة الضبي خيمة امرأته ، وكان يقيـل و يبيت عند جيران له حين ولدت امرأته بنتاً ، فمر يوماً بخبائها واذا هى ترقصها وتقول :

مَا لأَبِي حَمْزَةَ لا يَأْتِينا ... يَظَلُّ فى البَيْتِ الذي يَلِينا

غَضْبَانَ أَنْ لاَ نَلِدَ الْبَنِينَا ... تا لله ما ذلِكَ فى أَيْدِينا

وإِنَّمَا نأْخُذُ ما أُعْطِينا ... ونَحْنُ كالأَرضِ لزَارِعِينا

نُنْبِتُ ما قدْ زَرَعُوهُ فينا

فغدا الشيخ حتى ولج البيت فقبل رأس امرأته وابنتها

وهـذا الباب يقع فى كتاب الانسان من « كتاب الحيوان »وفى فضل ما بين الذكر والانثى تاماً،وليس هذا الباب مما يدخل فى باب البيان والتبيين ، ولـكن قد يجرى السبب فيجرى معه بقدر مايكون تنشيطاً لقارئ الـكتاب، لأن خروجه من الباب إذ اطال لبعض العلم كان ذلك أروح على قلبه وأزيد فى نشاطه إن شاء الله

وقد قال الاول فى تعظيم شأن لقيم بن لقمان :

قُومي اصْبِحيني فَما صِيغَ الْأَنَى حَجَراً ... لـكِنْ رَهِينةَ أَحْجارٍ وأَرْماس

قُومي اصبحيني فانَّ الدَّهرَ ذُو غِيَرٍ ... أَفْنَى لُقيماً وأَفْنَى آلَ مرماسِ

اليَومَ خمرٌ ويَبدُو في غَدٍ خَبَرَ ... والدَّهرُ من بين إِنْعامٍ وإِيآسِ

فاشْرَبْ عَلى حَدَثانِ الدَّهرِ مُرْتَفِقاً ... لا يَصْحَبُ الهَمّ قَرعُ السِّنّ بالـكاسِ

اصبحيني : الصبوح : شرب الغداة ، والغبوق : شرب العشي . الرمس: القبر ، يقال : رمست الميت أرمسه وأرمسه اذا دفنته

وقال أَبو الطَّمَحَان القَيْنِيُّ(١) فى ذكر لُقمان :

---

(١) أبو الطمحان القيني . هو حنظلة بن الشرقى القينى القضاعى ، شاعر فارس

إِنَّ الزَّمَانَ وَلاَ تَفْنَى عَجَائِبُهُ فِيهِ تَقَطَّعُ أُلاَّفٍ وَأَقْرَانِ
أَمْسَتْ بَنُو الْقَيْنِ أَفْرَاقَاً مُوَزَّعَةً كَأَنَّهُمْ مِن بَقَايَاحَيِّ لُقْمَانِ

وقد ذكرت العرب هذه الامم البائدة والقرون السالفة . ولبعضهم بقايا قليلة وهم أشلاء فى العرب متفرقون مغمورون . مثل جُرهم ، وجاسم ، ووَبار ، وعملاق ، وأميم ، وَطسم ، وجَديس ، ولقمان ، والهس ماس ، وبنى الناصور ، وقَيْلِ بنِ عتر ، وذى جدَن ، ويقال فى بنى الناصور ان أصلهم من الروم

فأما ثمود فقد خبر الله عز وجل عنهم فقال : « وثَمُودَ فَمَا أَبْقَى » وقال : « فهل ترى لهم من باقية ؟ » أنا أعجب من مسلم يصدق بالقرآن ويزعم أن فى قبائل العرب من بقايا ثمود . وكان أبو عبيدة يتأوّل قوله « وثمودَ فما أبقى » أن ذلك إنما وقع على الاكثر وعلى الجمهور الاكبر . وهذا التأويل أخرجه من أبى عبيدة سوء الرأى فى القوم وليس له أن يجىء الى خبر عام مرسل غير مقيد ، وخبر مطلق غير مستثنى منه فيجعله خاصاً كالمستثنى منه . وأى شيء بقى لطاعن أو متأوّل بعد قوله « فهل ترى لهم من باقية ؟ » فكيف يقول ذلك إذا كنا نحن قد نرى منهم فى كل حى باقية ؟ معاذ الله من ذلك . ورووا أن الحجاج قال يوماً على المنبر : يزعمون أنا من بقايا ثمود ، وقد قال الله تبارك وتعالى « وثمود فما أبقى »

فأما الامم البائدة من العجم مثل كنعان ويونان وأشباه ذلك فكثير ، ولكن العجم ليست لها عناية بحفظ شأن الاموات ولا الاحياء ..!

وقال المُسَيَّبُ بنُ علَسٍ(١) في ذِكر لقمن :

خارب صعلوك ، أدرك الجاهلية والاسلام وكان خبيثاً فيهما . وهو القائل:

إذا قيل أى الناس خير قبيلة وأصبر يوماً لا توارى كواكبه
فان بنى لأم بن عمرو أرومة علت فوق صعب لا تنال مراقبه
أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه
لهم مجلس لا يحصرون عن الندى اذا مطلب المعروف أجدب راكبه

(١) قوله : وقال المسيب بن علس . رأيت هذه الأبيات منسوبة الى الاعشى

وَإِلَيْكَ أَعْمَلْتُ المَطِيَّةَ مِنْ سَهْلِ العِرَاقِ وأَنْتَ بِالْقَفْرِ
أَنْتَ الرَّئِيسُ إِذَا هُمْ نَزَلوا وتَوَجَّهُوا كَالأُسْدِ والنَّمْرِ
لَوْ كُنْتَ مِنْ شَيْءٍ سِوَى بَشَرٍ كُنْتَ المُنَوِّرَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ
ولأَنْتَ أَجْوَدُ بِالْعَطَاءِ مِنَ الـ رَيَّانِ لَمَّا جَادَ بِالْقَطْرِ
ولأَنْتَ أَشْجَعُ مِنْ أُسَامَةَ اذْ نَقَعَ الصُّرَاخُ ولَجَّ فِي الذُّعْرِ (١)
ولأَنْتَ أَبْيَنُ حِينَ تَنْطِقُ مِنْ لُقْمَانَ لَمَّا عَيَّ بِالامر

وقال لَبِيدُ بنُ رَبِيعة الجعفري :

وأَخْلَفُ قُسًّا لَيْتَنِي ولَو آنَنِي وأَعْيِي عَلَى لُقْمَانَ حُكْمَ التَّدَبُّرِ
فإِنْ تَسْأَلِينَا: كَيْفَ نَحْنُ فَإِنَّنَا عَصَافِيرُ مِنْ هذَا الأَنَامِ المُسَحَّرِ

السَّحَرُ : الرئة ، والمسحر : المُعلل بالطعام والشراب ، والمُسحر : المخدوع كما قال امرؤ القيس :

أَرَانَا مُوضِعِينَ لأَمْرِ غَيْبٍ ونُسْحَرُ بِالطَّعَامِ وَبِالشَّرَابِ

أي نُعلل ، فكأنا نخدع ونُسحر بالطعام و بالشراب

وقال الفرزدق :

لَئِنْ حَوْمَى صَانَتْ مَعَدٌّ حِيَاضَهَا لَقَدْ كَانَ لُقْمَانُ بْنُ عَادٍ يَهَابُهَا

وقال آخر :

---

(١) هذا البيت مركب من بيتين أولها للمسيب بن علس حيث يقول. ومثبته في ديوانه

ولأنت أشجع من أسامة إذ يقع الصراخ ولج فى الذعر

وثانيهما لزهير بن أبي سُلمى حيث يقول :

ولنعم حشو الدرع أنت إذا دعيت : نزال ، ولج فى الذعر

وليس من الصواب نسبة هذا البيت أو بعضه للاعشي ... وأسامة : الاسد .
نقع الصراخ : ارتفع

إِذَا مَامَاتَ مَيْتٌ مِنْ تَمِيمٍ   فَسَرَّكَ أَنْ يَعِيشَ فَجِئْ بِزَادِ

بِخُبْزٍ أَوْ بِلَحْمٍ أَوْ بِتَمْرٍ   أَوِ الشَّيْءِ المُلَفَّفِ فِي البِجَادِ

تَرَاهُ يُطَوِّفُ الآفَاقَ حِرْصاً   لِيأْكُلَ رَأْسَ لُقْمَانَ بنِ عَادِ

وقال أفنون التغلبي :

لَوْ أَنَّنِي كُنْتُ من عادٍ ومن إِرَمٍ   رَبِيبَ قَيلٍ ولقمانٍ وذى جدَنِ

وقال آخر :

ما لَذَّةُ العَيْشِ والفَتى لل   دَّهْرِ ، والدَّهْرُ ذُوفُنُونْ

أَهْلَكَ طَسْماً وَقبلَ طَسْمٍ   أَهْلَكَ عاداً وذا جُدُونْ

وأَهْلَ جَاسِمٍ ومَأرب   وَحَيَّ لُقمانَ والتقُونْ

والْيُسْرُ لِلعُسْرِ، والتَّمنّي   لِلفقرِ ، والحَيُّ لِلمَنُونْ

قال : وهم وان كانوا يحبون البيان والطلاقة، والتحبير والبلاغة، والتخلص والرشاقة، فانهم كانوا يكرهون السلاطة والهَذَر والتكلف والاسهاب والاكثار ، لما فى ذلك من التزيد والمباهاة واتباع الهوى والمنافسة فى العلو والقدر . وكانوا يكرهون الفضول فى البلاغة، لأن ذلك يدعو إلى السلاطة ، والسلاطة تدعو الى البذاء ، وكل مِراء فى الارض فانما هو من نتاج الفضول . ومن حصل كلامه وميزه وحاسب نفسه وخاف الاثم والذم أشفق من الضراوة وسوء العادة ، وخاف ثمرة العُجب وهُجنة القبح ، وما فى حب السمعة من الفتنة ، وما فى الرياء من مجانبة الاخلاص

ولقد دعا عُبادةُ بنُ الصامت بالطعام بكلام ظُن أنه ترك فيه المحاسبة ، فقال أوسُ بن شداد : إنه قد ترك فيه المحاسبة ، فاسترجع ثم قال : ما تكلمت بكلمة منذ بايعت رسول الله ﷺ الا مزمومة مخطومة . قال : ورووا عن حماد بن سلمة عن أبى حمزة عن ابرهيم قال : إنما يهلك الناس فى فضول الكلام ، وفضول المال . وقال : دع المعاذر فان اكثرها مفاجر . وانما صارت المعاذر كذلك لأنها داعية الى التخلص بكل شيء . وقال سلام بن مطيع : قال لى أيوب : إياك وحفظ الحديث

خوفاً عليه من العُجب . وقال ابرهيم النخعي : دع الاعتذار فانه يخالط الكذب.

قالوا : ونظر شاب وهو في دارابن سيرين الى فرش فى داره فقال : مابال تلك الآجرة أرفع من تلك الآجرة الاخرى ؟ فقال ابن سيرين : (١) يا ابن أخى ان فضول النظر يدعو الى فضول القول

وزعم ابرهيم بن السندى قال : أخبرنى من سمع عيسى بن على يقول : فضول النظر من فضول الخواطر ، وفضول النظر يدعو الى فضول القول ، وفضول القول يدعو الى فضول العمل ، ومن تعود فضول الكلام ثم تدارك استصلاح لسانه خرج من استكراه القول ، وإن أبطأ أخرجه إبطاؤه الى أقبح من الفضول

قال أبو عَمْرِو بنِ العَلَاء : أنكح ضرار بن عمرو الضبي ابنته معبدَ بنَ زُرارة فلما أخرجها اليه قال لها : يابنية ، أمسكي عليك الفضلين . قالت : وما الفضلان ؟ قال : فضل الغُلمة ، وفضل الكلام

وضرار بن عمرو هو الذى قال : من سرّه بنوه ساءته نفسه . وهو الذى لما قال له المنذر : كيف تخلصت يوم كذا وكذا ، وما الذى نجاك ؟ قال : تأخير الاجل، واكراهي نفسي على المُقّ الطوال

المَقَّاء : المرأة الطويلة ، والمُق جماعة النساء الطوال ، والمُق أيضاً الخيل الطوال

وكان اخوته قد استشالوه حتى ركب فرسه ورفع عقيرته بعكاظ فقال : ألا إن خير حائل أمٌ ، ألا فزوجوا الامهات . وذلك أنه صُرع بين القنا فانشل عليه اخوته لأمه حتى أنقذوه

---

(١) ابن سيرين : هو محمد بن سيرين ، كان يكنى أبا بكر ، وكان والده سيرين عبداً لانس بن مالك فكاتبه على عشرين ألفاً وأداها، وكانت أمه صفية مولاة أبى بكر الصديق . وكان محمد بزازاً وحبس بدين كان عليه . قال الاصمعى : الحسن (البصرى) سيد سمح ، واذا حدثك الاصم — يعنى ابن سيرين — بشيء فاشدد يديك عليه، وقتادة حاطب ليل . ولد سنة ٣٣ هـ ٦٥٣ م وتوفى سنة ١١٠ هـ ٧٢٨ م

باب الصمت

كان اعرابى يجالس الشَّعْبِيَّ يُطيل الصمت ، فسئل عن طول صمته فقال : أسمع فأعلم ، وأسكت فأسلم. وقالوا : لو كان الكلام من فضة لكان السكوت من ذهب . وقالوا : مقتل المرء بين لَحييه وفَكَّيْهِ . وأخذ أبو بكر الصديق رضي الله عنه بطرف لسانه وقال : هذا الذى أوردنى الموارد . وقالوا : ليس شيء أحق بطول سجن من لسان . وقالوا : اللسان سَبُعٌ عقور

وقال النبي ﷺ « وهل يُكب الناسَ على مناخرهم فى نار جهنم إلا حصائد ألسنتهم ؟ »

وقال ابن الاعرابى عن بعض أشياخه : تكلم رجل عند النبي ﷺ فخطل فى كلامه فقال النبي ﷺ « ما أعطى العبدُ شراً من طلاقة اللسان »

وقال العايشي وخالد بن خداش (١) حدثنا مهدى بن ميمون عن غيلان بن جرير عن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه . قال : قَدِمنا على رسول الله ﷺ فى وفد فقلنا : يارسول الله ، أنت سيدنا وأنت أطولنا علينا طَولا، وأنت الجفنة الغراء . فقال النبي ﷺ « أيها الناس قولوا بقولكم ولا يستفزنكم الشيطان ، فانما أنا عبد الله ورسوله »

وقال خالدُ بنُ عبد الله القَسْرِيُّ لعمر بن عبد العزيز رحمه الله: من كانت الخلافة زانته فقد زانتها ، ومن شرفته فقد شرفتها ، فأنت كما قال الشاعر :

وتَزيدينَ أطْيَبَ الطِّيب طِيباً ... إنْ تَمَسّيه، أين مثلك أينا

واذا الدرُّ زان حُسنَ وُجُوهٍ ... كان للدر حُسنُ وجهك زينا

قال عمر : ان صاحبكم أعطى مَقولا ولم يعط معقولا . وقال الشاعر :

لسانُك مَعْسُولٌ ونفسك شَحةٌ ... ودُون الثُّريَّا من صَدِيقِك مالكا

---

(١) كان فى الاصل خالد بن حداس وهذا خطأ ، والصواب ما أثبتناه . وهو خالد بن خداش بن عجلان، يكنى أبا الهيثم، وكان مولى المهلب بن أبى صفرة . توفى سنة ٢٢٣ هـ ٨٣٧ م

وأخبرنا باسناد له ان ناساً قالوا لابن عمر : أدع الله لنا بدعوات . فقال : اللهم ارحمنا وعافنا وارزقنا. فقالوا: لو زدتنا يا أبا عبدالرحمن؟ قال: نعوذبالله من الاسهاب .

وقال أبو الاسود الدؤلي في ذكر الاسهاب ـ يقولها في الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة ، والحارث هو القُباع،وكان خطيباً من وجوه قريش ورجالهم، وإنما سمي القُباع لأنه أتى بمكتل لاهل المدينة فقال:ان هذا المكتل لقباعٌ. فسمى به . والقُباعُ الواسع الرأس القصير . وقال الفرزدق لجرير :

وقبْلكَ ما أعْيَيْتُ كاسِرَ عينِه ... زياداً فلمْ تقْدِرْ عَليّ حَبائِلهْ

فأقْسمتُ لا آتيهِ تِسعْينَ حِجَّةً ... ولو كُسِرَتْ عُنقُ الْقُباعِ وكاهِلهْ

ـ قال أبو الاسود :

أمِيرَ المؤمنينَ جُزِيتَ خيراً ... أرحْنا منْ قُباعِ بَنى الْمُغيرَه

بَلوْناهُ فلمـاهُ فأعيـا ... عَلَيْنا ما يُمِرُّ لنا مريره(١)

على أنّ الفتى نِكحٌ أكُولٌ ... ومِسْهابٌ مذاهِبه كثِيره

وقال الشاعر :

إيّاكَ إيّاكَ المِرَاءَ فانّهُ ... إلى الشّرِّ دَعّاءٌ وللصّرمِ جالبُ

وقال ابو العتاهية :

والصَّمتُ أجملُ بالفتى ... من منْطِقٍ في غيرِ حينِهْ

كلُّ امْرِىءٍ في نفسهِ ... أعلى وأشرَفُ من قَرينه

وكان سَهل بنُ هرون يقول : سياسة البلاغة أشد من البلاغة ، كما أن التوقى على الدواء أشد من الدواء . وكانوا يأمرون بالتبين والتثبت ، وبالتحرز من زلل الـكلام ، ومن زلل الرأى ، ومن الرأى الدَّبرى . والرأىُ الدَّبرىُ هو الذى يعرض من الصواب بعدَ مضى الرأى الاول وفوت استداركه . وكانوا يأمرون

---

(١) فى الاصل:ما يمر لنا هريرة ، وليس بذلك والصواب ما أثبتناه . ومعنى ما يمر مريره : أى أنه غير محكم فى ما وليه من الامر

بالتحلم والتعلم ، وبالتقدم فى ذلك أشد التقدم . وقال الاحنف (٢) قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : تفقهوا قبل أن تسودوا . وكان يقول رضى الله عنه : السؤدد مع السواد. وأنشدوا لِكُثَيِّر عزة :

وفى الحِلم والإسلام للمرءِ وازعٌ   وفي تركِ طاعاتِ الفؤادِ المتيم

بصائرُ رُشدٍ للفتى مستبينةٌ   وأخلاقُ صِدْق عِلمُها بالتعلم

الوازع : الناهى ، والوزعة جمع وازع : وهم الناهون الكافون

وقال الافوه الاودى :

أضحتْ قرينةُ قد تغيرَ بِشْرُها   وتجهّمت بتحيّة القوم العدا

ألوت بأصبعها وقالتْ إنّما   يكفيك ممّا لا ترى ما قد ترى

وأنشد:

إبدأ بنفسك فانهها عن غيّها   فإذا انتهت عنهُ فأنتَ حكيم

فهناكَ تعذرُ إن وَعظتَ ويُقتدَى   بالقولِ منكَ ويُقبلُ التّعليمُ

قالوا : وكان الاحنف أشد الناس سلطانا على نفسه . وكان الحسن أترك لما نهى عنه . وقال الآخر :

لا تعذِراني في الإساءة إنّهُ   شرُّ الرّجال من يُسيء فيُعذرُ

وقال الكميت بن زيد الاسدى :

---

(٢) الاحنف : هو الاحنف بن قيس ، ويقال أن أسمه الضحاك أو صخر ، ويكنى أبا بحر ، وبه يضرب المثل فى الحلم والسيادة ، وكان رسول الله ﷺ قد بعث الى قومه يدعوهم الى الاسلام فلما لم يجيبوا قال لهم الاحنف : إنه يدعوكم الى الاسلام والى مكارم الاخلاق، وينهاكم عن ملايمها. فأسلموا وأسلم. ولم يفد فيمن وفدوا على النبي،حتى اذا كان عهد عمر وفد عليه ، و بعثه عمر الى خراسان فبيتهم العدو ليلا فكان أول من ركب الاحنف وهو يقول : ان على كل رئيس حقاً * أن يخضب الصعدة أو تندقا * ثم حمل عليهم فقتل صاحب الطبل وانهزم القوم ومضوا فى آثارهم حتى فتحوا مرو الروذ فى خلافة عثمان . ثم شهد صفين مع على كرم الله وجهه ، وكان سيد تميم فى عهد معاوية . ثم خرج مع مصعب بن الزبير الى الكوفة فمات وقد كبر جداً وكانت وفاته فى سنة ٦٩ هـ ٦٨٨ م

ولم يقُــل بعد زلّةٍ لهمُ عند المعاذير إنّما حسبُوا

وأنشد الأحوص بن محمد :

قامت تخاصرني بقنّتها خَودٌ تأطّرُ غادةٌ بكرُ

كلٌّ يَرى أنّ الشّباب لهُ فى كلّ مبلغِ لَذّةٍ عذرُ

تخاصرنى : آخذ بيدها وتأخذ بيدى . والقُنة : المواضع الغليظة من الارض فى صلابة . الخود : الحسنة الخلق . تأطر : تنثنى . والغادة : الناعمة اللينة

وقال جرير فى فوت الرأى :

ولا يتّقون الشّرّ حتى يصيبهم ولا يعرفُونَ الأمرَ إلا تَدَبُّرا

ومدح النابغة ناسا بخلاف هذه الصفة فقال :

ولا يحسَبُونَ الْخير لا شرّ بعده ولا يحْسبُون الشّرّ ضربةَ لازب

اللازب واللازم واحد ، واللازب فى مكان آخــر : اليابس ، قال الله عز وجل : « من طين لازب» واللزَبات : السنون الجدبة

وأنشد :

هفا هفوةً كانت من المرء بدعةً ومَا مِثلُهُ عَنْ مِثلِهَا بِسَليم

فإن يَكُ أخطَا فى أخيكُمْ فرُبَّمَا أصابَ الّتِى فِيها صلاحُ تميمِ

وقال قائل عند يزيد بن عُمر بن هُبيرة : والله ما أتى الحارث بن شريح بيوم خير قط . فقال له الترجمانُ بن هزيم : إلا يكن أتى بيوم خير فقد أتى بيوم شر . وذهب الترجمانُ بن هزيم الى مثل معنى قول الشاعر :

ومَا خُلِقَتْ بَنُو زِمّانَ الا أخيراً بَعد خلق النَّاس طُرّا

ومَا فعَلَتْ بنُو زمّانَ خيراً ولا فعلت بنو زمّان شرّا

ومن هذا الجنس من الاحاديث — وهو يدخل فى باب الملح — قال الاصمعى: وصلتُ بالعلم ، ونلت بالملح. قال رجل مرة : أبى الذى قاد الجيوش، وفتح الفتوح، وخرج على الملوك ، واغتصب المنابر. فقال له رجل من القوم : لاجرم ، لقد أسر وقتل وصلب . فقال له المفتخر بأبيه: دعنى من أسر أبى وقتله وصلبه ، أبوك أنت

حدث نفسه بشيء من هذا قط ؟

قد سمعنا رواية القوم واحتجاجهم ، وأنا أوصيك أن لا تدع التماس البيان والتبيين إن ظننت أن لك فيهما طبيعة، وأنهما يناسبانك بعض المناسبة، ويشاكلانك في بعض المشاكلة . ولا تهمل طبيعتك فيستولى الاهمال على قوة القريحة ويستبد بها سوء العادة . وان كنت ذا بيان وأحسست من نفسك بالنفوذ فى الخطابة والبلاغة وبقوة المُنة يوم الحفل فلا تقصر فى التماس اعلاها سورة وأرفعها فى البيان منزلة . ولا يقطعنك تهييبُ الجهلاء ، وتخويف الجبناء . ولا تصرفنك الروايات المعدولة عن وجوهها ، والاحاديث المتناولة على أقبح مخارجها

وكيف تطيعهم بهذه الروايات المعدولة، والاخبار المدخولة، وبهذا الرأى الذى ابتدعوه من قبل أنفسهم، وقد سمعت الله تبارك وتعالى ذكر داود النبي صلوات الله عليه فقال « وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ - الى قوله - وفصل الخطاب؟» فجمع له بالحكمة: البراعة فى العقل، والرجاحة في الحلم، والاتساع فى العلم ، والصواب فى الحكم. وجمع له بفصل الخطاب : تفصيل المجمل ، وتخليص الملتبس(١)، والبصر بالحزّ فى موضع الحز ، والحسم فى موضع الحسم . وذكر رسول الله ﷺ شعيبا النبي عليه السلام فقال : « كان شعيب خطيب الانبياء » وذلك عند بعض ما حكاه الله عنه فى كتابه، وحلاه لاسماع عباده . فكيف تهاب منزلة الخطباء وداود عليه السلام سلفك، وشعيب أمامك، مع ما تلونا عليك فى صدر هذا الكتاب من القرآن الحكيم ، والآى الكريم ؟ وهذه خطب رسول الله ﷺ مدوّنة محفوظة ، ومخلدة مشهورة . وهذه خطب أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم . وقد كان لرسول الله شعراء ينافحون عنه وعن اصحابه بأمره . وكان ثابت بن قيس بن الشماس الانصارى خطيب رسول الله ﷺ لا يدفع ذلك أحد

فأما ما ذكرتم من الاسهاب والتكلف، والخطل والتزيد، فانما يخرج إلى الاسهاب المتكلف ، والى الخطل المتزيد . فاما أرباب الكلام، ورؤساء أهل البيان، والمطبوعون المعاودون، وأصحاب التحصيل والمحاسبة، والتوقى والشفقة، والذين يتكلمون في صلاح ذات البين، وفى إطفاء نائرة أو فى حمالة ، أو على منبر جماعة ، أو فى عقد إملاك ، بين مسلم ومسلمة ، فكيف يكون كلام هؤلاء يدعو إلى السلاطة والمراء ، وإلى الهذر والبذاء ، والى النفج والرياء ؟ ولو كان هذا كما يقولون لكان على بن أبى طالب وعبدالله بن عباس رضي الله عنهما أكثر الناس فيما ذكرتم . فلم خطب صعصعة ابن

(١) وتخليص الملتبس: فى الاصل، وتلخيص، وليس هذا مكانها والصواب ما أثبتناه

صوحان عند علي بن أبي طالب ؟وقد كان ينبغي للحسن البصري أن يكون أحق التابعين بما ذكرتم ؟

قال الاصمعي : قيل لسعيد بن المسيب : هاهنا قوم نساك يعيبون إنشاد الشعر؟ قال : نسكوا نسكا أعجميا .

وزعمتم أن رسول الله ﷺ قال« شعبتان من شعب النفاق : البذاء والبيان ، وشعبتان من شعب الايمان : الحياء والعي »

ونحن نعوذ بالله من العي ، ونعوذ بالله أن يكون القرآن يحث على البيان، ورسول الله ﷺ يحث على العي ، ونعوذ بالله أن يجمع رسول الله ﷺ بين البذاء والبيان، وإنما وقع النهي على كل شيء جاوز المقدار ، ووقع اسم العي على كل شيء قصر عن المقدار . فالعي مذموم ، والخطل مذموم ، ودين الله تبارك وتعالى بين المقصر والغالي.

وها هنا روايات كثيرة مدخولة وأحاديث معلولة. ورووا أن رجلا مدح الحياء عند الاحنف وأن الاحنف قال : يم يعود ذلك ضعفاً والخير لا يكون سببا للشر ؟ ولكنا نقول : إن الحياء اسم لمقدار من المقادير ما زاد على ذلك المقدار فسمه ما أحببت . وكذلك الجود اسم لمقدار من المقادير ، فالسرف اسم لما فضل عن ذلك المقدار . وللحزم مقدار ، فالجبن اسم لما فضل عن ذلك المقدار، وللاقتصاد مقدار ، فالبخل اسم لما خرج عن ذلك المقدار . وللشجاعة مقدار، فالتهور والخور اسم لما جاوز ذلك المقدار

وهذه الاحاديث ليست لعامتها أسانيد متصلة ، فان وجدتها متصلة لم تجاهد محمودة ، وأكثرها جاءت مطلقة ، ليس لها حامل محمود ولا مذموم ، فاذا كانت الكلمة حسنة استمتعنا بها على قدر ما فيها من الحسن .

فان أردت أن تتكلف هذه الصناعة وتنسب إلى هذا الادب ، فقرضت قصيدة ، أو حبرت خطبة ، أو ألفت رسالة ، فاياك أن تدعوك ثقتك بنفسك ويدعوك عجبك بثمرة عقلك إلى أن تنتحله وتدعيه ، ولكن أعرضه على العلماء في عرض رسائل أو أشعار أو خطب ، فان رأيت الاسماع تصغي له والعيون تحدج اليه، ورأيت من يطلبه ويستحسنه فانتحله ، فان كان ذلك في ابتداء امرك وفي اول تكلفك فلم تره طالبا ولا مستحسنا ، فلعله أن يكون — ما دام ريضا قضيبا — تعنيسا أن يحل عندهم محل المتروك ، فان عاودت أمثال ذلك مراراً فوجدت الاسماع عنه منصرفة والقلوب لاهية ، فخذ في غير هذه الصناعة واجعل رائدك الذي لا يكذبك حرصهم عليه وزهدهم فيه . وقال الشاعر :

إِنَّ الْحَدِيثَ تَغُرُّ القومَ خلوَتُهُ ... حتى يُلِجَّ بهم عِيٌّ وإِكثارُ

وفي المثل المضروب « كُلُّ مُجْرٍ في الخَلاَ مُسَرٌّ » ولم يقولوا مسرور . وكلٌّ صواب فلا تثق في كلامك برأي نفسك . فاني ربما رأيت الرجل متماسكا وفوق المتماسك حتى إذا صار إلى رأيه في شعره، وفي كلامه، وفي ابنه، رأيته متهافتا وفوق المتهافت

وكان زهير بن سُلمى وهو أحد الثلاثة المتقدمين يسمى كبار قصائده (الحوليات) وقال نوح بن جرير: قال الحطيئة : خير الشعر الحولي المنقح . وقال البعيث الشاعر، وكان أخطب الناس : اني والله ما أرسل الكلام قضيباً خشيباً ، وما أريد أن أخطب يوم الحفل الا بالبائت المحكك

وكنت أظن أن قولهم: محكك، كلمة مولدة حتى سمعت قول الصعب بن على الكناني:

أَبْلغْ فَزَارَةَ أَنَّ الذِّئْبَ آكِلُهَا ... وجائعٌ سَغِبٌ شَرٌّ مِنَ الذِّيبِ

أَدَلُّ أَطْلَسُ ذُو نَفْسٍ مُحَكَّكَةٍ ... قَدْ كانَ طَارَ زَمَاناً في الْيَعَاسِيبِ

وتكلم يَزِيدُ بنُ أبانِ الرقاشي ، ثم تكلم الحسن واعرابيّان حاضران . فقال أحدهما لصاحبه : كيف رأيت الرجلين ؟ قال: أما الاول فقاصٌ مجيد ، وأما الا خر فعربيٌّ محكك . ونظر أعرابي الى الحسن فقال له رجل : كيف تراه ، قال : أرى خيشوم حر . وأرادوا عبدَ الله بنَ وهب الراسبيّ (١) على الكلام يوم عقدت له الخوارج الرياسة . فقال : وما أنا والرأى الفطير والكلام القضيب ؟ ولما فرعوا من البيعة له قال : دعوا الرأى يغبّ ، فان غبوبه يكشف لكم عن محضه . وقيل لابن التوأم الرقاشي : تكلم . فقال : ما أشتهي الخبز إلا بائتاً . وقال عُبيد الله بن سالم لرؤبة : مت يا أبا الجحاف إذا شئت . قال : وكيف ذلك ؟ قال : رأيت اليوم عُقبة بنَ رؤبة يُنشد شعراً له أعجبني . فقال رؤبة : نعم انه ليقول ولكن ليس لشعره قِران . وقال الشاعر :

مَهاذِبَةٌ مناجبة قِرانٌ ... مَنادِبة كأنهم الأُسودُ

يريد بقوله : قِران ، التشابه والموافقة

وقال عمر بن لجاء لبعض الشعراء : أنا أشعر منك . قال : وبم ذاك ، قال :

---

(١) في الأصل : الراسى ، وليس كذلك وهو الراسبي كما أثبتناه

لاني أقول البيت وأخاه،وتقول البيت وابن عمه . وذكر بعضهم شعر النابغة الجعدى فقال : مِطرَفٌ بآلاف وخِمار بواف . وكان الاصمعى يفضّله من أجل ذلك. وكان يقول : الحطيئةُ عبدٌ لشعره . عاب شعرَه حين وجده كله متخيراً منتخباً مستوياً ، لمكان الصنعة والتكلف والقيام عليه . وقالوا : لو كان شعر صَالِح بنِ عَبْدِ القُدُّوسِ (١) وسابقِ البرَبرى كان مفرقاً فى أشعار كثيرة لصارت تلك الاشعار أرفع مما هى عليه بطبقات ، ولصار شعرهما نوادر سائرة فى الآفاق ، ولكن القصيدة إذا كانت كلها أمثالا لم تسر ولم تجر مجرى النوادر ، ومتى لم يخرج السامع من شىء الى شىء لم يكن لذلك النظام عنده موقع . وقال بعض الشعراء لرجل : أنا أقول فى كل ساعة قصيدة،وأنت تقرضها فى كل شهر،فلم ذلك ؟ قال : لانى لا أقبل من شيطانى مثل الذى تقبله من شيطانك (٢) . قالوا : وأنشد عُقبة بنُ رُؤبة أباه رُؤبة بنَ العَجَّاج شعراً وقال له : كيف تراه ؟ قال له : يابنى ، ان أباك ليعرض له مثل هذا يميناً وشمالا فما يلتفت اليه .

وقد رووا ذلك فى زُهير وابنه كعب

وقيل لِعَقِيل بنِ عَلَّفَةَ : لم لاتطيل الهجاء ؟ قال : يكفيك من القلادة ماأحاط بالعنق. وقيل لأبى المهوس:لم لا تطيل الهجاء ؟ قال: لم أجد المثل النادر الا بيتاً واحداً، ولم أجد الشعر السائر الا بيتاً واحداً . وقال مَسْلَمَةَ بنُ عَبد الملك لنُصيب : يا أبا الحجناء ، أما تحسن الهجاء ؟ قال : أما ترانى أحسن مكان عافاك الله، لاعافاك

---

(١) صالح بن عبد القدوس . زعموا انه كان زنديقاً ،وانه كان يتظاهر بمذهب الثنوية القائلين بمبدأ النور والظلمة . جرت بينه و بين أبى الهذيل العلاف مناظرات كان نصيبه فيها الخزلان . وزعموا انه رؤى يصلى صلاة تامة الركوع والسجود فقيل له : ما هذا ومذهبك معروف ؟ فقال : سنة البلد ، وعادة الجسد ، وسلامة الأهل والولد . ولما شاع عنه ماشاع من انتحال الزندقة طلبه المهدى العباسى ونوظر بين يديه ثم حبسه وصلبه . وكان شاعراً من شعراء الحكمة

(٢) ذكرنى هذا بما يروى عن هوميروس الشاعر اليونانى انه جاءه يوماً الشاعر ابرخس يفاخره بكثرة شعره وسرعة عمله و يعيره بالبطء وقلة الشعر، فقال له هوميروس: بلغنى أن خنزيرة بانطاكية عيرت لبؤة بطول زمن الحمل وقلة الولد ، وفاخرتها بالسرعة والكثرة فقالت لها اللبؤة : لقد صدقت ، إنى ألد ا بعلولدد الولد ولكن أسداً

الله ؟ ولاموا الكميت بن زيد على الاطالة فقال : أنا على القصار أقدر . وقيل للعجاج : مالك لاتحسن الهجاء ؟ قال : هل فى الارض صانعٌ إلا وهو على الافساد أقدر ؟ وقال رؤبة : الهدم أسرع من البناء

وهذه الحجج التى ذكروها عن نُصيب والكُميت والعَجّاج ورُؤبة إنما ذكروها على وجه الاحتجاج لهم . وهذا منهم جهل ان كانت هذه الاخبار صادقة . وقد يكون الرجل له طبيعة فى الحساب وليس له طبيعة فى الكلام ، ويكون له طبيعة فى التجارة وليس له طبيعة فى الفلاحة ، ويكون له طبيعة فى الحداء أو فى التعبير أو فى القراءة بالألحان وليس له طبيعة فى الغناء ، وان كانت هذه الانواع كلها ترجع الى تأليف اللحون . ويكون له طبيعة فى الناى وليس له طبيعة فى السرناى ، ويكون له طبيعة فى قصبة الراعى ولا يكون له طبيعة فى القصبتين المضمومتين ، ويكون له طبع فى صناعة اللحون ولا يكون له طبع فى غيرها ، ويكون له طبع فى تأليف الرسائل والخطب والاسجاع ولا يكون له طبع فى قرض بيت شعر ، ومثل هذا كثير جداً

وكان عبد الحميد الاكبر وابن المقفع مع بلاغة أقلامهما وألسنتهما لايستطيعان من الشعر الا مالا يذكر مثله ، وقيل لابن المقفع فى ذلك فقال : الذى ارضاه لايجيئنى ، والذى يجيئنى لا أرضاه . وهذا الفرزدق وكان مشتهراً بالنساء ، وكان زير غوان وهو فى ذلك ليس له بيت واحد فى النسيب مذكور ، ومع حسده لجرير ــ وجرير عفيف لم يعشق امرأة قط ــ وهو مع ذلك أغزل الناس شعراً . وفى الشعراء من لايستطيع مجاوزة القصيد الى الرجز . ومنهم من لايستطيع مجاوزة الرجز الى القصيد . ومنهم من يجمعها : كجريرٍ ، وعمر بن لجاء ، وأبى النجم ، وحميد الارقط ، والعمانى . وليس الفرزدق فى طواله بأشعر منه فى قصاره . وفى الشعراء من يخطب ، وفيهم من لايستطيع الخطابة . وكذلك حال الخطباء فى قرض الشعر . وشاعرٌ نفسه قد تختلف حالاته . وقال الفرزدق : أنا عند الناس أشعر الناس ، وربما مرت علىّ ساعة ونزع ضرسى أهون علىّ من أن أقول بيتاً واحداً . وقال العجاج : لقد قلت أرجوزتى التى أولها :

بَكَيْتُ والمحتَزَنُ البَكِىّ ... وإِنَّما يأتى الصِّبا الصَّبِىّ

أطَرَباً وأنتَ قِنَّسْرِىّ ... والدَّهرُ بالانسَانِ دَوّارِىّ

وأنا بالرمل فانثالت علىّ قوافيها انثيالا ، وانى لأريد اليوم دونها فى الايام

الـكثيرة فما أقدر عليـه . وقال لى أبو يعقوب الخزيمى : خرجت من منزلى أريد الشماسية فابتدأت القول فى مرثيـة لابى التختاخ فرجعت والله وما امكننى بيت واحد . وقال الشاعر :

وَقَدْ يَقْرِضُ الشِّعْرَ البَكِيُّ لِسانُهُ وتُعِيِ القَوَافِي المرءَ وهو خَطِيبُ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ باب من القول في القوافي الظاهرة واللفظ الموجز ﴾

(من ملتقطات كلام النساك)

قال بعض الناس : من التوقى ترك الافراط فى التوقي . وقال بعضهم : إذا لم يكن ماتريد فأرد مايكون .

وقال الشاعر :

قَدَرُ اللهِ وَارِدٌ حِينَ يُقْضَى وُرُودُهُ
فأرِدْمَايكُونُ إِنْ لمْ يَكنْ مَا تُرِيدُهُ

وقيل لاعرابى فى شكاته : كيف تجدك ؟ قال: أجد مالا أشتهى، وأشتهى مالا أجد، وأنا فى زمان من جاد لم يَجِـد، ومن وَجدَ لم يَجُـد . وقال بعض النساك : أنا لما لاأرجو أرجى منى لما أرجو . وقال بعضهم : أعجب من العجب ترك التعجب من العجب . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله لعبد بنى مخزوم : انى أخاف الله فيما تقلدت . قال : لست أخاف عليك أن تخاف وإنما أخاف عليك أن لاتخاف. وقال الأحنف لمعاوية : أخافك إن صدقتك، وأخاف الله إن كذبتك . وقال رجل من النساك لصاحب له وهو يجود بنفسه : أما ذنوبى فانى أرجو لها مغفرة الله، ولكنى أخاف على بناتى الضيعة . فقال له صاحبه : فالذى ترجوه لمغفرة ذنوبك فارجه لحفظ بناتك؟ وقال رجل من النساك لصاحب له : مالى أراك حزيناً ؟ قال : كان عندى يتيم أربيه لأوجر فيه فمات فانقطع عنا أجره إذ بطل قيامنا بمؤنته. فقال له صاحبه: فاجتلب يتيما آخر يقوم لك مقام الاول . قال : أخاف أن لاأصيب يتيما فى سوء خلقه . قال

له صاحبه : أما أنا فلو كنت فى موضعك منه لاذكرت سوء خلقه . وقال آخر ، وسمعه أبو هريرة النحوى وهو يقول : مايمنعنى من تعلم القرآن إلا أنى أخاف أن أضيعه ، قال : أما أنت فقد عجلت له التضييع ولعلك اذا تعلمته لم تضيعه . وقال عمر بن عبد العزيز لرجل : من سيد قومك ؟ قال : أنا . قال : لو كنت كذلك لم تقل

(باب آخر)

وقالوا في حسن البيان ، وفى التخلص من الخصم بالحق والباطل ، وفى تخليص الحق من الباطل ، وفى الاقرار بالحق وفى ترك الفخر بالباطل :

قال أعرابى وذكر حماس بن ثامل :

بَرِئتُ إلى الرَّحمٰنِ منْ كلِّ صاحبٍ ... أُصاحبُهُ إلاَّ حِمَاسَ بنَ ثَامِلِ

وَظَنِّى به بَيْنَ السِّمَاطَيْنِ أنَّهُ ... سَيَنْجُو بِحَقٍّ أوْ سَيَنْجُو بِبَاطِلِ

وقال العُجَيْرُ السَّلُولى :

وإنَّ ابْنَ زَيْدٍ لاَبْنُ عَمِّى وَإِنَّهُ ... لَبَلاَّلُ أيدِى جِلةِ الشولِ بالدَّمِ

طَلوعُ الثَّنَايَا بالمطَايَا وَإِنَّهُ ... غَدَاةَ المَرَادِى لَلْخَطِيبُ المقَدَّمُ

يَسُرُّكَ مَظْلوماً ويُرْضِيكَ ظَالِماً ... ويَكْفِيكَ مَا حُمِّلْتَهُ حِينَ تَغْرَمُ

الشول : جمع شائلة ، وهى الناقة التى جف لبنها ، واذا شالت بذنبها بعد اللقاح فهى شائل وجمعها شُول .

المرادى : المصادع والمقارع ، يقال رديت الحجر بصخرة أو بمعول اذا ضربته بها لتكسره ، والمرادة الصخرة التى تكسر بها الحجارة

وقال ابنُ رُبْع الهذلى :

أعَيْنِى ألاَ فَابكِي رُقَيْبَةَ إنَّهُ ... وَصُولٌ لِأرْحام ومِعْطَاء سائِلِ

فأُقسِمُ لَوْ أدرَكْنَهُ لَحَمَيْتَهُ ... وَإنْ كانَ لَمْ يَتْرُكْ مَقَالاً لِقائِلِ

وقال بعض اليهود ، وهو الربيع بن أبى حُقَيْق من بنى النضير ، و بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى خيبر فقتلوه :

سائِلْ بِنـا خابِرَ أكْفائِنا ... والعِلْمُ قَدْ يُلْفَى لَدى السّائِلِ

إنّا إذا مالَتْ دَواعِي الْهَوى ... وأنْصَتَ السّامِعُ لِلْقائِلِ

واصْطَرَعَ النّاسُ بأَلْبابِهِمْ ... نَقْضِي بِحُكْمٍ عادِلٍ فاصِلِ

لانَجْعَلُ الْباطِلَ حَقّاً وَلا ... نُلِطُّ دُونَ الحَقِّ بالْباطِلِ

نَـكْرَهُ أنْ تَسْفَهَ أحلامُنا ... فَنَخْمُلَ الدَّهْرَ مَعَ الخامِلِ

وقال الآخر، وذكر حماساً أيضاً :

أتانِي حِماسٌ بِابْنِ ماهِي يَسُوقُهُ ... لِيُبْغِيَهُ خَيْراً ولَيْسَ بِفاعِلِ

لِيُعْطِيَ عَبْساً مالَنا، وَصُدُورُنا ... مِنَ الغيظِ تغلي مثلَ غَلْيِ المَراجِلِ

وقافيةٍ قِيلتْ لَكُمْ لَمْ أُجِدْلَها ... جواباً إذا لَمْ تَضرِبُوا بالمَناصِلِ

فأنطِقَ في حقٍّ بحَقٍّ ولَمْ يَكُنْ ... لِيَرْحَضَ عَنْكُمْ قالَةَ الخِزْيِ باطِلِي

ليرحض : أي ليغسل، والراحض الغاسل ، والمرحاض : الموضع الذي يُغسل فيه

وقال عَمْرُو بْنُ مَعْدِ يكرب :(١)

فَلَوْ أنَّ قَوْمِي أنْطَقَتْنِي رِماحُهُمْ ... نَطَقْتُ ولكِنَّ الرِّماحَ أجَرَّتِ

الجرار : عود يعرض في فم الفصيل أو يشق به لسانه لئلا يرضع ، فيقول: قومي لم يطعنوا بالرماح فأثني عليهم ، ولكنهم فروا فأمسكت كالمجر الذي في فمه جرار

وقال أبو عبيدة : صاح رؤبة في بعض الحروب التي كانت بين تميم والازد : يامعشر بني تميم أطلقوا من لساني . قال: أبصر رجلاً منهم قد طعن فارساً طعنة فصاح : لاعياً ولا شللاً . والعرب تقول : عيٌّ أبأسُ من شلل . كأن العي فوق كل زمانة . وقالت الجهضمية :

ألا هَلَكَ الحُلْوُ الحُلالُ الحُلاحِلُ ... ومَنْ عِنْدَهُ عِلْمٌ وحِلْمٌ ونائِلُ

---

(١) عمرو بن معد يكرب ، هو فارس اليمن بلا منازع، وبطل من أبطال العرب في الجاهلية والاسلام، له غارات في الجاهلية معروفة ، ومشاهد في الاسلام موصوفة مات غازياً بنهاوند عن سن عالية

وذُو خُطَبٍ يَوْماً إذا القَوْمُ أُفْحِمُوا ... تُصِيبُ مَرَادِي قَوْلِهِ مايُحَاوِلُ

بَصِيرٌ بِعَوْرَاتِ الكَلامِ إذا التَقَى ... شَرِيجانِ بَيْنَ القَوْمِ حَقٌّ وبَاطِلُ

أَبِيٌّ لِما يَأْبِي الكَرِيمُ بِسَيْفِهِ ... وإنْ أَسْلَمَتْهُ جُنْدُهُ والقَبائِلُ

ولَيْسَ بِمعطاءِ الظُّلامَةِ عَنْ يَدٍ ... ولا دُونَ أعلى سُوْرَةِ المَجْدِ قابِلُ

الحُلاحل : السيد . شريجان : جنسان . ويقال : الناس شَرجان وشريجان، أى فرقتان ، ومنه حديث النبي ﷺ أنه لما بلغ الكديد أمر الناس بالفطر فأصبح الناس شرجين ، أى بعضهم صائماً وبعضهم مُفطراً

وأنشد أبو عبيدة - في الخطيب يطول كلامه ويكون ذكوراً لأول خطبته وللذى بنى عليه أمره وان شغب شاغب فقطع عليه كلامه ، أو حدث عند ذلك حدث يحتاج فيه الى تدبير آخر وصل الثانى من كلامه بالاول حتى لايكون أحدُ كلاميه أجود من الآخر - :

فإنْ أحْدَثُوا شَغْباً يُقَطِّعُ نَظْمَها ... فإنَّكَ وَصَّالٌ لمَا قَطَعَ الشَّغْبُ

ولوْ كُنْتَ نَسَّاجاً سَدَوْتَ خِطَابَها ... بِقَوْلٍ كَطَعْمِ الشَّهْدِ بالبَارِدِ العَذْبِ

وقال نُصيب :

ومَا بَذَلَتْ ابتِذَالَ الثَّوْبِ وَدَّكُمْ ... وعائِدٌ خلقاً ما كانَ يُبْتَذَلُ

وَعِلْمُكَ الشَّيءَ تَهْوَى أنْ تُبَيِّنَهُ ... أشْفَي بِقلبِكَ منْ أخْبارِ منْ تَسلُ

وقال الآخر :

لَعَمْرُكَ ماوِدُّ اللِّسانِ بنَافعٍ ... إذا لَمْ يَكُنْ أصْلُ المَوَدَّةِ فى الصَّدْرِ

وقال الآخر :

تَعَلَّمْ فَلَيْسَ المَرْءُ يُولَدُ عالِماً ... وَلَيْسَ أَخُو عِلْمٍ كَمَنْ هُوَ جاهِلُ

وَإنَّ كَبِيرَ القَوْمِ لاعِلْمَ عِنْدَهُ ... صَغِيرٌ إذا التَفَّتْ عَلَيْهِ المَحافِلُ

وقال الآخر :

فَتًى مِثْلُ صَفْوِ الماءِ لَيْسَ بِباخِلٍ ... عَلَيْكَ وَلا مُهْدٍ مَلاماً لِباخِلِ

وَلا قائِلٍ عوْرَاء تُؤْذِى رَفِيقَهُ ... وَلا رافِعٍ رَاساً بِعوْراء قائِلِ

ولا مُسْلِمٍ مَوْلًى لأَمْرٍ يُصِيبُهُ ... ولا خالِطٍ حَقًّا مُصِيباً بِباطِلِ

ولا رافِعٍ أُحدُوثَةَ السُّوءِ مُعْجِباً ... بِها بَيْنَ أَيْدِى المجْاِسِ المُتَقابِلِ

تَرَى أَهلَهُ فى نِعمَةٍ وهْوَ شاحِبٌ ... طَوِىُ البَطْنِ مِخْماصُ الضُّحَى والاصائِلِ

وقالت أخت يزيد بن الطثرية :

أرَى الأَثْلَ مِنْ بَطْنِ العَقِيقِ مُجاوِرِى ... قَرِيباً وقَدْ غالَتْ يَزِيدَ غَوائِلُهْ

فَتًى قُدَّ قَدَّ السَّيْفِ لامُتَضائِلٌ ... ولا رَهِلٌ لَبَّاتُهُ وبآدِلُهْ

فَتًى لايُرَى خَرْقُ القَمِيصِ بِخَصْرِهِ ... ولٰكِنَّما تُوهِى القَمِيصَ كَواهِلُهْ

إِذا نَزَلَ الأَضيافُ كانَ عَذَوَّراً ... عَلَى الحَىِّ حَتَّى تَسْتَقِلَّ مَراجِلُهْ

مَضَى فوَرِثْناهُ دَرِيسَ مُفاضَةٍ ... وأَبْيَضَ هِنْدِيًّا طَوِيلاً حَمائِلُهْ

يَسُرُّكَ مَظلوماً ويُرْضِيكَ ظالِماً ... وَكُلُّ الَّذِي حُمِّلتَه فَهْوَ حامِلُهْ

أخو الجِدِّ إِنْ جَدَّ الرِّجالُ وشَمَّروا ... وذو باطِلٍ إِنْ شِئتَ أَلهاكَ باطِلُهْ

يصير هذا الشعر وما أشبهه مما وقع فى هذا الباب الى الشعر الذى فى أول الفصل

﴿ باب شعر وغير ذلك من الكلام ، مما يدخل في باب الخطب ﴾

قال الشاعر :

عَجِبْتُ لأَقوَامٍ يَعِيبونَ خُطبَتِي ... وما مِنْهمْ فى مَوْقِفٍ بِخَطِيبِ

وقال الآخر :

إِنَّ الكَلامَ لَفِى الفؤادِ وإِنَّما ... جُعِلَ اللِّسانُ على الفؤادِ دَلِيلا

لايُعْجِبَنَّكَ مِنْ خَطِيبٍ قَوْلُهُ ... حَتَّى يَكُونَ مَعَ اللِّسانِ أَصِيلا

وأنشد الآخر

أَبَرَّ فما يَزْدادُ إلاّ حَماقةً ... ونَوْكاً وإنْ كانَتْ كَثيراً مَخارِجُهْ

وقد يكون رديء العقل جيد اللسان

وكان ابو العباس الاعمى يقول :

إذا وَصَفَ الاسلامَ أَحسَنَ وَصفَهُ ... بِفِيهِ ويأْبَى قَلْبُهُ ويُهاجِرُهْ

وإنْ قامَ قالَ الحَقَّ مادامَ قائماً ... تَقِيُّ اللِّسانِ كافِرٌ بَعْدُ سائِرُهْ

يقول انه يتيه عن قوله ويأباه ويهجره ، ويقول الحق على منبره بلسانه وسائره كافر

وقال قَيسُ بنُ عاصِمٍ المِنْقَرِيُّ يذكر ما في بني منقر من الخطابة :

إنّي امْرُؤٌ لايَعتَرِي خُلُقِي ... دَنَسٌ يُفَنِّدُهُ ولا أَفَنُ

مِن مِنْقَرٍ في بَيْتِ مَكْرُمَةٍ ... والأَصلُ يَنْبُتُ حَوْلَهُ الغُصُنُ

خُطَباءُ حِينَ يَقُومُ قائِلُهُمْ ... بِيضُ الوُجُوهِ مَصاقِعٌ لُسُنُ

لايَفْطُنُونَ لِعَيْبِ جارِهِمِ ... وَهُمُ لِحُسْنِ جِوارِهِمْ فُطُنُ

ومن هذا الباب ، وليس منه في الجملة، قول الاخر :

أشارَتْ بِطَرْفِ العَينِ خِيفَةَ أَهْلِها ... إشارَةَ مَذْعُورٍ ولَمْ تَتَكَلَّمِ

فأَيْقَنْتُ أَنَّ الطَّرْفَ قَدْ قالَ مَرْحَباً ... وأَهلاً وَسَهلاً بالحَبِيبِ المُسَلِّمِ

وقال نصيب :

يقولُ فَيُحسِنُ القَوْلَ ابْنُ لَيْلَى ... وَيفعَلُ فوْقَ أَحْسَنِ ما يَقولُ

وقال آخر :

أَلا رُبَّ خَصْمٍ ذِي فُنُونٍ عَلَوْتُهُ ... وانْ كانَ أَلْوَى يُشْبِهُ الحَقَّ باطِلُهْ

فهذا هو معنى قول العتابي : البلاغة إظهار ما غمض من الحق، وتصوير الباطل في صورة الحق . وقال الشاعر وهو كما قال :

عَجِبْتُ لإدْلالِ العَيِيِّ بِنَفسِهِ ... وَصَمْتِ الذي قد كانَ بالقَوْلِ أَعلَما

وفي الصَّمْتِ سَتْرٌ لِلعَيِيِّ وإنّمَا صَحِيفَةُ لُبِّ المرْءِ أنْ يتكلّمَا

وموضع الصحيفة من هذا البيت موضع ذكر العنوان فى شعره الذى رثى به عثمان ابن عفان رضي الله تعالى عنه ، يقول :

ضَحُّوا بأشْمَطَ عُنوانُ السُّجُودِ بهِ يُقطِّعُ اللّيْلَ تسْبيحاً وقرآنا

وأنشد أيضا :

ترَى الفِتْيانَ كالنّخلِ وما يدريكَ ما الدَّخلُ

وكلٌّ في الهوَى ليْثٌ وفيمَا نابَهُ فَسْلُ

وليْسَ الشأن في الوَصلِ ولَكِنْ أن يُرَى الفضلُ

وقال كِسرى أنو شِروان لِبُزُرْجمِهْرَ : أى الاشياء خير للمرء العيي؟ قال: عقل يعيش به . قال : فان لم يكن له عقل ؟ قال : فاخوان يسترون عليه . قال : فان لم يكن له اخوان ؟ قال : فمال يتحبَّب به الى الناس . قال : فان لم يكن له مال ؟ قال: فعى صامت . قال : فان لم يكن ذلك ؟ قال : فموت مريح

وقال موسى بن يحيى بن خالد : قال أبو على : رسائل المرء فى كتبه أدل على مقدار عقله ، وأصدق شاهد على غيبه لك ومعناه فيك من أضعاف ذلك على المشافهة والمواجهة

* (و باب آخر) *

ووصفوا كلامهم فى أشعارهم فجعلوه كبُرُودِ العَصْبِ ، وكالحلل والمعاطف والديباج والوشي وأشباه ذلك

وأنشدنى أبو الجماهر جندب بن مدرك الهلالى :

لا يُشتَرَى الحمدُ أُمنيَّةً ولا يُشترَى الحمدُ بالمقصرِ

ولكنّما يُشترَى غالياً فمَن يُعْطِ قيمته يَشترِ

ومَنْ يَعتَطِفْه على مِئزَرٍ فنِعمَ الرِّداءُ على المئزَرِ

وأنشدنى لابن ميادة :

نعمْ أنّنِى مُهْدٍ ثناءً ومِدْحَةً كبُرْدِ يمانٍ يُربِحُ البَيْعُ تاجِرَهْ

وانشدنى :

فَانْ أَهْلِكْ فَقَدْ أَبْقَيْتُ بَعْدِى قَوَافِىَ تُعْجِبُ المُتَمَثِّلِينَا

لَذِيذَاتِ المَقَاطِعِ مُحْكَمَاتٍ لو انّ الشِّعْرَ يُلْبَسُ لارْتُدِينَا

وقال ابوقردودة يرثى ابن عمار قتيل النعمان ووصف كلامه وقد كان نهاه عن منادمته :

إنّى نَهَيْتُ ابنَ عَمّارٍ وقلت لَه لاَ تَامَنَنْ أَحْمَرَ العَيْنَيْنِ والشَّعَرَهْ

إنّ الملوكَ مَتى تَنْزِلْ بساحتِهِمْ تَطِرْ بِنَارِكَ مِن نِيرَانِهِمْ شَرَرَهْ

يَا جَفْنَةً كإِزاءِ الحوضِ قدهدموا ومَنطقاً مِثلَ وَشى اليُمْنَةِ الحِبرهْ

وقال الشاعر فى مديح احمد بن ابى دؤاد :

وعويصٌ من الأُمورِ بهيمٌ غامض الشَّخصِ مظلمٌ مَستور

قد تَسهّلت ما توعَّر منه بلسانٍ يَزِينه التَّحبير

مِثل وشى البرود هلهلَه النَّسْـ ج وعندَ الحِجاجِ درٌّ نثير

حَسَنُ الصَّمْتِ والمَقَاطِعُ إِمَّا أنصتَ القَوْمُ والحديث يَدور

ثُمَّ مِنْ بَعْدُ لَحظَة تُورِث اليُسْـ رَ وعِرْضٌ مهذَّبٌ مَوْفُور

ومما يضم الى هذا وليس منه بعينه قول جميل بن معمر :

نَمَتْ في الرَّوَابِى مِن مَعَدٍّ وأَفلَجَتْ على الخَفِرَاتِ الغُرِّ وَهْىَ وَرِيد

أَنَاةٌ على نِيرَيْنِ أَضْحَى لدَاتُها بَلِينَ بَلاءَ الرَّيطِ وَهْىَ جَدِيدُ

نمت : شبت . الروابى من معد : البيوت الشريفة ، وأصل الرابية والرباوة ما ارتفع من الارض. وأفلجت: ظهرت وقهرت . الخفرات : الحييات

الاناة : المرأة التى فيها فتور عند القيام. وقوله:على نيرين وصفها، بالنموة كالثوب الذى ينسج على نيرين، وهو الثوب الذى له سديان كالديباج وما أشبه. أضحى لداتها، اللدة : القرينة فى المولد والمنشأ . فيقول : ان أقرانها قد بلين وهى جديد لحسن

غذائها ودوام نعمتها

ومن هذا الشكل وليس منه بعينه قول الشاعر :

عليٰ كلّ ذِي نيرَيْنِ زِيدَ مَحَالُهُ ... محَالاً وفى أضْلاعِهِ زِيد أضْلُعا

المحال : محال الظهر وهى فقاره ، واحدها محالة

وقال ابو يعقوب الخزيمى الاعور : أول شعر قلته هذان البيتان :

بِقلبي سَقَامٌ لَسْتُ أُحْسِن وصفه ... على أنه ماكان فهْو شَدِيد

تمرُّ به الأيَّام تَسْحَبُ ذَيْلها ... فَتبْلى به الأيَّامُ وَهوَ جَدِيد

وقال آخر ، وهو ابو الاسود الدؤلى :

أَبَى القلب إلاّ امَّ عمرٍو وحُبَّها ... عَجوزاً ومن يحبب عجوزاً يفنَّدِ

كبُرْدِ اليَماني قد تَقَادَمَ عَهْدُهُ ... وَرُقْعَتُهُ ما شئت في العين واليد

وقال ابن هَرمة :

إنَّ الأَدِيمَ الّذِى أَصْبَحْتَ تَعْرُكُه ... جَهْلاً لَذُو نَغَلٍ بَادٍ وَذُو حَلَمِ

وَلَنْ يُبَطَّ بِأيْدِى الخَالِقِين وَلاَ ... أيْدِى الخَوَالِقِ إلاَّ جَيِّدُ الأدَمِ

وفى غير هذا الباب وهو قريب منه قول ذى الرمة :

وفي قَفْرِ حجرٍ مِن ذُؤَابَة عَامِرٍ ... إمام هُدًى مُسْتَبْصِرُ الحُكْمِ عَادِلُهْ

كأنَّ عَلَى أعْطَافِهِ مَاءَ مُذهَبٍ ... إِذا سمل السّربال طارت رَعَابِلُهْ

الرعابل : القطع ، وشواء مرعبل أى مقطع ، ورعبلت الشيء أى قطعته .
ويقال : ثوب سمل وأسمال ، وأسمل الثوب وسمل اذا أخلق

وهو الذى يقول :

حَوْرَاء فى دَعَجٍ صَفْرَاء فِي نَعَجٍ ... كَأَنَّهَا فِضَّةٌ قَدْ مَسَّهَا ذَهَبُ

الحور : شدة بياض العين . والدعج : شدة سواد الحدقة . والنعج : اللين . قالوا لان المرأة الرقيقة اللون يكون بياضها بالغداة يضرب الى الحمرة ، و بالعشي يضرب الى الصفرة . ولذلك قال الا عشى :

بَيْضَاءُ ضَحْوَتَهَا وَصفْـ رَاءُ الْعَشِيـةِ كَالْعَرَارَهْ

وقال آخر :

قَدْ عَلِمَتْ بَيْضَاءُ صَفْرَاءُ الأُصُلْ لأُغْنِيَنَّ اليومَ مَا أَغْنَى رَجُـلْ

وقال بشار بن برد :

وخُـذِي مَلابسَ زِينَةٍ وَمُصَبَّغَاتٍ فَهْيَ أَفْخَرْ

وإِذَا دَخَلْتِ تَقَنَّعِي بِالْحُمْرِ إِنَّ الْحُسْنَ أَحْمَر

وهذان أعميان قد اهتديا من حقائق هذا الامر الى مالا يبلغه تمييز البصير. ولبشار خاصة فى هذا الباب ماليس لاحد، ولولا أنه فى « كتاب الرجل والمرأة » وفى « باب القول فى الانسان » فى « كتاب الحيوان » أليق وأذكى لذكرناه فى هذا الموضع . ومما ذكروا فيه الوزن قوله :

زِنِي الْقَوْمَ حَتَّى تَعْرِفِي عِنْدَ وَزْنِهِم إِذَا رُفِعَ الْمِيزَانُ كَيْفَ أَمِيلُ

وقال ابنُ الزَّبِيْرِ الأَسَدِيُّ :

أَعَاذِلَ غُضِّي بَعْضَ لَوْمِكِ إِنَّنِي أَرَى الْمَوْتَ لاَ يَرْضَى بِدَيْنٍ وَلاَ رَهْنِ

وإِنِّي أَرَى دَهْراً تَغَيَّرَ صَرْفُهُ وَدُنْيَا أَرَاهَا لاَ تَقُومُ عَلَى وَزْنِ

﴿ باب آخر ﴾

ويذكرون الكلام الموزون ويمدحون به، ويفضلون اصابة المقادير ويذمون الخروج من التبوبل . قال جعفر بن سليمان : ليس يطيب الطعام بكثرة الانفاق وجودة التوابل ، وانما الشأن فى اصابة القدر . وقال الشاعر، وهو عارق بن أثال الطائى :

مَا إِنْ يَزَالُ بِبَغْدَادٍ يُزَاحِمُنَا عَلَى الْبَرَاذِينِ أَشْبَاهُ الْبَرَاذِينِ

أَعْطَاهُمُ اللهُ أَمْوَالاً وَمَنْزِلَةً مِنَ الْمُلُوكِ بِلاَ عَقْلٍ وَلاَ دِينِ

مَا شِئْتَ مِنْ بَغْلَةٍ شَقْرَاءَ نَاجِيَةٍ أَوْ مِنْ أَثَاثٍ وَقَوْلٍ غَيْرِ مَوْزُونِ

وأنشد بعض الشعراء :

رَأَتْ رَجُلاً أَوْدَى السِّفَارُ بِجِسْمِهِ ... فَلَمْ يَبْقَ إلاَّ مَنْطِقٌ وَجَنَاجِنُ

إِذَا حُسِرَتْ عَنْهُ الْعِمَامَةُ رَاعَهَا ... جَمِيلُ الْخُفُوقِ أَغْفَلَتْهُ الدَّوَاهِنُ

فَإِنْ أَكُ مَعْرُوقَ الْعِظَامِ فَإِنَّنِي ... إِذَا مَاوَزَنْتُ الْقَوْمَ بِالْقَوْمِ وَازِنُ

الجناجن : عظام الصدر

قال مَالِكُ بنُ أَسْمَاءَ فى بعض نسائه ، وكانت تصيب الكلام كثيرا ، وربما لحنت :(١)

أَمُغَطًّى مِنِّى عَلَى بَصَرِى لِلْحُبِّ ... أَمْ أَنْتِ أَكْمَلُ النَّاسِ حُسْنَا

وَحَدِيثٍ أَلَذُّهُ هُوَ مِمَّا ... يَنْعَتُ النَّاعِتُونَ يُوزَنُ وَزْنَا

مَنْطِقٌ عَاقِلٌ وَتَلْحَنُ أَحْيَا ... نًا وَخَيْرُ الْحَدِيثِ مَا كَانَ لَحْنَا

وقال طَرَفَةُ فى المقدار وإصابته :

فَسَقَى دِيَارَكِ غَيْرَ مُفْسِدِهَا ... صَوْبُ الرَّبِيعِ وَدِيمَةٌ تَهْمِى

طلب الغيث على قدر الحاجة ،لان الفاضل ضار . وقال النبى ﷺ فى دعائه « اللهم اسقنا سقيا نافعا » لان المطر ربما جاء فى غير إبان الزراعات ، وربما جاء والتمر فى الجرن والطعام فى البيادر ، وربما كان فى الكثرة مجاوزاً لمقدار الحاجة . وقال النبى ﷺ « اللهم حوالينا ولا علينا » وقال بعض الشعراء لصاحبه : أنا أشعر منك . قال : ولم ؟ قال : لانى أقول البيت وأخاه وتقول البيت وابن عمه . وعاب رؤبة شعر ابنه عقبة فقال : ليس له قران . وجعل البيت أخا البيت اذا أشبهه وكان حقه أن يوضع الى جنبه ، وعلى ذلك التأويل قال الاعشى :

أَبَا مِسْمَعٍ أَقْصِرْ فَإِنَّ قَصِيدَةً ... مَتَى تَأْتِكُمْ تَلْحَقْ بها أخواتها

قال الله عز وجل « وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا »

وقال عمرو بن معد يكرب :

(١) راجع ص ١١٢

وَكلُّ أخٍ مُفارِقُهُ أخُوهُ   لَعَمرُ أبيكَ إلاَّ الفَرْقَدَانِ

وقالوا فيما هو أبعد معنى وأقل لفظاً ، قال الهذلى :

أعامرُ لا آلُوكَ إلاَّ مُهَنَّداً   وجِلدُ أبِي عِجْلٍ وثيقُ القَبائِلِ

يعنى بأبى عجل : الثور .

وقالوا ما هو أبعد من هذا ، قال ابنُ عَسَلَة الشَّيْبَانِيُّ واسمه عبدُ المسيح :(١)

وسَماعِ مُدْجِنَةٍ تُعَلِّلُنا   حتّى نَنامَ تَناوُمَ العُجْمِ

فَصَحَوْتُ والنَّمَرِيُّ يَحْسَبُها   عَمَّ السِّماكِ وخالَةَ النَّجْمِ

النجم : واحد وجمع ، والنجم : الثريا فى كلا العرب . مدجنة : أى سحابة دائمة

وقال أبو النجم فيما هو أبعد من هذا ووصف العير ، والمعيور الموضع الذى يكون

فيه الأعيار :   وظلَّ يُوفِي الأَكَمَ ابنُ خالِها

فهـذا مما يدل على توسعهم فى الكلام ،وحمل بعضه على بعض ،واشتقاق بعضه من بعض . وقال النبي ﷺ « نعمت العمة لكم النخلة » كأن بينها وبين الانسان تشابه وتشاكل من وجوه . وقد ذكرنا ذلك فى « كتاب الزرع والنخل » وفى مثل ذلك قال بعض الفصحاء :

شَهِدْتُ بأنَّ التَّمْرَ بالزُّبْدِ طَيِّبٌ   وأنَّ الحُبارَى خالَةُ الكِرْوانِ

لان الحبارى وان كانت أعظم بدنا من الكروان فان اللون وعمود الصورة واحد ،فلذلك جعلها خالته، ورأى أن ذلك قرابة تستحق بها هذا القول

﴿ باب آخر من الشعر ﴾

مما قالوا فى الخطب واللسن والامتداح به والمديح عليه

قال كعب الاشقرى :

إلاَّ أكُنْ فِى الأرْضِ أخْطُبُ قائِماً   فَإِنِّى عَلى ظَهْرِ الكُمَيْتِ خَطيبُ

(١) انظر قصيدة عبد المسيح بن عسلة مشروحة بقلمنا فى المفضليات ص ١٣٣

وقال ثابت قطنة :

فإلاّ أكُنْ فيكُمْ خطيباً فإنّني   بسُمْرِ القنَا والسَّيفِ جِدُّ لَعُوبِ

وقالت ليلى الاخيلية :

حتّى إذَا رُفِعَ اللّوَاءُ رَأيْتَهُ   تحْتَ اللّوَاءِ على الخَميسِ زَعِيمَا

وقال الآخر :

عَجِبْتُ لأقْوَامٍ يَعِيبُونَ خُطْبَتِي   وَما مِنْهُمْ فِي مَأقِطٍ بِخَطِيبِ

وهؤلاء يفخرون بخطبهم التى عليها يعتمدون بالسيوف والرماح ، وان كانوا خطباء

وقال دُرَيْدُ بنُ الصِّمَّةِ :

أبْلِغ نُعَيْماً وَأوْفَى إنْ لَقِيتَهُمَا   إنْ لَمْ يكُن كانَ فِي سَمْعَيْهِمَا صَمَمُ

فَلا يَزَالُ شِهَابٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ   يَهدِي المَقَانِبَ مالمْ يُهْلِكِ الصَّمَمُ

عَارِي الأشاجِعِ مَعصُوبٌ بِلِمَّتِهِ   أمرُ الزَّعَامَةِ فِي عِرْنِينِهِ شَمَمُ

المقانب: جمع مقنب ، والمقنب الجماعة من الخيل ليست بالكثيرة. الاشاجع : عروق ظاهر الكف ، وهى مغرز الاصابع . اللمة : الشعيرة التى ألمت بالمنكب . زعيم القوم : رأسهم وسيدهم الذى يتكلم عنهم ، والزعامة مصدر الزعيم الذى يسود قومه . وقوله : معصوب بلمته ، أى يعصب برأسه كل أمر. عرنينه : انفه

وقال أبو العباس الاعمى مولى بنى بكر بن عبد مناف فى بنى عبد شمس :

لَيْتَ شِعْرِي أفَاحَ رائحَةُ المِسْـ   ـكِ ما إنْ اخَالُ بِالخَيْفِ أُنْسِي

حِينَ غَابَتْ بَنُو أُمَيَّةَ عنْهُ   والبَهَالِيلُ مِن بَنِى عَبْدِ شَمْسِ

خُطَبَاءٌ عَلَى المَنَابِرِ فُرْسَا   نٌ عَلَيهَا وَقَالَةٌ غيْرُ خُرْسِ

لا يُعَابُون صَامِتِينَ وَإن قَا   لُوا أصَابُوا وَلَمْ يَقُولُوا بِلَبْسِ

بِحُلُومٍ إذا الحُلُومُ استخفَّتْ   وَوُجُوهٍ مِثْلِ الدَّنَانِيرِ مُلْسِ

وقال العَجَّاجُ :

وحَاصِنٍ مِنْ حَاصِنَاتٍ مُلْسِ مِنَ الأذَى ومِنْ قِرَافِ الوَقْسِ

المحصنة : ذات الزوج : والحاصن العفيفة . والوقس : الجرب

وقال امرؤ القيس بن حجر :

ويارُبَّ يَوْم قدْ أروحُ مرجلاً حَبِيباً إِلَى الْبِيضِ الكَوَاعِبِ أمْلَسَا

وقال أبو العباس الاعمى :

ولَمْ أرَ حَيًّا مِثْلَ حَيٍّ تَحَمَّلُوا إِلَى الشَّامِ مَظْلُومِينَ مُنْذُ بُرِيتُ

أعزَّ وأمْضَى حِينَ تَشْتَجِرُ القَنَا وأعلمَ بالمِسْكِينِ حَيْثُ يَبِيتُ

وأرفَقَ بالدُّنيَا بأولَى سِيَاسَةٍ إِذا كادَ أمْرُ المسلمينَ يَفُوتُ

إذا ماتَ مِنهم سَيِّدٌ قامَ سَيِّدٌ بَصِيرٌ بِعَوْرَاتِ الكَلامِ زَمِيتُ

وقال آخر :

لايَغْسلُ العِرضُ مِنْ تَدَنسِهِ والثَّوبُ إِنْ مَسَّ مَدْنساً غُسِلا

وزَلَّةُ الرِّجْلِ تُسْتَقالُ ولاَ يَكَادُ رَأْيٌ يُقِيلُكَ الزَّلَلا

وقال آخر في الزلل :

أَلهفِى إِذْ عَصَيْتُ أبَا يَزِيدِ ولَهفِى إِذْ أطَعْتُ أبَا العَلاءِ

وكانَتْ هَفْوَةً مِنْ غَيْرِ رِيحٍ وكانَتْ زَلَّةً مِنْ غَيرِ مَاءِ

وقال آخر :

فانَّكَ لَمْ يُنْذِرْكَ أمرٌ تَخَافُهُ إذا كُنْتَ فِيهِ جَاهِلاً مِثْلُ خابِرِ

وقال ابن وابصة ـ واسمه سالم ـ فى مقام قام فيه مع ناس من الخطباء :

يا أيُّهَا المُتَحَلِّى غَيْرَ شِيمَتِهِ ومَنْ سَجِيَّتُهُ الاكْثارُ والملَقُ

أعمدْ إلى القَصدِ فِيمَا أنتَ رَاكِبُهُ إِنَّ التَّخَلُّقَ يَأْبِي دُونَهُ الخُلُقُ

صَدَّتْ هُنَيْدَةُ لَمَّا جِئْتُ زائِرَهَا ... عَنِّي بِمَطْرُوفَةٍ إنسانُها غَرِقُ

وَرَاعَهَا الشَّيبُ فِي رَأسِي فَقُلْتُ لَهَا ... كَذَاكَ يَصْفَرُّ بَعْدَ الخُضْرَةِ الوَرَقُ

بَلْ مَوْقِفٍ مِثلِ حَدِّ السَّيفِ قُمْتُ بِهِ ... أَحمِي الذِّمَارَ وتَرْمِينِي بِهِ الحَدَقُ

فَمَا زَلَلْتُ وَلا أُلْفِيتُ ذا خَطَلٍ ... إذا الرِّجَالُ على أَمْثَالِهَا زَلِقُوا

وأنشد أعرابي من باهلة:

سَأُعْمِلُ نَصَّ العِيسِ حَتَّى يَكُفَّنِي ... غِنَى المالِ يَوْماً أو غِنَى الحَدَثَانِ

فَلَلْمَوْتُ خَيرٌ مِنْ حَياةٍ يُرَى لَهَا ... على الحُرِّ بالإقلالِ وَسْمُ هَوَانِ

مَتَى يَتَكَلَّمْ يُلْغَ حُكْمُ كَلَامِهِ ... وإنْ لمْ يَقُلْ قَالُوا عَدِيمُ بَيَانِ

كأَنَّ الغِنَى في أهلِهِ بُورِكَ الغِنَى ... بِغَيرِ لِسَانٍ نَاطِقٌ بِلِسَانِ

وفي مثلها، في بعض الوجوه، قول عروة بن الورد:

ذَرِينِي لِلْغِنَى أَسْعَى فَإِنِّي ... رَأَيْتُ النَّاسَ شَرُّهُمُ الفَقِيرُ

وأَهْوَنُهُمْ وأَحْقَرُهُمْ لَدَيْهِمْ ... وإِنْ أَمْسَى لهُ نَسَبٌ وخِيرُ

ويُقْصَى في النَّدِيِّ وتَزْدَرِيهِ ... حَلِيلَتُهُ ويَنْهَرُهُ الصَّغِيرُ

ويُلْفَى ذُو الغِنَى ولهُ جَلالٌ ... يَكَادُ فُؤَادُ صَاحِبِهِ يَطِيرُ

قَلِيلٌ ذَنْبُهُ وَالذَّنْبُ جَمٌّ ... ولكِنْ لِلْغِنَى رَبٌّ غَفُورُ

وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنه: الهوى إله معبود. وتلا قوله عز وجل «أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ»

وقال أبو الأعور سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل:

تِلْكَ عِرْسَايَ تَنْطِقَانِ على عَمْـ ... ـدٍ الى اليَوْمِ قَوْلَ زُورٍ وَهِتْرِ

سَالَتَانِي الطَّلَاقَ أَنْ رَأَتَا مَا ... لِي قَلِيلاً؟ قَدْ جِئْتُمَانِي بِنُكْرِ

فَلَعَلِّي أَنْ يَكْثُرَ المَالُ عِنْدِي ... ويُعَرَّى مِنَ المَغَارِمِ ظَهْرِي

وتُرَى أعْبُدٌ لنا وأوَاقٍ ومَنَاصِيفُ مِنْ خَوَادِمَ عَشْرِ
ونَجُرُّ الأذْيَالَ في نِعْمَةٍ زَوْ لٍ تَقُولاَنِ: ضَعْ عَصَاكَ لِدَهْرِ
وَيْكأَنْ مَنْ يَكُنْ له نَشَبٌ يُحْـ ـبَبْ وَمَنْ يَفْتَقِرْ يَعِشْ عَيْشَ ضُرِّ
ويُجَنَّبْ سِرَّ النَّجِيِّ ولكِنْ أخَا المالِ مُحْضَرٌ كلَّ سِرِّ

المناصيف: الخدم، واحدهم منصف وناصف، وقد نصف القوم ينصفهم نصافة اذا خدمهم. نعمة زول: حسنة، والزول: الخفيف الظريف، وجمعه أزوال

وقال عَبِيدُ بنُ الأبْرَص فى نحو هذا وليس كمثله:

تِلْكَ عِرْسِي غَضْبَى تُرِيدُ زِيَالِي أَلِبَيْنٍ تُرِيدُ أَمْ لِدَلالِ ؟
إِنْ يَكُنْ طِبُّكِ الفِرَاقَ فلاأحْـ ـفِلُ أَنْ تَعْطِفِي صُدُورَ الجِمَالِ
كُنْتِ بَيْضَاءَ كالمهاةِ وإِذْ آتِيكِ نَشْوانَ مُرْخِياً أذْيَالِي
فاتْرُكِي مَطَّ حاجِبَيْكِ وعِيشِي مَعَنَا بالرَّجَاءِ والتَّأْمَالِ
زَعَمَتْ أنّنِي كَبِرْتُ وأَنِّي قَلَّ مَالِي وَضَنَّ عَنِّي الموالِي
وصَحا بَاطِلِي وأصْبَحتُ شَيْخاً لايُوَاتِي أمثالَهَا أمْثَالِي
إِنْ تَرَيْنِي تَغَيَّرَ الرَّأْسُ مِنِّي وعلاَ الشَّيْبُ مَفْرِقِي وقَذالِي
فبِمَا أَدْخُلُ الخِبَاءَ علَى مَهْـ ـضُومَةِ الكَشْحِ طِفْلَةٍ كالغَزَالِ
فَتَعَاطَيْتُ جِيدَهَا ثُمَّ مالَتْ مَيلانَ الكَثِيبِ بينَ الرِّمالِ
ثُمَّ قالتْ: فِدًى لِنَفْسِكَ نفسِي وفِدَاءٌ لِمَالِ أهْلِكَ مَالِي

الكشح: الخصر. وقوله مهضومة: أراد لطيفة. والطفلة: الرخصة الناعمة

وخرج عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه من داره يوما، وقد جاء عامر ابن عبد قيس فقعد فى دهليزه، فلما رأى شيخاً دميماً أشغى ثطاً فى عباءة فنكره وأنكر مكانه، فقال: يا أعرابى، أين ربك؟ قال: بالمرصاد

والشغي :تراكب الاسنان واختلافها . ثط : صغير اللحية

يقال أن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه لم يفحمه أحد قط غير عامر بن عبد قيس

ونظر مُعاوية الى النَّخَّار بن أوْس العُذْريّ الخطيب الناسب فى عباءة فى ناحية من مجلسه ، فانكره وأنكر مكانه، زراية منه عليه ، فقال : من هذا ؟ فقال النخار : يا أمير المؤمنين، ان العباءة لا تكلمك إنما يكلمك من فيها

قال ونظر عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه الى هَرِم بن قُطبَةَ ملتفا فى بت فى ناحية المسجد ، ورأى دمامته وقلته ، وعرف تقديم العرب له فى الحكم والعلم ، فأحب ان يكشفه ويسبر ما عنده ، فقال : أرأيت لو تنافرا اليك اليوم أيهما كنت تنفر؟ يعنى علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل . فقال : يا امير المؤمنين، لو قلت فيهما كلمة لأعَدْتها جَذَعَةَ (١) فقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه : لهذا العقل تحاكمت اليك العرب . ونظر عمر الى الأحنف وعنده الوفد ، والأحنف ملتف فى بتّ له ، فترك جميع القوم واستنطقه ، فلما تَبَعَّقَ منه مَا تَبَعَّقَ ، وتكلم بذلك الكلام البليغ المصيب ، وذهب ذلك المذهب ، لم يزل عنده فى علياء ، ثم صار الى أن عقد له الرياسة ثابتاً له ذلك الى أن فارق الدنيا

ونظر النعمان بن المنذر الى ضَمْرَةَ بن ضَمْرَةَ فلما رأى دمامته وقلته قال : تسمع بالمعيدى لا أن تراه. هكذا تقول العرب . فقال ضمرة : أبيت اللعن ، إن الرجال لا تكال بالقفزان ، وانما المرء بأصغريه لسانه وقلبه . وكان ضمرة خطيباً، وكان فارساً شاعراً شريفاً سيداً

وكان لرّمق بْنُ زَيْدٍ مدح أبا جُبيلة الغسانى ، وكان الرمق دميما قصيراً ، فلما أنشده وحاوره قال : عسل طيب فى ظرف سوء

قال وتكلم عَلْبَاء بْنُ الْهَيْثَم السَّدُوسِيُّ لدى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، وكان علباء أعور دميما ، فلما رأى براعته وسمع بيانه أقبل عمر يصعد فيه بصره ويحدّره ، فلما خرج قال عمر : لكل أناس فى جميلهم خبرة

قال أبو عثمان : وأنشدت سهل بن هرون قول سلمة بن خُرْشُبٍ وشعره الذى أرسل به إلى سُبيع التغلبى فى شأن الرّهن التى وضعت على يديه فى قتال عبس وذبيان ، فقال سهل بن هرون : والله لكأنه قد سمع رسالة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه الى أبي موسى الاشعرى فى سياسة القضاء وتدبير الحكم . والقصيدة قوله:

(١) يعنى لأعاد فتنة المنافرة بين قبائلهما، كما كانت فى أول أمرها

أبلغ سُبَيْعاً وأنتَ سَيِّدُنا قِدماً وأوفى رجالِنا ذِمَما

أنَّ بَغيضاً وأبـنَّ إخوتها ذُبيانَ قد ضَرَّموا الذي اضطرما

نُبِّئْتُ أنْ حكَّمُوكَ بَيْنَهُمُ فَلَا يَقُولُنَّ بِئْسَ ما حَكَما

إنْ كُنتَ ذا خِبْرَةٍ بِشأْنِهِم تَعْرِفُ ذا حَقِّهِمْ ومَنْ ظَلَما

وتُنْزِلُ الأمْرَ في مَنازِلِهِ حُكْماً وعِلْماً وتُحْضِرُ الفَهَما

وَلا تُبالِي مَنِ الْمحِقُّ وَلاَ الْمُبْطِلُ لاَ إلَّةً ولا ذِمَما

فاحْكُمْ وأنْتَ الحَكِيمُ بينهمُ لَنْ تَعْدَمُوا الْحكمَ ثابتاً صَتِما

واصْدَعْ أدِيمَ السَّوَاءِ بَيْنَهُمُ على رِضَا مَنْ رَضِي ومنْ رُغِما (١)

إنْ كانَ مالاً فَفَضَّ عِدَّتَهُ مالاً بِمَالٍ وإنْ دَماً فَدَما

حتّى تَرَى ظاهِرَ الحُكُومَةِ مِثْلَ الصُّبْحِ جلَّى نَهارُهُ ظُلَما

هٰذَا وإنْ لَمْ تُطِقْ حُكُومَتَهُمْ فانْبِذْ إلِيهمْ أُمُورَهُمْ سَلَما

الصتم: الصحيح القوى، يقال: رجل صتم، اذا كان شديداً

وقال العايشي كان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أعلم الناس بالشعر، ولكنه إذ ابتلى بالحكم بين النجاشي والعجلاني، وبين الحطيئة والزبرقان، كره أن يتعرض للشعراء، واستشهد رجالا للفريقين مثل حسان بن ثابت وغيره ممن تهون عليه سبالهم، فاذا سمع كلامهم حكم بما يعلم، وكان الذى ظهر من حكم ذلك الشاعر مقنعاً للفريقين، ويكون هو قد تخلص بعرضه سالما، فلما رآه من لاعلم له يسأل هذا وهذا ظن أن ذلك لجهله بما يعرف غيره. ولقد أنشدوه شعراً لزهير، وكان لشعره مقدماء فلما انتهوا الى قوله:

وإنَّ الْحَقَّ مَقْطَعُهُ ثَلاثٌ يَمِينٌ أوْ نِفارٌ أوْ جَلاءُ

قال عمر كالمتعجب من علمه بالحقوق وتفصيله بينها، وإقامته أقسامها —:

وانّ الحقّ مقطعه ثلاث يمين أو نفار أو جلاء ؟

---

(١) فى الاصل «زعما» وخطأها بين والصواب «رُغما» كما أثبتناه

يردد البيت من التعجب

وأنشدوه قصيدة عَبْدَةَ بنِ الطّبِيبِ الطويلة التى على اللام ، فلما بلغ المنشد إلى قوله :

وَالْمَرْءُ ساعٍ لِأَمْرٍ ليسَ يُدْرِكُهُ والْعَيْشُ شُحٌّ وإِشْفاقٌ وتَأْمِيلُ(١)

قال عمر متعجباً : والعيشُ شحّ واشفاق وتأميل ؟

يعجبهم من حسن ما قسم وفصل . وأنشدوه قصيدة أبى قيس بن الاسلت التى على العين وهو ساكت ، فلما انتهى المنشد إلى قوله :

الكَيْسُ والْقُوَّةُ خَيْرٌ مِنَ ال إِشْفاقِ والفَهَّةِ والْهاعِ (٢)

أعاد عمر البيت وقال :

الكيس والقوّه خير من ال إشفاق والفهّة والهاع

وجعل عمر يردد البيت ويتعجب منه . قال محمد بن سلام الُجمحى عن بعض أشياخه : قال كان عمر بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه لا يكاد يعرض له أمر الا أنشد فيه بيت شعر

وقال عمر بن العلاء : كان الشاعر فى الجاهلية يقدم على الخطيب بفرط حاجتهم الى الشعر الذى يقيد عليهم مآثرهم ، ويفخم شأنهم ، ويهول على عدوهم ومن غزاهم ، ويهيب من فرسانهم ، ويخوف من كثرة عددهم ، ويهابهم شاعر غيرهم ، فيراقب شاعرهم، فلما كثر الشعر والشعراء، واتخذوا الشعر مكسبة، ورحلوا إلى السوقة، وتسرعوا الى أعراض الناس، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر. ولذلك قال الاول : الشعر أدنى مُروءة السرىّ ، وأسرى مُروءة الدني

قال : ولقد وضع قول الشعر من قدر النابغة الذبيانى ، ولو كان فى الدهر الاول مازاده ذلك الا رفعة

وروى مجالد عن الشعبي قال : ما رأيت مثلى، ما أشاء أن ألقى رجلا أعلم منى بشيء الا لقيته . وقال الحسن البصرى : يكون الرجل عابدا ولا يكون عاقلا ، ويكون عابدا عاقلا ولا يكون عالما ، وكان مسلم بن يسار عاقلا عابدا عالما . وكان يقال : فقه الحسن ، وورع ابن سيرين ، وعقل مطرف ، وحفظ قتادة . وذكرت البصرة

(١) انظر القصيدة بأكملها مشروحة بقلمنا فى المفضليات التى شرحناها ونشرناها حديثاً

(٢) فى المفضليات : الفكة ، بدل الفهة ، وانظر القصيدة بها مشروحة بقلمنا

فقيل : شيخها الحسن ، وفتاها بكر بن عبد الله المزنى.والذين بثوا العلم فى الدنيا أربعة : قتادة، والزهرى،والاعمش، والكلبي. وجمع سليمان بن عبد الملك بين قتادة والزهرى ، فغلب قتادة الزهرى ، فقيل لسليمان فى ذلك فقال : انه فقيه مليح . فقال القحذمى : لا ، ولكنه تعصب للقرشية ولانقطاعه اليهم ولروايته فضائلهم . وكان الاصمعى يقول :وصلت بالعلم، ونلت بالملح . وكان سهل بن هرون يقول : اللسان البليغ والشعر الجيد لا يكاد ان يجتمعان فى واحد،وأعسر من ذلك أن يجتمع بلاغة الشعر وبلاغة القلم . والمسجديون(١) يقولون:من تمنى رجلا حسن العقل ، وحسن اللسان ، وحسن القلم ، تمنى شيأ عسيرا

﴿ باب ﴾

وكانوا يعيبون النَّوْكَ والعِي والحُمق وأخلاق النساء والصبيان

قال الشاعر :

إذا مَا كُنْتَ متَّخذاً خَلِيلاً ... فَلاَ تَثِقَنْ بِكُلِّ أَخى إِخَاء

فانْ خُيِّرْتَ بَيْنَهُمُ فأَلْصِقْ ... بأهْلِ العَقْلِ مِنْهُمْ والْحَيَاءِ

فانَّ العَقْلَ لَيْسَ لَهُ إِذا مَا ... تَفَاضَلَتِ الْفَضَائِلُ مِنْ كِفَاء

فانَّ النَّوْكَ لِلأَحْسَابِ غَوْلٌ ... وأَهْوَنُ دائِهِ داء العِيَاء

ومَنْ تَرَكَ الْعَوَاقِبَ مُهْمَلاتٍ ... فأَيْسَرُ سَعْيِهِ سَعْىُ الْعَنَاء

فَلا تَثِقَنَّ بِالنَّوكى لِشَيْء ... ولَوْ كانُوا بَنِى ماءِ السَّماء

فَلَيْسُوا قابِلِى أدَبٍ فَدَعْهُمْ ... وكُنْ مِنْ ذَاكَ مُنْقَطِعَ الرَّجَاءِ

وقال الاخر فى التضييع والنوك :

فَعِشْ فى جَدِّ أَنْوَكَ ساعَدَتْهُ ... مَقَادِيرٌ يُخالِفُهَا الصَّوَابُ

ذَهابُ الْمَالِ فِى حَمْدٍ وأَجْرٍ ... ذَهَابٌ لايُقالُ لَهُ ذَهَابُ

وأنشد فى ذلك :

---

(١) كان المسجديون قوم يجلسون فى مسجد البصرة كما كان أهل الصفة يجلسون فى مسجد المدينة ولهم أحاديث

أَرَى زَمَنًا نَوْكاهُ أَسْعَدُ أَهْلِهِ   وَلـٰكِنَّمَا يَشْقَى بِهِ كُلُّ عاقِلِ
مَشَى فَوْقَهُ رِجْلاهُ والرَّأْسُ تَحْتَهُ   فَكَبَّ الأَعالِي بِارْتِفاعِ الأَسافِلِ

وقال الآخر :

ولَمْ أَرَ مِثْلَ الفَقْرِ أَوْضَعَ لِلْفَتَى   ولَمْ أَرَ مِثْلَ الْمالِ أَرْفَعَ لِلرَّذْلِ
ولَمْ أَرَ عِزًّا لامْرِئٍ كَعَشِيرَةٍ   ولَمْ أَرَ ذُلًّا مِثْلَ نَأْيٍ عَنِ الأَهْلِ
ولَمْ أَرَ مِنْ عُدْمٍ أَضَرَّ على امْرِئٍ   إِذا عاشَ وَسْطَ النَّاسِ مِنْ عَدَمِ الْعَقْلِ

وقال الاخر :

تَحامَقْ مَعَ الْحَمْقَى إِذا ما لَقِيتَهُمْ   وَلا تَلْقَهُمْ بِالْعَقْلِ إِنْ كُنْتَ ذا عَقْلِ
فَإِنِّي رَأَيْتُ الْمَرْءَ يَشْقَى بِعَقْلِهِ   كَما كانَ قَبْلَ الْيَوْمِ يَسْعَدُ بِالْعَقْلِ

وقال الاخر :

وأَنْزَلَنِي طُولُ النَّوَى دارَ غُرْبَةٍ   إِذا شِئْتُ لاقَيْتُ امْرأً لا أُشاكِلُهْ
فَحامَقْتُهُ حَتَّى يُقالَ سَجِيَّةٌ   ولَوْ كانَ ذا عَقْلٍ لَكُنْتُ أُعاقِلُهْ

وقال بشر بن المعتمر وأنشد :

وإِذا الغَبِيُّ رَأَيْتَهُ مُسْتَغْنِيًا   أَعْيا الطَّبِيبَ وحِيلَةَ الْمُحْتالِ

وأنشدني آخر :

ولِلدَّهْرِ أَيَّامٌ فَكُنْ في لِباسِهِ   كَلِبْسَتِهِ يَوْمًا أَجَدَّ وأَخْلَقا
وكُنْ أَكْيَسَ الْكَيْسَى إِذا كُنْتَ فِيهِمِ   وإِنْ كُنْتَ في الْحَمْقَى فَكُنْ أَنْتَ أَحْمَقا

وأنشدني آخر :

ولا تَقْرَبِي يا بِنْتَ عَمِّيَ بُوهَةً   مِنَ الْقَوْمِ دِفْناسًا غَبِيًّا مُفَنَّدا
وإِنْ كانَ أَعْطَى رَأْسَ سِتِّينَ بَكْرَةً   وحُكْمًا على حُكْمٍ وعَبْدًا مُوَلَّدا
أَلا فاحْذَرِي لا تُورِدَنَّكِ هَجْمَةٌ   طِوالُ الذُّرَى جِبْسًا مِنَ الْقَوْمِ قُعْدُدا

وأنشدنى آخر :

كَسا اللهُ حَيَّىْ تَغْلِب ابْنَةِ وائِلٍ مِنَ اللُّؤْمِ أظْفاراً بَطِيئاً نُصُولُها

إذا ارْتَحَلُوا عَنْ دَارِ ضَيْمٍ تعاذَلُوا عَلَيْها وَرَدُّوا وَفْدَهُمْ يَسْتَقِيلُها

وأنشدنى آخر :

وإنَّ عَناءً أنْ تُفَهِّمَ جاهِلاً وَيَحْسَبَ جَهْلاً أنَّهُ مِنْكَ أفْهَمُ

وقال جرير :

وَلاَ يَعْرِفُونَ الشَّرَّ حتّى يُصِيبَهُمْ ولا يَعْرِفُونَ الأمْرَ الاَّ تَدَبُّرا

وقال الأعرج المعنى الطائى :

لَقَدْ عَلِمَ الأقوامُ أنْ قَدْ قَدَرْتُمُ وَلَمْ تَبْدَأُوهُمْ بالمظالِمِ أوَّلاَ

فَكُونُوا كَدَاءٍ كَرَّةٍ بَعْدَ فَرَّةٍ ألاَ رُبَّ مَنْ قَدْ فَرَّ ثُمَّتَ أقْبَلاَ

فانْ أنْتُمُ لَمْ تَفْعَلُوا فَتَبَدَّلُوا بِكُلِّ سِنانٍ مَعْشَرَ العُرْبِ مِغْزَلا

وأعطُوهُمُ حكمَ الصَّبِيِّ بأهـلِهِ وانِّى لأرجُو أن يَقُولوا بأنَّ لاَ

ويقال : أظلم من صبى ، وأكذب من صبى ، وأخرق من صبى

وأنشد :

وَلاَ تَحـكُما حُكْمَ الصَّبِيِّ فإنَّه كَثِيرٌ على ظَهْرِ الطَّرِيق مَجَاهِلِه

سئل دَغفَلٌ عن بنى عامر فقال : أعناق ظباء ، وأعجاز نساء . قيل : فما تقول فى أهل اليمن ؟ قال : سَيـدٌ وأنوكُ .

﴿ باب في ذكر المعلمين ﴾

من أمثال العامة : أحمق من مُعلم كتاب . وقد ذكرهم صقلاب [فقال] :

وَكَيفَ يُرجَّى العَقلُ والرَّأىُ عِندَ مَن يَرُوحُ على أنثى وَيَغدُو عَلى طِفل

وفى قول بعض الحكماء : لا تستشيروا معلما ، ولا راعى غنم ، ولا كثير القعود مع النساء . وقال: لا تدع أم صبيّك تضربه ، فانه أعقل منها ، وان كانت أسن منه .

وقد سمعنا فى الامثال : أحمق من راعى ضان ثمانين

فاما استحماق رُعاة الغنم فى الجملة، فكيف يكون ذلك صوابا وقد رعى الغنمَ عِدّةٌ من جِلة الانبياء عليهم السلام ؟ ولعمرى ان الفدّادين من أهل الوبر ورُعاة الابل ليتلومون على رعاة الغنم، ويقول أحدهم لصاحبه : إن كنت كاذبا فحلبت قاعداً

وقال الآخر :

تَرَى حَالِبَ المِعزَى اذَا صَرَّ قَاعِداً ... وَحالبهنَّ القائِمُ المتَطاوِلُ

قالت امرأة من غامد فى هزيمة ربيعة بن مُكدّم لجمع غامد وحده :

ألاَ هَل أتَاهَا على نأيِهَا ... بما فَضَحَت قَومَها غَامِدُ

تَمَنَّيْتُمُ مِائَتَىْ فارِسٍ ... فَرَدَّكُمُ فارِسٌ واحِدُ

فَليتَ لَنا بارتِبَاطِ الخُيُولِ ... ضَأْناً لها حَالِبٌ قاعِدُ

وقد سمعنا قول بعضهم : الحُمق في الحاكة والمُعلمين والغزّالين . قال : والحاكة أقل وأسقط من أن يقال لهم حمقى ، وكذلك الغزالون، لان الأحمق هو الذى يتكلم بالصواب الجيد ثم يجىء بخطأ فاحش ، والحائك ليس عنده صواب جيد فى فعال ولا مقال، الا أن يجعل جودة الحياكة من هذا الباب ، وليس هو من هذا فى شيء

﴿وهذا باب آخر﴾

ويقال : فلان أحمق . فاذا قالوا : مائق، فليس يريدون ذلك المعنى بعينه . وكذلك إذا قالوا : أنوَكُ . وكذلك اذا قالوا : رقيع . ويقولون: فلان سليم الصدر . ثم يقولون : غبيٌّ . ثم يقولون : أبله . وكذلك اذا قالوا : معتوه ، ومسلوس . وأشباه ذلك

قال أبو عبيدة : يقال للفارس : شجاع . فاذا تقدم ذلك قيل : بطل . فاذا تقدم شيئا قيل : بهمة . فاذا صار الى الغاية قيل : أليسُ

قال العجاج : أليَسُ عَن حَوبائه سَخيٌّ

وهذا المأخذ يجرى فى الصفات كلها من : جود ، وبخل ، وصلاح ، وفساد ، ونقصان ، ورجحان . وما زلت أسمع هذا القول فى المعلمين . والمعلمون عندى على ضربين : منهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد العامة الى تعليم أولاد الخاصة ، ومنهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد الخاصة الى تعليم أولاد الملوك أنفسهم

المرشحين للخلافة ، فكيف تستطيع أن تزعم أن مثل على بن حمزة الكسائى ومحمد بن المستنير (١) الذى يقال له قُطرب وأشباه هؤلاء يقال لهم حمقى ؟ ولا يجوز هذا القول على هؤلاء ، ولا على الطبقة التى دونهم . فان ذهبوا إلى مُعلمى كتاتيب القُرى فان لكل قوم حاشية وسَفلة ، فما هم فى ذلك إلا كغيرهم .

وكيف تقول مثل ذلك فى هؤلاء وفيهم الفقهاء ، والشعراء ، والخطباء ، مثل : كميت ابن زيد ، وعبد الحميد الكاتب ، وقيس بن سعد ، وعطاء بن أبى رباح

ومثل عبد الكريم بن أبى أمية ، وحسين المعلم ، وأبى سعيد المعلم ؟

ومن المعلمين : الضحاك بن مزاحم أبو معبد الجهنى ، وعامر الشعبى ، فكانا يعلمان أولاد عبد الملك بن مروان ، وكان أبو معبد يعلم سعيدا

ومنهم أبو سعيد المؤدب ــ وهو غير ابى سعيد المعلم ــ وكان يحدث عن هشام ابن عروة وغيرهم ؟

ومنهم عبد الصمد بن عبد الاعلى . وكان معلم ولد عتبة بن أبى سفيان

وكان اسماعيل بن على ألزم بعض بنيه عبد الله بن المقفع ليعلمه ؟

وكان أبو بكر عبد الله بن كيسان معلما

ومنهم محمد بن السكن ، وما كان عندنا بالبصرة رجلان أدرى بصنوف العلم ، ولا أحسن بيانا من أبى الوزير وأبى عدنان المعلمين ؟ وحالهما من أول ما أذكر من أيام الصبا

وقد قال الناس فى أبي البيداء ، وفى أبى عبد الله الكاتب ، وفى الحجاج بن يوسف وأبيه ما قالوا ؟

وقد أنشدوا مع هذا الخبر شاهداً من الشعر على أن الحجاج وأباه كانا معلمين بالطائف

ثم رجع بنا القول الى الكلام الاول . قالوا : أحق الناس بالرحمة عالم يجرى عليه حكم جاهل . وكتب الحجاج إلى المُهلب يُعجله فى حرب الازارقة ويُسمّعه ، فكتب اليه المهلب : ان البلاء كل البلاء أى يكون الرأى لمن يملكه ، دون من يبصره

---

(١) محمد بن المستنير سماه سيبويه « قطرب » أخذ النحو عن سيبويه وعن عيسى ابن عمر ، وأخذ علم الكلام عن النظام ، واتصل بابى دلف العجلى وأدب ولده ، وله تصانيف كثيرة . وكان ابن السكيت لا يوثقه . مات سنة ٢٠٦ هـ ٨٢٤ م

﴿ وباب آخر ﴾

قال بعض الربانيين من الادباء ، وأهل المعرفة من البلغاء ، ممن يكره التشادق والتعمق ، ويبغض الاغراق فى القول والتكلف والاجتلاب ، ويعرف أكثر أدواء الكلام ودوائه ، وما يعترى المتكلم من الفتنة بحسن ما يقول ، وما يعرض للسامع من الافتتان بما يسمع ، والذى يورث الاقتدار من التحكم والتسلط، والذى يمكن الحاذق والمطبوع من التمويه للمعانى والخلابة وحسن المنطق ، وقال فى بعض مواعظه : أنذركم حسن إلالفاظ وحلاوة مخارج الكلام ، فان المعنى اذا اكتسى لفظا حسنا ، وأعاره البليغ مخرجا سهلا ، ومنحه المتكلم قولا متعشقا ، صار فى قلبك أحلى ، ولصدرك أملا ، والمعانى اذا كُسيت الالفاظ الكريمة ، وألبست الاوصاف الرفيعة ، تحولت فى العيون عن مقادير صورها ، وأربت على حقائق أقدارها ، بقدر ما زُينت وعلى حسب ما زُخرفت ، فقد صارت الالفاظ فى معنى المعارض ، وصارت المعانى فى معنى الجوارى ، والقلب ضعيف وسلطان الهوى قوى ، ومدخل خدع الشيطان خفى

فاذكر هذا الباب ولا تنسه ، وتأمله ولا تفرط فيه ، فان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لم يقل للاحنف — بعد أن احتبسه حولا مجرّماً ليستكثر منه وليبالغ في تصفح حاله ، والتنقير عن شانه — ان رسول الله ﷺ قد كان خوّفنا كل منافق عليم ، وقد خفت أن تكون منهم — إلا لما كان راعه من حسن منطقه ، ومال اليه لما رأى من رفقه وقلة تكلفه ؟ ولذلك قال رسول الله ﷺ « ان من البيان لسحرا »

وقال عمر بن عبد العزيز لرجل أحسن فى طلب حاجة وتأتى لها بكلام وجيز ومنطق حسن : هذا والله السحر الحلال . وقال رسول الله ﷺ « لا خلابة » فالقصد من ذلك أن تجتنب السوقىّ والوحشىّ ، ولا تجعل همك في تهذيب الالفاظ ، وشغلك فى التخلص الى غرائب المعانى ، وفى الاقتصار بلاغ ، وفى التوسط مجانبة للوعورة ، والخروج من سبيل من لا يحاسب نفسه ، وقد قال الشاعر :

عَلَيكَ بأوْسَاطِ الأمُورِ فانَّهَا نَجاةٌ وَلاَ تَرْكَبْ ذَلُولاً ولاَ صَعْبَا

وقال الآخر :

لا تَذْهَبَنَّ فى الأمُورِ فَرَطَا لاَ تَسْأَلَنَّ إنْ سألْتَ شَطَطا

وكُن منَ النّاسِ جَمِيعا وسَطَا

وليكن كلامك بين المقصر والغالى ، فانك تسلم من الهجنة عند العلماء ، ومن فتنة الشيطان . وقال أعرابى للحسن : علمنى دينا وسطا ، لا ذاهبا شطوطا ، ولا هابطا هبوطا . فقال الحسن : لئن قلت ذاك إن خير الامور أوساطها . وجاء فى الحديث « خالطوا الناس وزايلوهم » وقال عبد الله بن مسعود فى خطبته : وخير الامور أوساطها ، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى ، نفس تنجيها خير من إمارة لا تحصيها . وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : كن فى الدنيا وسطا وامش جانبا . وكانوا يقولون : إكره الغلو كما تكره التقصير . وكان رسول الله ﷺ يقول لاصحابه « قولوا بقولكم ولا يستحوذن عليكم الشيطان » وكان يقول « وهل يُكب الناسَ على مناخرهم فى نار جهنم إلا حصائد ألسنتهم ؟ »

﴿ باب من الخطب القصار ﴾

(من خطب السلف ومواعظ النساك وتأديب من تأديب العلماء)

قال رجل لابى هريرة النحوى : أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه . قال: كفى بترك العلم إضاعة . وسمع الاحنف رجلا يقول : التعلم فى الصغر كالنقش فى الحجر . فقال الاحنف : الكبير أكبر الناس عقلا ولكنه أشغل قلبا . وقل أبو الدرداء : مالى أرى علماءكم يذهبون ، وجهالكم لا يتعلمون ؟

وقال رسول الله ﷺ « ان الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلماء حتى اذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا »

ولذلك قال عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنه حين دَلّى زيد بن ثابت فى القبر : من سره أن يرى كيف ذهاب العلم فلينظر ، فهكذا ذهابه

وقال بعض الشعراء لبعض العلماء :

أبعَدْتَ مِنْ يَوْمِكَ الفِرَارَ فَمَا ... جاوَزْتَ حَيْثُ انْتَهَى بِكَ القَدَرُ

لَوْ كانَ يُنْجِي منَ الرَّدَى حذَرٌ ... نَجَّاكَ مِمَّا أَصابَكَ الحَذَرُ

يَرْحَمُكَ اللهُ مِنْ أخِي ثِقَةٍ ... لَمْ يَكُ فِي صَفْوِ وِدِّهِ كَدَرُ

فَهَكَذَا يَفْسُدُ الزمَانُ ويفْ   نَى العِلْمُ مِنْهُ وَيَدْرُسُ الأَثَرُ

وقال قتادة : لوكان أحدٌ مكتفيا من العلم لاكتفى نبي الله موسي عليه السلام إذ قال للعبد الصالح « هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا؟ »

أبو العباس التميمي قال: قال طاوس : الكلمة الصالحة صدقة

وعن عبد الله بن ثمامة بن انس عن أبيه عن النبي ﷺ أنه قال « فضل لسانك تعبر به عن أخيك الذى لا لسان له صدقة »

وقال الخليل : تَكَثَّر من العلم لتعرف ، وتقلل منه لتحفظ . وقال الفضيل : نعمت الهديةُ الكلمةُ من الحكمة يحفظها الرجل حتى يلقيها الى أخيه . وكان يقال : اجعل ما فى الكتب بيت مال ، وما فى قلبك للنفقة . وكان يقال : يكتب الرجل أحسن ما سمع ، ويحفظ أحسن ما كتب . وقال أعرابى : حرف في قلبك خير من عشرة فى طومارك . وقال عمر بن عبد العزيز : ما قرن شيء بشيء أفضل من علم الى حلم ، ومن عفو الى قدرة . وكان ميمون بن سياه اذا جلس الى قوم قال: إنا قوم منقطع بنا فحدثونا أحاديث نتجمل بها . وفخر سليم مولى زياد بزياد عند معاوية فقال معاوية : أسكت فوالله ما أدرك صاحبك شيئا بسيفه الا وقد أدركت أكثر منه بلسانى . وضرب الحجاج أعناق أسرى فلما قدموا اليه رجلا ليضرب عنقه قال : والله لئن كنا أسأنا فى الذنب فما أحسنت فى العفو . فقال الحجاج : أفّ لهذه الجيف ، أما كان فيها أحدٌ يحسن مثل هذا ؟ وأمسك عن القتل

وقال بشير الرحال: انى لاجد فى قلبي حَراً لا يَذهبه الا بردُ العدل أوحر السنان.

وقدموا رجلا من الخوارج الى عبد الملك لتضرب عنقه ـ ودخل على عبد الملك ابن صغيرٌ له قد ضربه المعلم وهو يبكى ـ فهمَّ عبد الملك بالمعلم فقال : دعه يبكى فانه أفتح لجرمه، وأصح لبصره ، وأذهب لصوته . فقال له عبد الملك : أما يشغلك ما أنت فيه عن هذا ؟ قال : ما ينبغى للمسلم أن يشغله عن قول الحق شيء . فأمر بتخلية سبيله . وقال ابرهيم بن أدهم : أعربنا فى كلامنا فما نلحن حرفا ، ولحنا في أعمالنا فما نعرب حرفا . وأنشد :

نُرَقِّعُ دُنْيَانَا بِتَمزِيقِ دِينِنا   فَلاَ دِينُنا يَبْقَى ولا ما نُرَقِّعُ

وقال زياد على المنبر : ان الرجل ليتكلم بالكلمة ما يقطع بها ذنب عنز مصور

لو بلغت إمامه سفك بها دمه : وعزل عمر زياداً عن كتابة أبي موسى في بعض قدماته فقال له زياد : أعن عجز أم عن خيانة ؟ قال : لا عن واحدة منهما ، ولكن أكره أن أحمل على العامة فضل عقلك . و بلغ الحجاج موت أسماء بن خارجة فقال :هل سمعتم بالذى عاش ما شاء ومات حين شاء ؟

وكان يقال : كدر الجماعة خير من صفو الفرقة . قال أبو الحسن : مر عمر بن ذر بعبد الله بن عياش المنتوف وقد كان سفه عليه ثم أعرض عنه فتعلق بثو به فقال : يا هناه ، انا لم نجد لك اذا عصيت الله فينا خيرا من أن نطيع الله فيك .

وهذا كلام أخذه عمر بن ذر عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه حين قال عمر : انى والله لا أدع حقا لله لشكاية تظهر ، ولا لغضب يحتمل ، ولا لمحاباة بشر ، و إنك والله ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه . وكتب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه الى سعد بن أبي وقاص : ياسعد سعد بنى وهيب ، ان الله اذا احب عبداً حببه الى خلقه ، فاعتبر منزلتك من الله بمنزلتك من الناس ، واعلم أن مالك عند الله مثل الذى لله عندك .

ومات لعمر بن ذر ابن فقال : أى بنى ، شغلنى الحزن لك عن الحزن عليك . وقال رجل من مجاشع : كان الحسن يخطب فى دم فينا فأجابه رجل فقال : وقد تركت ذلك لله ولوجوهكم . فقال الحسن : لا تقل هكذا ، بل قل : لله ثم لوجوهكم ، وآجرك الله

ومر رجل بأبى بكر رضى الله تعالى عنه ومعه ثوب فقال : أتبيع الثوب ؟ فقال: لا ، عافاك الله . فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه : لقد علمتم لو كنتم تعلمون ، قل : لا ، وعافاك الله .

وسأل عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه رجلا عن شيء فقال : الله أعلم . فقال عمر : لقد شقينا إن كنا لا نعلم أن الله أعلم ، إذا سئل أحدكم عن شيء لا يعلمه فليقل : لا علم لى . وكان أبو الدرداء يقول : أبغض الناس إلىّ إن أظلمه من لا يستعين علىّ باحد الا بالله .

وذكر ابن ذر الدنيا فقال : كأنكم انما زادكم فى حرصكم عليها ذم الله عز وجل لها . ونظر أعرابى الى مال له كثير من الماشية وغيرها فقال : يُنعة ، ولكل يُنعة استحشاف . فباع ما هنالك من ماله ثم لزم ثغرا من ثغور المسلمين حتى مات فيه . وتمنى قوم عند يزيد الرقاشي فقال : أتمنى كما تمنيتم ؟ قالوا : تمنه . قال : ليتنا لم نخلق ،

وليتنا اذ خلقنا لم نعص ، وليتنا اذ عصينا لم نمت ، وليتنا اذ متنا لم نبعث ، وليتنا اذ بعثنا لم نحاسب ، وليتنا اذ حوسبنا لم نعذب ، وليتنا اذ عذبنا لم نخلد .

وقال الحجاج : ليت الله اذ خلقنا الآخرة كفانا أمر الدنيا ؟ فرفع عنا الهمّ بالمأكل والمشرب والملبس والمنكح، أوليته اذ وقعنا فى هذه الداركفانا أمر الآخرة فرفع عنا الاهتمام بما ينجى من عذابه . فبلغ كلامهما عبد الله بن حسن بن حسن،أو على بن الحسين فقال : ما علمنا شيئاً فى التمنى ، ما اختار الله فهو خير . قال أبو الدرداء : من هوان الدنيا على الله أنه لا يعصى الا فيها ، ولا ينال ما عنده الا بتركها .

قال شريح : الحدة كناية عن الجهل . وقال أبو عبيدة : العارضة كناية عن البذاء وإذا قالوا : فلان مقتصد ، فتلك كناية عن البخل . وإذا قالوا للعامل مستقص ، فهو كناية عن الجور . وقال حبيب بن أوس الشاعر أبو تمام الطائى :

كذبتمُ ليسَ يزْهى مَن لهُ حسَبٌ ... ومَن لهُ نَسَبٌ عمَّن لهُ أدبُ

انّى لذُو عَجَبٍ منكُم أردّدُهُ ... فيكم وفى عَجَبى من زهوِكم عَجَبُ

لجاجةٌ بىَ فيكم ليسَ يُشبِهُها ... الاّ لجاجتكُم فى أنّكمْ عربُ

وقيل لاعرابية مات ابنها : ما أحسن عزاءك عن ابنك ؟ قالت : ان مصيبته آمنتنى من المصائب بعده . وقال سعيد بن عثمان بن عفان لطويس المغنى : أينا أسن ، أنا أو أنت ياطويس ؟ فقال : بأبى أنت وأمى، لقد شهدت زفاف أمك المباركة الى أبيك الطيب . فانظر الى حذقه والى معرفته بمخارج الكلام كيف لم يقل : بزفاف أمك الطيبة الى أبيك المبارك ؟ وهكذا كان وجه الكلام فقلب المعنى .

وقال رجل من أهل الشام . كنت فى حلقة أبى مسهر فى مسجد دمشق ، فذكرنا الكلام وبراعته ، والصمت ونبالته ، قال : كلا ان النجم ليس كالقمر ، انك تصف الصمت بالكلام، ولا تصف الكلام بالصمت . وقال الهيثم بن صالح لابنه وكان خطيبا : يابنى ، اذا أقللت من الكلام أكثرت من الصواب ، واذا أكثرت من الكلام أقللت من الصواب . قال : يا أبة ، فان أنا أكثرت وأكثرت؟ يعنى كلاما وصوابا ، قال : يابنى ، ما رأيت موعوظا أحق بان يكون واعظا منك .

وقال ابن عباس : لولا الوسواس ما باليت أن لا أكلم الناس .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : ما تستبقوا من الدنيا تجدوه فى

الآخرة . وقال رجل للحسن : إنى أكره الموت . قال :ذلك أنك أخرت مالك ، ولو قدمته لسرك أن تلحق به . وقال عَامِرُ بنُ الظَّرِبِ العَدْوَانِيُّ: الرَّأى نائم والهوى يقظان ، فمن هنا يغلب الهوى الرأى . وقال : مكتوب فى الحكمة : أشكر لمن أنعم عليك ، وأنعم على من شكر لك . وقال أبو الدرداء : أيها الناس ، لا يمنعكم سوء ما تعلمون منا، أن تقبلوا أحسن ما تسمعون منا .

وقال عبد الملك على المنبر : ألا تنصفوننا يامعشر الرعية ؟ تريدون منا سيرة أبى بكر وعمر، ولم تسيروا فى أنفسكم ولا فينا سيرة رعية أبى بكر وعمر ؟ نسأل الله أن يعين كلا على كل . وقال رجل من العرب : أربع لا يشبعن من أربع: أنثى من ذكر، وعين من نظر ، وأرض من مطر ، وأذن من خبر

وقال موسى عليه السلام لاهله « امْكُثُوا إِنِّى آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّى آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ » فقال بعض المعترضين : فقد قال « أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ » قال أبو عقيل : لم يعرف موقع النار من أبناء السبيل، ومن الجائع المقرور

وقال لبيد بن ربيعة :

ومَقَامٍ ضَيِّقٍ فَرَّجْتُهُ ... بِبَيَانٍ وَلِسَانٍ وَجَدَلْ
لَوْ يَقُومُ الْفِيلُ أَوْ فَيَّالُهُ ... زَلَّ عَنْ مِثْلِ مَقَامِي وَزَحَلْ
ولَدَى النُّعْمَانِ مِنِّى مَوطِنٌ ... بَيْنَ فَاثُورِ أُفاقٍ فالدَّحَلْ
إِذْ دَعَتْنِي عَامِرٌ أَنْصُرُهَا ... فالتقَى الأَلْسُنُ كالنَّبْلِ الدُّوَلْ
فَرَمَيْتُ الْقَوْمَ رِشْقاً صَائِباً ... لَيسَ بِالْعُصْلِ ولاَ بالْمُقْتَعَلْ
وانْتَضَلْنَا وابْنُ سَلْمَى قَاعِدٌ ... كَعَتِيقِ الطَّيْرِ يُغْضِى وَيُجِلْ
وَقَبِيلٌ مِنْ لُكَيْزٍ شَاهِدٌ ... رَهْطُ مَرْجُومٍ ورهْطُ ابنِ المُعَلْ

وقال :

وأَبْيَضُ يَجْتَابُ الخرُوقَ على الْوَجَى ... خَطِيباً اذَا الْتَفَّ المَجَامِعُ فَاصِلاَ

وقال لبيد :

لوْ كانَ حيٌّ في الحياةِ مُخلَّداً ... في الدَّهرِ أدْرَكَهُ أبُو يكسُومِ

بِكتَائِبٍ خُرْسٍ تعوَّدَ كَبْشُهَا ... نَطْحَ الـكِباشِ شَبيهَةٍ بِنُجُومِ

وَلَقَدْ بَلَوْتُكَ وَابْتَلَيْتُ خَلِيقتِي ... ولقَدْ كَفَاكَ مُعلِّمِي تعْلِيمِي

وقد قال أيضا لبيد :

ذَهبَ الَّذِينَ يُعَاشُ في أكْنَافِهِمْ ... وبقِيتُ في خَلْفٍ كَجِلْدِ الأجْرَبِ

يَتأكَّلُونَ مَغالةً وخِيانَةً ... ويُعابُ قائِلُهُمْ وَإنْ لمْ يَشْغَبِ(١)

وقال زيدُ بنُ جُندب فى ذكر الشغب :

ما كانَ أغْنَى رِجالاً ضَلَّ سعْيُهُمُ ... عنِ الجِدَالِ وأغْنَاهُمْ عَنِ الشَّغَبِ!

وقال آخر فى الشغب :

إنِّي إذَا عَاقَبْتَ ذُو عِقَاب ... وإنْ تُشاغِبْنِي فَذُو شِغابِ

وقال أحمر بن العمرَّد :

وكَمْ حَلَّهامِنْ تَيِّحَانٍ سمَيْذَعٍ ... مُصافي النَّدَى ساقٍ بِسَهْمَاءِ مُطْعِمِ(٢)

طَوِى البَطنِ مِتْلافٍ إذا هَبَّتِ الصّبا ... على الأمْرِ غوَّاصٍ وفي الحيِّ شَيْظَمِ(٣)

وقال :

هلْ لامَنِى قَوْمٌ لِمَوْقِفِ سَائِلٍ ... أوْ فى مخاصمةِ اللَّجُوجِ الاصْيَدِ

وقال فى التطبيق :

فَلَمَّا أنْ بَدَا الْقَعْقَاعُ لَجَّتْ ... عَلى شَرَكٍ تُناقِلُهُ نِقَالاَ

تَعَاوَرْنَ الْحَدِيثَ وطَبَّقْتهُ ... كما طَبَّقْتَ بِالنَّعْلِ المِثَالا

وهذ التطبيق غير التطبيق الاول

---

(١) المغالة : الاغتيال . (٢) التيحان هنا الذى يتاح للامور فيعرض لقضائها. السميذع : السيد الـكريم (٣) الشيظم : الشبيه بالهزبر

وقال آخر :

لوكُنْتُ ذاعِلْمٍ عَلِمْتُ وكيفَ لى بِالعِلْمِ بَعْدَ تَدَبُّرِ الأَمْرِ

وقال المعترض على أصحاب الخطابة والبلاغة:

قال لقمان لابنه : يا بنى ، إنى قد ندمت على الكلام ولم أندم على السكوت .

وقال الشاعر :

ما إِنْ نَدِمْتُ عَلى سكُوتِى مَرَّةً وَلَقَدْ نَدِمْتُ عَلى الكلام مِرَارا

وقال آخر :

خَلِّ جَنْبَيْكَ لِرَامِ وَامْضِ عَنهُ بِسَلَامِ

مُتْ بِدَاءِ الصَّمْتِ خَيرٌ لكَ مِنْ دَاءِ الكلام

إِنَّما المُسْلِمُ مَن أَلْجَمَ فاهُ بِلِجامِ

وقال آخر فى التحذير والاحتراس :

اَخْفِضِ الصَّوْتَ إِنْ نَطَقْتَ بِلَيْلٍ والتَفِتْ بالنَّهارِ قَبْلَ الكلامِ

وقال فى مثل ذلك:

لا أسأَلُ النَّاسَ عَمَّا فى ضَمَائِرِهِمْ ما في ضَمِيرِى لَهمْ مِنِّى سَيَكْفِينِى

وقال حَمزةُ بنُ بَيضٍ (١)

لَمْ يكُن عَنْ جِنايةٍ لَحِقَتْنِي لاَ يَسَارِى وَلاَ يَمِينِى جَنَتْنِي

بَلْ جَنَاهَا أَخٌ علىَّ كَرِيمٌ وعلى أَهْلِهَا بَرَاقِشُ تَجْنِي

لان هذه الكلبة ـ وهى تراقش ـ انما نبحت غزيا وقد مروا من ورائهم،وقد رجعوا خائبين مخفقين ، فلما نبحتهم استدلوا بنباحها على أهلها فاستباحوهم ،ولو

(١) حمزةبن بيض،شاعر إسلامى كوفى من شعراء الدولة الاموية ، وكان خليعاً ماجناً يعد من فحول طبقته .وكان منقطعاً الى المهلب بن أبى صفرة ثم الى أبان ابن الوليد و بلال بن أبى بردة، وأفاد مالاعظيما، ولم يدرك الدولة العباسية .

سكتت كانوا قد سلموا . فضرب ابن بيض بها المثل
وقال الاخطل :

تَنِقُّ بِلاَ شيء شُيوخُ مُحارِبٍ ... ومَا خِلْتُهَا كانَتْ تَرِيشُ ولاَ تبْرِى

ضَفَادعُ في ظَلْماءِ لَيْلٍ تَجاوَبَتْ ... فَدَلَّ عَلَيْهَا صَوْتُها حَيَّةَ النَّهْرِ

النقيق: صياح الضفادع .

وقالوا : الصمت حكم وقليل فاعله . وقالوا: استكثروا من الهيبة صامت. وقيل لرجل من كلب طويل الصمت : بحق ماسمتكم العلماء خُرسَ العرب . فقال : أسكت فأسلم ، وأسمع فاعلم . وكانوا يقولون : لاتعدلوا بالسلامة شيئاً . ولا تسمع الناس يقولون: جُلد فلان حين صمت ، ولا قُتل حين سكت . وتسمعهم يقولون : جُلد فلان حين قال كذا وكذا ، وقُتل حين قال كذا وكذا . وفى الحديث المأثور : رحم الله من سكت فسلم ، أو قال خيراً فغنم . والسلامة فوق الغنيمة ، لأن السلامة أصل والغنيمة فرع .

وقال النبي ﷺ « إن الله يبغض البليغ الذى يتخلل بلسانه كما تتخلل الباقرة بلسانها »

وقيل : إن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب . وقال صاحب البلاغة والخطابة وأهل البيان وحب التبيين : إنما عاب النبي ﷺ المتشادقين والثرثارين ، والذى يتخلل بلسانه كما تتخلل الباقرة بلسانها ، والاعرابى المتشادق، وهو الذى يصنع بفكيه وشدقيه مالا يستجيزه أهل الادب من خطباء أهل المدر ، فمن تكلف ذلك منهم فهو أعيب، والذم له ألزم . وقد كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدة أمثال سائرة ، ولم يكن الناس جميعاً يتمثلون بها إلا لما فيها من المرفق والانتفاع ، ومدار العلم على الشاهد والمثل

وإنما حثوا على الصمت لان العامة الى معرفة خطأ القول أسرع منهم الى معرفة خطأ الصمت . ومعنى الصامت فى صمته أخفى من معنى القائل فى قوله ، وإلا فالسكوت عن قول الحق ، فى معنى النطق بالباطل

ولعمرى ان الناس الى الكلام لأسرع، لان فى أصل التركيب ان الحاجة الى القول والعمل اكثر من الحاجة الى ترك العمل والسكوت عن جميع القول . وليس الصمت كله أفضل من الكلام كله ، ولا الكلام كله أفضل من السكوت كله ، بل

قد علمنا ان عامة الكلام أفضل من عامة السكوت. وقد قال الله عز وجل « سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ » فجعل سمعه وكذبه سواء

وقال الشاعر :

بَنِي عَدِيٍّ أَلاَ يُنْهَى سَفِيهُكُمُ　　إِنَّ السَّفِيهَ إِذَا لَمْ يُنْهَ مَأْمُورُ

وقال الآخر :

فانْ أَنَا لَمْ آمُرْ وَلَمْ أَنْهَ عَنْكُمَا　　ضَحِكْتُ لَهُ حَتَّى يَلَجَّ وَيَسْتَشْرِي

وكيف يكون الصمت أنفع والايثار له أفضل، ونفعه لا يكاد يجاوز رأس صاحبه، ونفع الكلام يعم ويخص ؟ والرواة لم يرووا سكوت الصامتين كما روت كلام الناطقين. وبالكلام أرسل الله أنبياءه لا بالصمت . ومواضع الصمت المحمودة قليلة، ومواضع الكلام المحمودة كثيرة . وطول الصمت يفسد البيان . وقال بكر بن عبد الله المزنى: طول الصمت حُبسة . كما قال عمر : ترك الحركة عقلة . واذا ترك الانسان القول ماتت خواطره وتبلدت نفسه، وفسد حسه. وكانوا يُرَوُّون صبيانهم الارجاز، ويعلمونهم المناقلات ، ويأمرونهم برفع الصوت ، وتحقيق الاعراب . لان ذلك يفتق اللهات ، ويفتح الجرم . واللسان اذا اكثرت تحريكه رق ولان ، واذا أقللت تقليبه وأطلت إسكاته جسأ وغلظ . وقال عُبابة الجعفى: لولا الدربة وسوء العادة لامرت فتياننا أن يمارى بعضهم بعضاً . وأيةُ جارحة منعتها الحركة ولم تمرنها على الاعمال أصابها من التعقد على حسب ذلك المنع .

فلم قال رسول الله ﷺ للنابغة الجعدى « لا يفضُض الله فاك ؟» ولم قال لكعب بن مالك « ما نسى الله لك مقالك ذلك؟» ولم قال لهيذان بن شيخ « رُبَّ خطيب من عبس ؟» ولم قال لحسان لما هيج الغطاريف على بنى عبد مناف « والله لشعرك أشد عليهم من وقع السهام فى غَبش الظلام ؟ »

وما نشك أنه عليه وعلى آله السلام قد نهى عن المراء ، وعن التزيد والتكلف، وعن كل ماضارع الرياء أو السمعة والنفج والبذخ ، وعن التهاتر والتشاغب ، وعن المغالبة والمماتنة .فاما نفس البيان فكيف ينهى عنه وأبين الكلام كلام الله،وهو الذى مدح التبيين وأهل التفصيل ؟ وفى هذا كفاية ان شاء الله

قال دغفل بن حنظلة : ان للعلم أربعا : آفة ، ونكدا ، واضاعة ، واستجاعة . فآفته النسيان ، ونكده الكذب ،واضاعته وضعه فى غير موضعه ، واستجاعته

أنك لاتشبع منه . وإنما عاب الاستجاعة لسوء تدبير أكثر العلماء، ولخرق سياسة أكثر الرواة، لان الرواة اذا شغلوا عقولهم بالازدياد والجمع عن تحفظ ما قد حصلوه وتدبر ماقد دونوه، كان ذلك الازدياد داعيا الى النقصان، وذلك الربح سببا للخسران

وقد جاء فى الحديث « منهوما لا يشبعهان : منهوم فى العلم، ومنهوم فى المال »

وقالوا : عَلّم علمكَ وتعلم علم غيرك ، فاذا أنت قد علمت ما جهلت وحفظت ما علمت . وقال الخليل بن أحمد (١) : اجعل تعليمك دراسة لعلمك، واجعل مناظرة المتعلم تنبيها لك على ما ليس عندك . وقال بعضهم ، وأظنه بكر بن عبد الله المزنى: لا تكدوا هذه القلوب ولا تُهملوها ، فخير الكلام ما كان عقب الجمام ، ومن أكره بصره عشى ، وعاودوا الفكر عند نبوات القلوب ، واشحذوها بالمذاكرة ، ولا تيأسوا من إصابة الحكمة إذا امتُحنتم ببعض الاستغلاق ، فان من أدام قرع الباب ولج .

وقال الشاعر :

إذا المَرءُ أعْيَتْهُ المرُوءةُ نَاشِئاً ... فَمَطْلَبُهَا كَهْلاً عَلَيهِ شَدِيدُ

وقال الاحنف : السؤدد مع السواد . وتقول الحكماء : من لم ينطق بالحكمة قبل الاربعين لم يبلغ فيها .

وأنشد :

وَدُونَ النَّدَى في كلّ قَلْبٍ ثَنِيةٌ ... لهَا مَصْعَدٌ حَزْنٌ وَمُنْحَدرٌ سَهْلُ

وَوَدَّ الفتَى في كل نَيْلٍ يُنيلُهُ ... إذا مَا انقَضى لوْ أن نَائلَهُ جَزْلُ

وقال الهُذلى :

وانَّ سِيادَةَ الاقْوَامِ فاعْلمْ ... لهَا صُعَدَاءُ مطلبُهَا طَويلُ

أترْجُو أن تَسُودَ ولنْ تعنَّى ... وكيفَ يَسُودُ ذُو الدَّعةِ البَخيلُ

---

(١) الخليل بن احمد بن عمرو الفراهيدى الازدى يكنى أبا عبد الرحمن : كان اماماً فى اللغة والنحو ، وهو مخترع علم العروض، وأول من صنف فى علم اللغة، ووضع كتابه «العين» ولم يتمه ، وكان عفيفاً متزهداً صالحاً، وله كتب كثيرة وشعره لا بأس به ، ولد بالبصرة سنة ١٠٠ ﻫ ٧١٨ م وتوفى سنة ١٦٠ ﻫ ٧٧٦ م

صالح بن سليمان عن عتبة بن عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال : ما رأيت عقول الناس إلا قريبا بعضها من بعض ، الا ما كان من الحجاج وإياس ابن معاوية، فان عقولهما كانت ترجح على عقول الناس . أبوالحسن قال : سمعت أبا الضعرى الحارثى(؟)يقول : كان الحجاج أحمق ، بنى مدينة واسط فى بادية النبط ثم قال لهم : لا تدخلوها . فلما مات دلفوا اليها من قريب . سمعت قَحطبةَ الجُشمى يقول : كان أهل البصرة لا يشكون أنه لم يكن بالبصرة رجل أعقل من عبيد الله ابن الحسن وعبيد الله بن سالم . وقال معاوية لعمرو بن العاص : ان أهل العراق قد قرنوا بك رجلا طويل اللسان قصير الرأى ، فأجد الحز وطبق المفصل ، واياك أن تلقاه برأيك كله .

﴿ باب ما قالوا فيه من الحديث الحسن الموجز المحذوف القليل الفضول ﴾

قال الشاعر :

لَهَا بَشَرٌ مثلُ الحريرِ وَمنطِقٌ رَخيمُ الحواشِي لا هُرَاءٌ ولا نَزْرُ

وقال ابن أحمر :

تَضعُ الحديثَ على مَوَاضِعِهِ وكلامها من بَعـدهِ نَزْر

وقال الآخر :

حَدِيثٌ كَطعْمِ الشَّهْدِ حُلْوٌ صُدُورُهُ وأَعْجَازُه الخُطبَانُ دُونَ المحارِمِ

وقال بشار :

أُنسٌ غَرَائرُ ما هَمَمْنَ بِرِيبَةٍ كظِبَاءِ مكّةَ صَيدُهنَّ حرَامُ

يُحسَبنَ مِنْ أنس الحديثِ زَوَانياً ويَصُدُّهنَّ عنِ الخَنا الاسلامُ

وقال بشار :

فَنَعِمْنا والعَيْنُ حَىٌّ كَميْتٍ بحديثٍ كَنشوةِ الخندَرِيسِ (١)

وقال بشار :

---

(١) العين : الرقيب

وكأنَّ رَفْضَ حَدِيثِهَا قِطَعُ الرِّيَاضِ كُسِينَ زهْرَا (١)
وتَخالُ مَا جمعَتْ عَليْهِ ثِيابهَا ذَهَبًا وَعِطْرَا
وكأنَّ تحتَ لِسَانِها هَارُوتَ يَنفِثُ فيهِ سِحْرَا

وقال بشار العقيلى :

وفَتاةٍ صبُّ الجمَالُ عَليْهَا بحَدِيثٍ كَلَذَّةِ النّشْوَان

وقال بشار :

وَبِكْرٍ كَنُوَّارِ الرِيَاضِ حَدِيثُهَا تَرُوقُ بِوَجْهٍ وَاضِحٍ وَقَوَام

وقال بشار :

وحَدِيثٍ كأَنّهُ قِطعُ الرَّوْ ضِ وَفيهِ الصَّفرَاءُ والحمْرَاء

وقال الاخطل :

فأَسْرَيْنَ خمساً ثمَّ أصبَحْنَ غُدْوَةَ يُخبرْنَ أخْبَاراً ألذَّ منَ الخمرِ

أخبرنا عامر بن صالح أن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز كتب الى امرأته وعنده اخوان له :

إنَّ عِنْدِي أنقَدَكِ رَبُكِ ضَيفاً وَاجِباً حقهُمْ كُهُولاً وَمُرْدَا
طَرَقُواجَارَكِ الذى كانَ قِدْماً لاَ يَرَى مِنْ كَرَامَةِ الضّيْفِ بُدَّا
فَلَدَيْهِ أضْيَافُهُ قَدْ قَرَاهُمْ وهُمُ يَشْتَهُونَ تمراً وَزُبْدَا
فَلِهذَا جَرَى الْحدِيثُ ولَكِنْ قَدْ جعَلْنَا بَعْضَ المزَاحَةِ جِدًّا

---

(١) وكأن « رفض » حديثها : الرفض القليل . والرواية المتداولة « رجع » ولعل هذه رواية أخرى. ولست أرى داعياً يدعو شاعراً كبشار الى أن يغير ألفاظاً من شعره وهو المشهور بانتقاء الكلمات . غير أنني أرى أن التغيير من الجاحظ نفسه وقد خبرته فوجدته قليل التحرى للرواية، أو قليل العناية برواية الشعر على وجهه وهذا شأن الكثير من بلغاء الكتاب ، ولاسيما من غزرت مادته منهم

وأنشد الهذلى :

كُرُّوا الأَحاديثَ عَنْ لَيْلَى إذا بَعُدَتْ إنَّ الأَحاديثَ عَنْ لَيلى لَتُلْهِينى

وقال الهذلى في حلاوة الحديث :

وإنَّ حَدِيثاً مِنْكِ لوْ تَبْذُلِينَهُ جَنَى النَّحْلِ أَوْ أَلْبَانُ عُوذٍ مَطَافِلِ

مَطَافِيلُ أَبكارٌ حَدِيثٌ نِتاجُها تُشابُ بِماءٍ مِثْلِ مَاءِ المَفاصل

العوذ : جمع عائذ وهى الناقة إذا وضعت . فاذامشى ولدها فهى مرشح . فاذا تبعها فهى متلية لانه يتلوها . وهى فى هذا كله مُطفل . فان كان أول ولد لها ولدته فهى بكر

ماء المفاصل فيه قولان : أحدهما أن المفاصل ما بين الجبلين واحد مفصل ، وانما أراد صفاء الماء لانه ينحدر عن الجبال ولا يمر بطين ولا تراب . ويقال انها مفاصل البعير وذكروا أن فيها ماء له صفاء وعذوبة

وفى الكلام الموزون يقول عبد الله بن مُعاية بن عبد الله بن جعفر :

فالْزَمِ الصَّمْتَ إنَ فِي الصَّمْتِ حُكْماً وإذا أنْتَ قُلْتَ قَوْلاً فَزِنْهُ

وقال أبو ذؤيب :

وسِرْبٍ يُطَلَّى بالعَبِير كأنَّهُ دِماءُ ظِباءٍ بِالنحُورِ ذَبِيحِ

بَذَلتَ لَهُنَّ القَوْلَ إنَّكَ وَاجِدٌ لَمَاشِئْتَ مِنْ حُلْوِ الكَلَامِ فَصِيحِ

السرب : الجماعة من النساء والبقر والطير والظباء ، بكسر السين ، ويقال : فلان آمن السرب بفتح السين ، وخلى السرب ، وواسع السرب ، أى المسالك والمذاهب ، وانما هو مثل مضروب للصدر والقلب ، وعن الاصمعى فلان واسع السرب ، مكسور ، أى واسع الصدر ، بطىء التأنيب

وأنشد للحكم بن ريحان من بنى عمرو بن كلاب :

يا أَجْدَلَ النَّاسِ إِنْ جادَلْتَهُ جَدَلاً وأَكْثَرَ النَّاسِ إِن عاتَبْتَهُ عِلَلاً

كأنَّما عَسَلٌ رُجْعَانُ مَنْطِقِها إِنْ كَانَ رَجعُ الكَلامِ يُشْبِهُ العَسَلا

وقال القَطَامِيّ (١) :

وفى الخُدُور غَمَامَاتٌ بَرَقْنَ لَنَا حتَّى تَصَيَّدْننا من كلّ مُصْطَادِ

فَهُنَّ يَنبِذْنَ مِن قولٍ يُصِبْنَ بِه مَوَاقِعَ المَاءِ مِنْ ذِي الغُلَّةِ الصَّادِي

ينبذن : يلقين . الغلة والغليل : العطش الشديد . والصادى : العطشان أيضا ، والاسم الصدى

وقال الاخطل :

شُمُسٌ إِذَا خَطِلَ الحَدِيثُ أَوَانِسٌ يَرْقُبْنَ كلَّ مُرَقَّبٍ تِنبالُ

أُنُفٌ كَأَنَّ حَدِيثَهُنَّ تَنَادُمٌ بالكأْسِ كلُّ عقيلةٍ مِكسالُ

التنبال : القصير ، والجذر مثله . والشُّمس : النوافر. الأُنف جمع الانفة وهى المنكرة للشيء غير راضية عنه . العقيلة : المصونة فى أهلها ، وعقيلة كل شيء خيرته . والمكسال : ذات الكسل عن الحركة .

وقال أبو الغُمَيْثَلِ :

لَقِيتُ ابْنَةَ السَّهْمِيّ زَيْنَبَ مِنْ غُفْرٍ ونَحْنُ حَرَامٌ مُسْىَ عاشِرَةِ العَشْرِ

وَإِنِّى وإِيَّاها لَحَتْمٌ مَبِيتُنا جميعاً وَمسرَانا مُغِذٌ وذو فَتْرِ

فَكَلَّمْتُها ثِنْتَيْنِ كَالثَّلْجِ مِنْهُمَا عَلى اللَّوْحِ والأُخْرَى أَحَرُّ مِنَ الجَمْرِ

تقول: ما يلقانا فلان الا عن غُفر ، أى بعد مدة. مسى : أى وقت المساء. ويقال: أغذ السير ، اذا جد فيه وأسرع . واللوح : بالفتح ، العطش . يقال: لاح الرجل يلوح لوحا ، والتاح يلتاح التياحا ، إذا عطش ، واللوح : أيضاً الذى يكتب فيه ، واللوح : بالضم الهواء. يقال: لا أفعل ذلك لو نزوت فى اللوح أو حتى تنزو فى اللوح. وأنشد :

---

(١) القطامى: هو عمير بن شييم شاعر اسلامى فحل مقل مجيد . لقب القطامى لقوله:

يصكهن جانباً فجانباً صك القطامى القطا القواربا

وقد يلقب (صريع الغوانى) لقوله:

صريع غوان راقهن ورقنه لدن شاب حتى شاب سود الذوائب

كان نصرانياً وقيل إنه أسلم . توفي سنة ١٠١ هـ ٧١٩ م

وإنا لنجرى بيننا حين نلتقى حديثاً له وشى كوشى المطارف
حديث كطعم القطر في المحل يشتفى به من جوى فى داخل القلب لاطف

وقال الشماخ بن ضرار التغلبي :

يقر بعينى أن أنبأ أنها وإن لم أنلها أيم لم تزوج
وكنت إذا لاقيتها كان سرنا وما بيننا مثل الشواء الملهوج

يريد أنهما من خوف الرقباء كانا على عجلة . والملهوج : المعجل الذى لم ينتظر به النضج .

وقال جران العود :

فنلنا سقاطاً من حديث كأنه جنى النحل أو أبكار كرم يقطف
حديثاً لو أن البقل يولى بمثله زها البقل واخضر العضاه المصيف

وقال الكميت :

وحديثهن إذا التقين تهانف البيض الغرائر
فإذا اضحكن عن العذاب لنا المسفات الثواغر (٢)
كان التهلل بالتبسم لا الفهاهة بالقراقر (٣)

وقال الآخر :

ولما تلاقينا جرى من عيوننا دموع كففنا غربها بالأصابع
ونلنا سقاطاً من حديث كأنه جنى النحل ممزوجاً بماء الوقائع (٤)

وقال الأشعث بن سمى :

(١) النهانف : التضاحك بدل (٢) عن العذاب : عن الثنايا العذاب ، المسفات الثواغر : الذوات الثغور اللطاف (٣) القراقر : الضحك المسموع (٤) الوقائع هنا بمعنى المنابع العذبة

هَلْ تعْرِفُ المَبْدَا إلَى السَّنام ... ناطَ بِهِ سَوَاحِرُ الكلام

كلامَهُنَّ بُرْءُ ذِي السِّقامِ

وقال الراجز، ووصف عيون الظباء بالسحر، وذكر قوساً صفراء فقال :

صَفرَاء فَرْعٌ خَطَمُوهَا بِوَتَرْ ... لأمٍ مُمَرٍّ مِثْلِ حُلْقُومِ النُّغَرْ (١)

حَدَتْ ظُبَاتٍ أسْهُمٍ مِثْلِ الشَّرَرْ ... فَصَرَعَتْهُنَّ بِأكْنَافِ الحَفَرْ

حُورُ العُيُونِ بِالبِيَّاتِ النَّظَرْ ... يَحْسَبُهَا النَّاظِرُ مِن وَحشِ البَشَرْ

ويروى « البقر »

﴿ باب آخر من الاسجاع فى الكلام ﴾

قال عمر بن ذر : الله المستعان على ألسنة تصف ، وقلوب تعرف ، وأعمال تخلف.

ولما مدح عُتيبةُ بنُ مرداس عبدَ الله بنَ عباس قال : لاأعطى مَن يَعصى الرحمن ، ويطيع الشيطان ، ويقول البهتان .

وفى الحديث المأثور « يقول العبد : مالى مالى ، وانما لك من مالك ما أكلت فافنيت ، أو أعطيتَ فأمضيت ، أو لبست فأبليت »

وقال النمِرُ بنُ تَوْلَبٍ :

أعَاذِلُ إن يصبح صدَاى بِقفرَةٍ ... بَعيداً فآتى صاحِبى وقَريبى

تَرَىْ أنَّ ما أبقيتُ لَم أكُ ربَّهُ ... وأنَّ الذى أنفقتُ كان نَصِيبى

الصدى : طائر يخرج من قبر الميت فينعى اليه ضعف وليه وعجزه ، وهذا كانت العرب تقوله فى الجاهلية ، وهو هاهنا مستعار، أى إن أصبحت أنا

ووصف أعرابى رجلا فقال : صغير القدر ، قصيرُ الشِّبر ، ضيق الصدر ، لئيم النجر ، عظيم الكبر ، كثير الفخر .

---

(١) صفراء فرع : قوس غير مشقوقه . خطموها : ربطوها لام ممر : يعنى أن الوتر قوى الفتل وهو شبيه بحلقوم النغر الذى هو البلبل

الشبر : القامة . والنجر : الطباع .

ووصف بعض الخطباء رجلا فقال : ما رأيت أضرب لمثل ، ولا أركب لجمل ، ولا أصعد فى قُلَل منه . وسأل بعض الامراء رسولا قدم من جهة السند : كيف رأيتم البلاد ؟ فقال : ماؤها وشل ، ولصها بطل ، وتمرها دقل . إن كثر الجند بها جاعوا ، وإن قلوا بها ضاعوا

وقيل لصعصعة بن معاوية : من أين أقبلت ؟ قال : من الفج العميق . قيل : فأين تريد ؟ قال : البيت العتيق . قيل : هل من مطر ؟ قال : نعم حتى عفا الاثر ، وانضر الشجر ، ودهده الحجر . واستجار عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود بمحمد بن مروان بنصيبين وتزوج بها امرأةً فقال محمد : كيف ترى نصيبين ؟ قال: كثيرة العقارب . قليلة الاقارب .

يريد بقوله : قليلة . كقول القائل : فلان قليل الحياء . ليس يريد أن هنا لك حياء وان قل . يضعون قليلا فى موضع ليس

وولى علاء الكلابى عملا خسيسا بعد أن كان على عمل جسيم : فقال : العنوق بعد النوق ؟ قال ونظر رجل من العباد الى باب بعض الملوك فقال : باب جديد ، وموت عتيد ، ونزع شديد ، وسفر بعيد . وقيل لبعض العرب : أى شيء تمنى وأى شيء أحب اليك ؟ قال : لواء منشور ، والجلوس على السرير ، والسلام عليك أيها الامير . وقيل لآخر ، وصلى ركعتين وأطال فيهما وقد كان أمر بقتله : أجزعت من الموت ، فقال : ان أجزع فقد أرى كفنا منشوراً ، وسيفا مشهوراً ، وقبراً محفوراً . وقال عبد الملك بن مروان لاعرابى : ما أطيب الطعام قال بكرة سنمة ، معتبطة غير ضمنه ، فى قدور رذمه ، بشفار خذمه ، فى غداة شبمه . (١) فقال عبد الملك: وأبيك لقد أطبت

والشبم :البرد

وقالوا لا تغتر بمناصحة الامير اذا غشك الوزير . وقالوا : من صادق الكتاب أغنوه ، ومن عاداهم أفقروه. وقالوا :اجعل قول الكذاب ريحا تكن مستريحا

---

(١) بكرة سنمة : ناقة فتية ذات سنام عظيم ، معتبطة غير ضمنة : نحرت لغير علة ولا زمانة ولا ضعف .القدور الرذمة : أى الممتلئة. بشفار خذمه : بسكاكين حادة قاطعة . فى غداة شبمة : فى صبيحة باردة لينة

وقيل لعبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشي : لم تؤثر السجع على المنثور وتلزم نفسك القوافى وإقامة الوزن ؟ قال : إن كلامى لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافى عليك ،ولكنى أريدالغائبوالحاضر ، والراهنوالغابر ، فالحفظ اليه أسرع ، والآذان لسماعه أنشط ، وهو أحق بالتقييدو بقلة التفلت ،وما تكلمت به العرب من جيد المنثور اكثر مما تكلمت به من جيد الموزون : فلم يحفظ من المنثور عشره ، ولا ضاع من الموزون عشره .

قالوا : فقد قيل للذى قال : يارسول الله ، أرأيت من لاشرب ولا أكل ، ولا صاح فاستهل ، أليس مثل ذلك بطل ؟ فقال رسول الله ﷺ « أسجعٌ كسجع الجاهلية؟ »

قال عَبْدُ الصَّمَد : لو أن هذا المتكلم لم يرد الا الاقامة لهذا الوزن لما كان عليه باس ، ولكنه عسى أن يكون أراد إبطالا لحق فتشادق في كلامه .

وقال غير عبد الصمد : وجدنا الشعر من القصيد والرجز قد سمعه رسول الله ﷺ واستحسنه وأمر به شعراءه ، وعامة أصحاب رسول الله ﷺ قد قالواشعراً قليلا كان ذلك أم كثيراً، وسمعوا واستنشدوا،فالسجع والمزدوج دون القصيدوالرجز، فكيف يحل ماهو اكثر ويحرم ماهو أقل ؟ وقال غيرهما : إذا لم يطل ذلك،ولم تكن القوافى مطلوبة مجتلبة،أو ملتمسة متكلفة ، وكان ذلك كقول الاعرابى لعامل الماء : حلبت ركابى ، وحرقت ثيابى ، وضربت صحابى ، ومنعت إبلى من الماءوالكلاء؟ والركاب مايركب من الابل .

قال : أو سجع أيضاً ، فقال الاعرابى : فكيف أقول ؟

لانه لو قال : حلبت إبلى أو جمالى أو نوقى أو بعرانى أو صرمتى لكان لم يعبر عن حق معناه ، وانما حلبت ركابه ، فكيف يدع الركاب الى غير الركاب . وكذا قوله : حرقت ثيابى ، وضربت صحابى . لان الكلام اذا قل وقع وقوعاً لايجوز تغييره ، واذا طال وجدت في القوافى مايكون مجتلباً ومطلوباً مستكرهاً .

وفى الحديث المأثور ـ ويدخل على من طعن فى قوله تعالى « تبت يدا أبى لهب». وزعم أنه شعر ، لأنه فى تقدير مستفعلن مفاعلن ـ وطعن فى قوله عليه السلام « هل أنت إلا أصبع دميت ، وفى سبيل الله مالقيت »

فيقال له : اعلم أنك لو اعترضت أحاديث الناس وخطبهم ورسائلهم،لوجدت فيها مثل مستفعلن فاعلن كثيراً ، وليس أحد فى الارض يجعل ذلك المقدار شعرا . ولو أن

رجلا من الباعة صاح : من يشترى باذنجان . لقد كان تكلم بكلام فى وزن مستفعلن مفعولان ، فكيف يكون هذا شعراً وصاحبه لم يقصد الى الشعر ؟ ومثل هذا المقدار من الوزن قد يتهيأ فى جميع الكلام. واذا جاء المقدار الذى يعلم انه من نتاج الشعر والمعرفة بالاوزان والقصد اليها كان ذلك شعراً . وهذا قريب، والجواب فيه سهل بحمد الله . وسمعت غلاماً لصديق لى وكان قد سقى بطنه يقول لغلمان مولاه : اذهبوا بى الى الطبيب وقولوا قد اكتوى . وهذا الكلام يخرج وزنه : فاعلاتن مفاعلن، مرتين. وقد علمت أن هذا الغلام لم يخطر بباله قط أن يقول بيت شعر أبدا . ومثل هذا كثير لو تتبعته فى كلام حاشيتك وغلمانك لوجدته

وكان الذى كرّه الاسجاع بعينها، وان كانت دون الشعر فى التكلف والصنعة ، أن كهان العرب الذين كان اكثر أهل الجاهلية يتحاكمون اليهم وكانوا يدعون الكهانة وأن مع كل واحد منهم رئيا من الجن مثل « حَازِى جهينةَ » ومثل « شق » و « سطيح » و « عزى سلمة » وأشباههم كانوا يتكهنون ويحكمون بالاسجاع كقوله : والارض والسماء ، والعقاب والصقعاء ، واقعة ببقعاء ، لقد نفر المجد بنى العشراء ، للمجد والسناء . وهذا الباب كثير . ألا ترى أن « ضَمْرَةَ بنَ ضَمْرَةَ » و « هَرم بن قُطبة » و « الاقرع بن حابس » و « نُفيل بن عبد العزى » كانوا يحكمون وينفرون بالاسجاع ؟ وكذلك « ربيعة بن حذار » فوقع النهى فى ذلك لقرب عهدهم بالجاهلية ولبقيتها فيهم وفى صدور كثير منهم . فلما زالت العلة زال التحريم

وقد كان الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين فتكون فى تلك الخطب أسجاع كثيرة فلم ينهو منهم أحدا .

وكان الفضل بن عيسى الرقاشي سجاعاً فى قصصه ، وكان عمرو بن عبيد، وهشام ابن حسان ، وأبان بن أبى عياش يأتون مجلسه . قال له داود بن أبى هند : لولا انك تفسر القرآن برأيك لأتيناك في مجلسك. قال : فهل ترانى أحرم حلالا وأحل حراما ؟ وانما كان يتلو الآية التى فيها ذكر النار والجنة والحشر والموت وأشباه ذلك .

وقد كان عبدُ الصمد الفضل ، وأبو العباس القاسم بن يحيي ، وعامة قصاص البصرة ، وهم أخطب من الخطباء يجلس اليهم عامة الفقهاء . وقد كان النهى ظاهراً عن مرثية أمية بن أبى الصلت لقتلى أهل بدر كقوله :

هَلاَّ بَكَيتَ على الكِرَام بَنِى الكِرَامِ أولى المَمَادِحْ

وروى ناس شبيهاً بذلك فى هجاء الاعشى لِعلقَمةَ بنِ علاثة . فلما زالت العلة زال النهى

وقال أبو وائلة بن خليفة فى عبد الملك بن المهلب :

لَقَدْ صَبَرَتْ لِلذُّلِّ أعْوَادُ مِنْبَرٍ ... تَقُومُ عَلَيْهَا في يَدَيْكَ قَضِيبُ

بَكَى المِنْبَرُ الغَرْبِيُّ إِذْ قُمْتَ فَوْقَهُ ... فَكَادَتْ مَسَامِيرُ الحَدِيدِ تَذُوبُ

رَأَيْتُكَ لَمَّا شِبْتَ أَدْرَكَكَ الذِي ... يُصِيبُ سَرَاةَ الأَزْدِ حِينَ تَشِيبُ

سَفَاهَةُ أَحْلَامٍ وَبُخْلٌ بِنَائِلٍ ... وَفِيكَ لِمَنْ عَابَ المُزُونَ عُيُوبُ

وخطب الوليد بن عبد الملك فقال : إن أمير المؤمنين عبدَ الملك كان يقول : إن الحجاج جلدة مابين عينى ، ألا وإنه جلدة وجهى كله . وخطب الوليد بعد وفاة الحجاج وتوليته يزيد بن أبى مسلم فقال : انما مثلى ومثل يزيد بن أبى مسلم بعد الحجاج كمن سقط منه درهم فأصاب دينارا .

شبيب بن شيبة قال: حدثنى خالد بن صفوان قال : خطبنا يزيد بن المهلب بواسط فقال : إنى قد أسمع قول الرعاع : قد جاء مسلمة ، وقد جاء العباس ، وقد جاء أهل الشام . وما أهل الشام إلا تسعة أسياف: سبعة منها معى واثنان علىّ . وأما مسلمة فجرادة صفراء . وأما العباس فنسطوس بن نسطوس ، أتاكم فى برابرة وصقالبة وجرامقة وجراجمة وأقباط وأنباط وأخلاط من الناس . انما أقبل اليكم الفلاحون والاوباش كأشلاء اللحم . والله مالقوا أقواماً قط كحدّكم وحديدكم ، وعدكم وعديدكم. أعيرونى سواعدكم ساعة من نهار تصفقون بها خراطيمهم . فانما هى غدوة أو روحة حتى يحكم الله بيننا وبين القوم الفاسقين

ومدح بشار هزارَ مُرْدَ العتكى بالخطب وركوبه المنابر ، بل رثاهُ وابنه فقال:

ما بالُ عَيْنِكَ دَمْعُهَا مَسْكُوبُ ... سَهِرَتْ فَانْتَ بِنَوْمِهَا مَحْرُوبُ

وكَذَاكَ مَنْ صَحِبَ الحَوادِثَ لَمْ يَزَلْ ... تَأْتِي عَلَيْهِ سَلَامَةٌ ونُكُوبُ

يا أرضُ وَيْحَكِ أَكْرِمِيهِ فإنَّهُ ... لَمْ يَبْقَ لِلْعَتَكِيِّ فِيكِ ضَرِيبُ

أَبْهَى عَلَى خَشَبِ المَنَابِرِ قائماً ... يَوْماً وأحْزَمُ إذْ تُشَبُّ حُرُوبُ

﴿ خطباء البصرة ﴾

كان سوّارُ بنُ عبد الله أول تميمى خطب على منبر البصرة . ثم خطب عبيد الله بن الحسن . وولى منبر البصرة أربعة من القضاة، فكانوا قضاة أمراء : بلال ، وسوار ، وعبيد الله ، وأحمد بن رباح . وكان بلال قاضيا بن قاض بن قاض
وقال روبة :

فانْتَ يا ابْنَ القَاضِيَيْنِ قَاض   مُعْتَزَم عَلَى الطَّرِيقِ ماض

قال أبو الحسن المدائنى : كان عبيد الله بن الحسن حيث وفد على المهدى معزيا أعد له كلاما . فبلغه أن الناس أعجبهم كلامه . فقال لشبيب بن شيبة : انى والله ما ألتفت الى هؤلاء . ولكن سل لى عنها أبا عبيد الله الكاتب . فسأله فقال : ما أحسن ما تكلم به ! على أنه اخذ مواعظ الحسن ورسائل غيلان فلقح بينهما كلاما . فأخبره بذلك شبيب ، فقال عبيد الله : لا والله أن أخطأ حرفا واحداً

وكان محمد بن سليمان له خطبة لا يغيرها ، وكان يقول : ان الله وملائكتُه . فكان يرفع الملائكة ، فقيل له [فى] ذلك فقال : خرجوا لها وجها ، ولم يكن يدع الرفع

قال: وصلى بنا خزيمة يوم النحر فخطب فلم يسمع من كلامه إلا ذكر أمير المؤمنين الرشيد وولى عهده محمد. قال: وكان زهير بن محمد الضبي يداريه اذا قرع المنبر
وقال الشاعر :

أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ إِلَيْكَ نَشكُو   وإِنْ كُنَّا نَقُومُ بِغَيْرِ عُذْرِ
غَفَرْتَ ذُنُوبَنَا وَعَفَوْتَ عَنَّا   وَلَيْسَتْ مِنْكَ أَنْ تَعْتُو بِبِكْرِ
فإنَّ المِنْبَرَ البَصْرِيَّ يَشكُو   على العِلَّاتِ اسْحٰقَ بنَ شِمْرِ
أَضَبِّيٌّ على خَشَبَاتِ مُلْكٍ   كَمَرْكَبِ ثَعْلَبٍ ظَهْرَ الهِزَبْرِ ؟

وقال بعض شعراء العسكر يهجو رجلا من أهل العسكر :

مارأَيْتَ تركَبُ كُلَّ شيءٍ قائِمٍ   حَتَّى اجْتَرَأْتَ عَلَى رُكُوبِ المِنْبَرِ
مَا زَالَ مِنْبرُكَ الذِي دَنَّسْتَهُ   بِلأْمِسِ مِنْكَ مُحَدِّثِي أَنْ تَطْهُرِ

وقال آخر :

فما مِنْبَرٌ دَنَّسْتَهُ بِاسْتِ أَفْكَلٍ   بِزَاكٍ وَلَوْ طَهَّرْتَهُ بِابْنِ طَاهِرِ

﴿ باب أسجاع ﴾

عبد الله بن المبارك عن بعض أشياخه عن الشعبي قال: قال عيسى بن مريم عليه السلام « البر ثلاثة : المنطق ، والمنظر ، والصمت . فمن كان منطقه في غير ذكر فقد لغا ، ومن كان نظره فى غير اعتبار فقد سها ، ومن كان صمته فى غير فكر فقدلها »
وقال على بن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه : أفضل العبادة الصمت وانتظار الفرج . وقال : يزيد بن المهاب وهو فى الحبس : والهفاه على طلبة بمائة ألف وفرج فى جبهة الاسد . وقال عمر رضى الله تعالى عنه : استغزروا الدموع بالتذكر.

وقال الشاعر : وَلاَ يَبْعَثُ الأحزانَ مِثْلُ التّذَكُرِ

حفص قال : سمعت عيسى بن عمر يقول: سمعنا الحسن يقول : إقدعوا هذه النفوس فانها طُلعة ، واعصوها فانكم إن أطعتموها تنزع بكم الى شر غاية ، وحادثوها بالذكر فانها سريعة الدثور .

اقدعوا : كفوا . طُلعة: أى تطلع إلى كل شيء. حادثوا : أى اجلوا واشحذوا. والدثور : الدروس ، يقال : دثر أثر فلان ، أى ذهب . كما يقال : درس وعفا

قال : فحدثت بهذا الحديث أبا عمرو بن العلاء فتعجب من كلامه

وقال الشاعر :

سَمِعْنا بِهَيجا أَوْجَفَتْ فَذَكَرْتُهُ وَلاَ يَبْعَثُ الأَحْزَانَ مِثْلُ التّذكرِ

الوجيف : السير الشديد ، يقال: وجف الفرس والبعير وأوجفته، ومثله الايضاع وهو الاسراع . أراد بهيجاء أقبلت مسرعة

ومن الاسجاع قول أيوب بن القِرّيةِ ، وقد كان دعى لكلام فاحتبس القول عليه فقال : قد طال السمر ، وسقط القمر ، واشتد المطر ، فماذا ينتظر ؟ فاجابه فتى من عبد القيس فقال : قد طال الارق ، وسقط الشفق ، وكثر اللثق ، فلينطق من نطق .

اللثق: الندى الوحل

وقال أعرابى لرجل : نحن والله آكل منكم للمأدوم ، وأكسب منكم للمعدوم، وأعطى منكم للمحروم . ووصف أعرابى رجلا فقال : إن رفدك لنحيح ، وإن

عجل مريح: أى مريح من كدّ الطلب

وقال عبد الملك لاعرابى : ما أطيب الطعام ؟ فقال : بكرة سنمة ، فى قدور رذمة ، بشفار خذمة ، فى غداة شبمة . فقال عبد الملك : وأبيك لقد أطبت

وسئل أعرابى فقيل له : ما أشد البرد ؟ فقال : ريح جربياء ، فى ظل عماء ، فى غب سماء .

ودعا أعرابى فقال : اللهم إنى أسألك البقاء ، والماء ، وطيب الاتاء ، وحط الاعداء ، ورفع الاولياء .

الاتاء : الرزق

وقال ابرهيم النخعى لمنصور بن المعتمر : سل مسألة الحمقَى ، واحفظ حفظ الكَيْسَى . ووصفت عمة حاجز اللص حاجزاً ففضلته وقالت : كان حاجز لا يشبع ليلة يضاف . ولا ينام ليلة يخاف .

ووصف بعضهم فرساً فقال : أقبل بزبرة الاسد ، وأدبر بعجُز الذئب .

الزبرة: مغرز العنق. ويقال الشعر الذى بين كتفيه . ووصفه بأنه محطوط الكفل

ولما اجتمع الناس وقامت الخطباء لبيعة يزيد وأظهر قوم الكراهة قام رجل يقال له يزيد بن المقنع فاخترط من سيفه شبرا ثم قال : هذا أمير المؤمنين ـ وأشار بيده إلى معاوية ـ فان مات فهذا ـ وأشار بيده إلى يزيد ـ فمن أبى فهذا ـ وأشار بيده إلى سيفه . فقال معاوية : أنت سيد الخطباء .

ولما قامت خطباء نزار عند معاوية فذهبت فى الخطب كل مذهب قام صبرة ابن شيمان فقال : يا أمير المؤمنين ، إنا حى فعال ، ولسنا حى مقال ، ونحن نبلغ بفعالنا أكثر من مقال غيرنا .

ولما وفد الأحنف فى وجوه أهل البصرة الى عبد الله بن الزبير تكلم أبو حاضر الأسيدى ـ وكان خطيباً جميلا ـ فقال له عبد الله بن الزبير : أسكت ، فوالله لوددت أن لى بكل عشرة من أهل العراق رجلا من أهل الشام صرف الدينار بالدرهم . قال : يا أمير المؤمنين ، إن لنا ولك مثلا ، أفتأذن فى ذكره ؟ قال : نعم . قال : مثلنا ومثلك ومثل أهل الشام قول الاعشى حيث يقول :

عُلِّقْتُها عَرَضاً وَعُلِّقَتْ رَجُلاً ... غيرِى وَعُلِّقَ أخرَى غيرَهَا الرَّجل

أحبك أهل العراق ، وأحببتَ أهل الشام ، وأحب أهل الشام عبدَ الملك ابنَ مروان .

علی بن مجاهد عن حمید بن أبی البختری قال : ذکر معاویة لابن الزبیر بیعةَ یزید فقال ابن الزبیر : إنی أناديك ولا أناجيك ، إن أخاك من صدقك، فانظر قبل أن تُقدم ، وتفكر قبل أن تندم ، فان النظر قبل التقدم ، والتفكر قبل التندم . فضحك معاوية ثم قال : تعلمت أبا بكر السجاعة عند الكبر ؟ إن في دون ماسجعت به على أخيك مايكفيك . ثم أخذ بيده فأجلسه معه على السرير

أخبرنا ثُمَامَةُ بنُ أَشْرَس قال : لما صرفت اليمانية - من أهل مزة - الماء عن أهل دمشق ووجهوه إلى الصحارى كتب اليهم أبو الهيذام : الى بنى استها أهل مزة ، ليمسينني الماء أو لتصبحنكم الخيل . قال : فوافاهم الماء قبل أن يعتموا .

أى يصيرون فى وقت عتمة الليل ، وعتمته ظلامه . يقال عتم الليل يعتم ، اذا أظلم . وأعتم الناس صاروا فى وقت العتمة .

فقال أبو الهيذام : الصدق ينبى عنك لا الوعيد .

وحدثنى ثمامة عمن قدم عليه من أهل الشام قال : لما بايع الناس يزيد ابن الوليد، وأتاه الخبر عن مروان بن محمد ببعض التلكؤ والتحبس كتب اليه:

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله أمير المؤمنين يزيد بن الوليد الى مروان ابن محمد . أما بعد ،فانى أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى . فاذا أتاك كتابى هذا فاعتمد على أيهما شئت والسلام .

وهاهنا مذاهب تدل على أصالة الرأى ، ومذاهب تدل على تمام النفس ، وعلى الصلاح والكمال ، لاأرى كثيراً من الناس يقفون عليها

واستعمل عبد الملك بن مروان نافعَ بنَ علقمة بن نضلة بن صفوان بن محرث خال مروان على مكة فخطب ذات يوم - وأبان بن عثمان بحذاء المنبر - فشتم طلحة والزبير . فلما نزل قال لأبان : أرضيتك من المدهنين فى أمير المؤمنين؟قال :لا والله، ولكن سؤتنى . حسبى أن يكونوا شركاء فى أمره .

فما أدرى أيهما أحسن : كلام أبان بن عثمان هذا أم إسحق بن عيسى؟فانه قال: أعيذ علياً بالله أن يكون قتل عثمان . وأعيذ عثمان بالله أن يقتله على . فمدح علياً بكلام سديد غير نافر، ومقبول غير وحشي . وذهب الى معنى الحديث فى قول رسول الله ﷺ « أشد أهل النار عذاباً من قتل نبياً أو قتله نبى . »

يقول : لا يتفق أن يقتله نبى بنفسه إلا وهو أشد خلق الله معاندة وأجرأهم على معصيته . فيقول : لايجوز أن يقتله علىّ إلا وهو مستحق للقتل

﴿ خطبة من خطب النبي ﷺ ﴾

خطب النبي ﷺ بعشر كلمات . حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

«أيها الناس ، إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم . وان لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم . إن المؤمن بين مخافتين : بين عاجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع به ، و بين آجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه . فليأخذ العبد من نفسه لنفسه . ومن دنياه لآخرته . ومن الشبيبة قبل الكَبْرَة . ومن الحياة قبل الموت . فوالذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مُستعتَب . ولا بعد الدنيا من دار ، إلا الجنة أو النار »

أبو الحسن المدائنى قال : تكلم عمار بن ياسر يوماً فأوجز فقيل له : لو زدتنا ، قال : أمرنا رسول الله ﷺ باطالة الصلاة وقصر الخطبة

محمد بن اسحق عن يعقوب بن عتبة عن شيخ من الانصار من بنى زريق أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لما أتى بسيف النعمان بن المنذر دعا جُبيْرَ بنَ مُطْعِم فسلحه إياه ثم قال : ياجبير ، ممن كان النعمان ؟ قال : من أشلاء قنص بن معد . وكان جبير أنسب العرب . وكان أخذ النسب عن أبى بكر الصديق رضي الله تعالى عنه . وعن جبير أخذ سعيدُ بنُ المسيب . وروى عن بعض ولد طلحة قال : قلت لسعيد ابن المسيب : علمنى النسب . قال : أنت رجل تريد أن تسابّ الناس . وثلاثة فى سق واحد كانوا أصحاب نسب : عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه . أخذ ذلك عن الخطاب . وكان كثيراً مايقول : سمعت ذلك عن الخطاب ، ولم أسمع ذلك من الخطاب . والخطاب بنُ نُفَيْلٍ . ونُفَيْلُ عبد العُزَّى تنافر اليه عبد المطلب وحرب ابن أمية فنفرَ عبدَ المطلب . أى حكم لعبد المطلب . والمنافرة المحاكمة

والنساب أربعة : دغفل بن حنظلة ، وعميرة أبو ضمضام ، وصبح الحنفى ، وابن الكيس النمرى .

قال الاصمعى : دغفل بن حنظلة ، النسابة البكرى ، وكان نصرانياً ولم يسمه

خطب سليمان بن عبد الملك فقال :

إتخذوا كتاب الله إماماً ، وارضوا به حكما ، واجعلوه قائداً ، فانه ناسخ لما قبله ، ولم ينسخه كتاب بعده . وأول كلام بارع سمعوه منه : الكلام فيما يعنيك خير من السكوت عما يضرك ، والسكوت عما لا يعنيك خير من الكلام فيما يضرك .

خلاد بن يزيد الارقط قال : سمعت من يخبرنا عن الشعبى قال : ماسمعت متكلماً على منبر قط تكلم فأحسن إلا تمنيت أن يسكت خوفاً من أن يسيء ، إلا زياداً فانه

وكان نَوْفَل بن مُسَاحِق إذا دخل على امرأته صمت ، وإذا خرج من عندها تكلم ، فرأته يوماً كذلك فقالت : أما عندى فتطرق ، وأما عند الناس فتنطق . قال : لأنى أدق عن جليلك ، وتجلين عن دقيقى

قال أبو الحسن : قادعَيَّاشُ بنُ الزِّبْرِقَانِ بن بَدْرٍ الى عبدالملك بن مَرْوَان خمسا وعشرين فرساً . فلماجلس لينظر إليها نسب كل فرس منها إلى جميع آبائه وأمهاته، وحلف على كل فرس بيمين غير اليمين التى حلف بها على الفرس الآخر . فقال عبد الملك بن مروان : عجبى من اختلاف أيمانه أشد من عجبى من معرفته بأنساب الخيل

وقال كان للزِّبْرِقَانِ بن بَدْرٍ ثلاثة أسماء: القمر ، والزبرقان ، والحصين . وكانت له ثلاث كنى : أبو شذرة ، وأبو عياش ، وأبو عباس . وكان عياش ابنه خطيباً مارداً، شديد العارضة، شديد الشكيمة، وجيهاً ، وله يقول جرير :

أعيَّاشُ قدْ ذَاقَ القُيُونُ مَرَارَتِى ۞ وَأَوْقَدْتُ ناراً فادْنُ دُونَكَ فَاصْطَلِ

فقال عياش : إنى إذاً لمقرور ؟ قالوا: فغلب عليه

﴿ باب أسماء الخطباء والبلغاء والابيناء ، وذكر قبائلهم وأنسابهم ﴾

كان التدبير فى أسماء الخطباء وحالاتهم وأوصافهم أن نذكر أسماء أهل الجاهلية على مراتبهم ، وأسماء أهل الاسلام على منازلهم ، ونجعل لكل قبيلة منهم خطباء ، ونقسم أمورهم باباً باباً على حدته ، ونقدم من قدمه الله عز وجل ورسوله ﷺ فى النسب، وفضله فى الحسب . ولكنى لما عجزت عن نظمه وتنضيده تكلفت ذكرهم فى الجملة، والله المستعان وبه التوفيق، ولا حول ولا قوة الا به

كان الفَضْلُ بنُ عِيْسَى الرَّقَاشِىُّ من أخطب الناس ، وكان متكلما ، وكان قاصًّا مجيداً . وكان يجلس اليه عمرو بن عبيد، وهشام بن حسان، وأبان بن أبى عياش، وكثير من الفقهاء . وهو رئيس الفضيلية واليه ينسبون . وخطب إليه ابنته سوادة بنت الفضل سليمان بن طرخان التيمى فولدت له المعتمر بن سليمان . وكان سليمان مبايناً للفضل فى المقالة ، فلما ماتت سوادة شهد الجنازة المعتمر وأبوه فقدما الفضل

وكان الفضل لا يركب إلا الحمير، فقال له عيسى بن حاضر : انك لتؤثر الحمير على جميع المركوب فلم ذلك ؟ قال : لما فيها من المرافق والمنافع . قال : مثل أى شىء ؟

وأسلم صريما ، وأكثر تصريفاً، وأسهل مرتقى ، وأخفض مهوى ، وأقل جماحا ، وأشهر فارهاً ، وأقل نظيراً ، يزهى راكبه وقد تواضع بركوبه ، ويكون مقتصداً وقد أسرف فى ثمنه . قال: ونظر يوماً الى حمار فاره تحت سالم بن قتيبة فقال : قعدة نبى، و بذلة جبار . قال عيسى بن حاضر: ذهب الى حمار عزير ، والى حمار مَسيح الدجال، والى حمار بلعم . وكان يقول :لو أراد أَبُو سَيَّارَةَ عُمَيْلَةُ بنُ أَعْزَلة أن يدفع بالموسم على فرس عربى ،أو جمل مَهرى لفعل ، ولكنه ركب عَيراً أربعين عاماً لانه كان يتأله. وقد ضرب به المثل فقالوا : أصح من عير(أبى) سيارة

والفضل هو الذى يقول فى قصصه : سلِ الارض فقل :من شق أنهارك ،وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك ؟ فان لم تجبك حواراً، أجابتك اعتباراً .

و كان عَبْدُ الصَّمَدِ بنُ الفَضْلِ أغزر من أبيه وأعجب،وأبين وأخطب. وحدثنى أبو جعفر الصوفى القاصّ قال : تكلم عبد الصمد فى خلق البعوضة، وفى جميع شأنها ثلاثة مجالس تامة .

وكان يَزِيْدُ بنُ أَبَانٍ عم الفَضْلِ بنِ عِيسَى بنِ أَبَان الرَّقَاشِيّ من أصحاب أَنَس والحسن ، كان يتكلم فى مجلس الحسن ، وكان زاهداً عابداً، وعالماً فاضلا ، وكان قاصًّا مجيداً. قال أبو عبيدة : وكان أبوهم خطيباً ، وكذلك جدهم ، وكانوا خطباء الاكاسرة ، فلما سبوا وولد لهم الأولاد فى بلاد الاسلام وفى جزيرة العرب نزعهم ذلك العِرق، فقاموا فى أهل هذه اللغة كمقامهم فى أهل تلك اللغة ،وفيهم شعر وخطب، وما زالوا كذلك حتى أصهر الغرباء اليهم، ففسد ذلك العرق ودخله الخوَر

ومن خطباء إياد « قُسُّ بنُ سَاعِدَةَ » وهو الذى قال فيه النبى ﷺ « رأيته بسوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول: « أيها الناس اجتمعوا،فاسمعوا وعوا . من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ماهو آت آت » وهو القائل فى هذه : «آيات محكمات، مطر ونبات ، وآباء وأمهات ، وذاهب وآت، ونجوم تمور ، وبحور لا تغور . وسقف مرفوع ، ومهاد موضوع ، وليل داج ،وسماء ذات أبراج ، مالى أرى الناس يموتون ولا يرجعون ? أرضوا فأقاموا؟ أم حبسوا فناموا ?» وهو القائل: « يامعشر إياد ، أين ثمود وعاد ، وأين الآباء والاجداد . أين المعروف الذى لم يشكر ، والظلم الذى لم ينكر ، أقسم قسّ قسما بالله أن لله ديناً هو أرضى له من دينكم هذا . وأنشدوا له هذه:

فِي الذَّاهِبِينَ الأَوَّلِينَ مِنَ القُرُونِ لَنَا بَصائِرْ

لمـا رَأَيْتُ مَوَارِداً لِلْمَوتِ لَيسَ لَهَا مَصَادِرْ

وَرَأَيتُ قَوْمِي نَحْوَهَا تَمْضِى الأَكَابِرُ وَالأَصَاغِرِ

لاَ يَرْجِعُ المَاضِي وَلاَ يبقَى مِنَ البَاقِينَ غَابِرْ

أيقَنْتُ أَنِّى لاَ مَحَالَةَ حَيْثُ صَارَ القَوْمُ صَائِرْ

ومن الخطباء « زيد بن على بن الحسين ». وكان خالد بن عبد الله أقرّ على زيد ابن على ، وداود بن على ، وأيوب بن سلمة المخزومى ، وعلى بن محمد بن عمر بن على، وعلى ابن سعد بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف . فسأل هشامٌ زيداً عن ذلك فقال : أحلف لك ؟ قال : وإذا حلفت أصدقك ؟ قال زيد : اتق الله . قال : أو مثلك يا زيد يأمر مثلى بتقوى الله ؟ قال زيد : لا أحد فوق أن يوصى بتقوى الله ، ولا دون أن يوصى بتقوى الله . قال هشام : بلغنى أنك تريد الخلافة ، ولا تصلح لها لانك ابن أمة . قال زيد : فقد كان اسماعيل بن ابرهيم صلوات الله عليه ابن أمة ، واسحق عليه السلام ابن حرة ، فأخرج الله عز وجل من صلب اسماعيل عليه السلام خير ولد آدم محمداً ﷺ . فعندها قال له : قم . قال : إذاً لا ترانى إلا حيث تكره. ولما خرج من الدار قال : ما أحبّ أحدٌ الحياة قط إلا ذل . فقال له سالم مولى هشام : لا يسمعن هذا الكلام منك أحد .

وقال مُحَمَّدُ بنُ عُمَيْر : إن زيداً لما رأى الارض قد طبقت جوراً ، ورأى قلة الاعوان ، ورأى تخاذل الناس ، كانت الشهادة أحب المنيات اليه . وكان زيد كثيراً ما ينشد :

شَرَّدَهُ الخَوْفُ وَزْرَى بِهِ كَذَاكَ مَنْ يَكْرَهُ حَرَّ الجِلادْ

مُنْخَرِقُ الخُفَّيْنِ يَشْكُو الوَجَى تَنْكُبُهُ أَطْرَافُ مَرْوٍ حِدَادْ

قَدْ كَانَ فِي المَوْتِ لَهُ رَاحَةٌ وَالمَوْتُ حَتْمٌ فِي رِقَابِ العِبَادْ

قال : وكثيراً ما ينشد شعر العبسي فى ذلك :

إِنَّ المُحَكَّمَ مَنْ لَمْ يَرْتَقِبْ حَسَباً أَوْ يَرْهَبِ السَّيْفَ أَوْ حَدَّ القَنَا جَنَفَا

مَنْ عَاذَ بِالسَّيْفِ لاَقَى فُرْصَةً عَجَباً مَوْتاً عَلَى عَجَلٍ ، أَوْعَاشَ مُنْتَصِفَا

ولما بعث يوسف بن عمر برأس زيد ونصر بن خزيمة مع شيبة بن عقال ، وكلف آل أبي طالب أن يبرأوا من زيد ويقوم خطباؤهم بذلك ، فأول من قام عبد الله بن الحسن فأوجز في كلامه ثم جلس . ثم قام عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر فاطنب في كلامه ، وكان شاعراً بيّناً وخطيباً لسناً ، فانصرف الناس وهم يقولون : ابن الطيار أخطب الناس . فقيل لعبد الله بن الحسن في ذلك فقال : لو شئت أن أقول لقلت ، ولكن لم يكن مقام سرور . فأعجب الناس ذلك منه

ومن أهل الدهاء والنكراء ، ومن أهل اللسن واللقن ، والجواب العجيب ، والكلام الصحيح ، والامثال السائرة ، والمخارج العجيبة «هِنْدُ بِنْتُ الْخُسِّ» وهي الزرقاء . و « خمعة بنت حابس »(١) ويقال ان حابساً من إياد . وقال عامر بن عبدالله الفزاري : جمع بين هند وخمعة ، فقيل لخمعة : أي الرجال أحب اليك ؟ قالت : الشنق الكبد ، الطاهر الجلد ، الشديد الجذب بالمسد . فقيل لهند : أي الرجال أحب اليك ؟ قالت : القريب الامد ، الواسع البلد ، الذي يوفد اليه ولا يفد . وقد سئلت هند عن حر الصيف وبرد الشتاء فقالت : من جعل بؤساً كأذى ! وقد ضرب بها المثل ، فمن ذلك قول ليلى بنت النضر الشاعرة :

وكنز ابن جُدْعانٍ دَلالَةَ أمّهِ   وكانَتْ كَبِنْتِ الْخُسِّ أوْهيَ أكْبرُ

وقال ابن الاعرابي : يقال بنت الخس ، وبنت الخص ، وهي الزرقاء ، وبنت الخسف . وقال يونس : لا يقال الا بنت الأخس ، وهي الزرقاء . وقال أبو عمرو بن العلاء : داهيتا نساء العرب : هند الزرقاء ، وعنز الزرقاء . وهي زرقاء اليمامة .

قال اليَقْطُرِيّ : قيل لعبد الله بن الحسن : ماتقول في المراء ؟ قال : ماعسى أن أقول في شيء يفسد الصداقة القديمة ، ويحل العقدة الوثيقة ؟ وان كان لأقل مافيه ن يكون دُرْبَةً للمغالبة ، والمغالبة من أمتن أسباب الفتنة ، إن رسول الله ﷺ لما أتاه السائب بن صيفي فقال : أتعرفني يارسول الله ؟ قال : كيف لا أعرف شريكي الذي كان لايشاريني ولا يماريني ؟ قال : فتحولت الى زيد بن علي فقلت له : الصمت خير أم الكلام ؟ قال : أخزى الله المساكتة ، فما أفسدها للبيان وأجلبها للحصر ، والله للمماراة أسرع في هدم العي من النار في يَبس العرفج ، ومن السيل في الحدور .

وقد عرف زيد أن المماراة مذمومة ولكنه قال : المماراة على مافيها أقل ضرراً من المساكتة التي تورث البلدة ، وتحل العقدة ، وتفسد المنة ، وتورث عللا ، وتولد

(١) راجع ما كتبناه عنها محققاً في هامش الصفحة ٥٥

أدواء أيسرها العى ، فالى هذا المعنى ذهب زيد

ومن الخطباء: خالد بن سلمة المخزومى من قريش ، وأبو حاضر ، وسالم ، وقد تكلم عند الخلفاء

ومن خطباء بنى أسيد: الحكم بن يزيد بن عمير، وقد رأس

ومن أهل اللسن منهم والبيان: الحجاج بن عُمير بن زيد

ومن الخطباء: سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية .

وقيل لسعيد بن المسيب : من أبلغ الناس ؟ قال : رسول الله ﷺ . فقيل له: ليس عن هذا نسألك. قال: معاوية، وابنه ، وسعيد ، وابنه ، وما كان ابن الزبير بدونهم ، ولكن لم يكن لكلامه طلاوة مقبولة

فمن العجب أن ابن الزبير ملأ دفاتر العلماء كلاما، وهم لا يحفظون لسعيد ابن العاص وابنه من الكلام الا مالا بال له.

وكان سعيد جوادا ولم ينزع قميصه قط ، وكان أسود نحيفا ، وكان يقال له : عُكَّةَ العسل ،

وقال الحطيئة :

سَعِيدٌ فَلَا يَغْرُرْكَ قِلَّةُ لَحْمِهِ ... تَخَدَّدَ عَنْهُ اللَّحْمُ وهْوَ صَلِيبُ

وكان أول من خَشَّ الابل فى نفس عظم الأنف ، وكان في تدبيره اضطراب. وقال قائل من أهل الكوفة:

يَاوَيْلنَا قَدْ ذَهَبَ الْوَلِيدُ ... وَجَاءَنَا مُجَوِّعاً سَعِيدُ

يَنْقُصُ في الصَّاعِ وَلاَ يزِيدُ

والامراء تتحبب الى الرعية بزيادة المكاييل ، ولو كان المذهب فى الزيادة فى الاوزان كالمذهب فى الزيادة فى المكاييل ما قصروا ، كما سال الاحنف عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه الزيادة فى المكاييل ، ولذلك اختلفت أسماء المكاييل كالزيادى ، والفالج ، والخالدى ، حتى صرنا الى هذا الملجم اليوم

ثم من الخطباء « عمرو بن سعيد » وهو الاشدق ، يقال ان ذلك إنما قيل له لتشادقه فى الكلام . وقال آخرون بل كان أفقم مائل الذقن . ولذلك قال عبيدالله بن زياد حين أهوى الى عبد الله بن معاوية : يدك عنه يالطيم الشيطان ، وياعاصى الرحمن .

وقال الشاعر :

وعَمْرُو لَطِيمُ الجِنِّ وَابْنُ محمَّدٍ بأسْوَأ هذَا الأمْرِ مُلْتَبِسَانِ

ذكر ذلك عن عوانة ، وهذا خلاف قول الشاعر :

تَشَادَقَ حَتَّى مَالَ بِالْقَوْلِ شِدْقُهُ وكُلُّ خَطِيبٍ لاَ أَبَالَكَ أَشْدَقُ

وكان معاوية قد دعا به فى غِلمة من قريش ، فلما استنطقه قال : إن أول كل مركب صعب ، وان مع اليوم غدا . وقال له : إلى من أوصى بك أبوك ؟ قال : ان أبى أوصى الىّ ولم يوص بى . قال : وبأى شيء أوصاك ؟ قال : بان لا يفقد اخوانه منه إلا شخصه . فقال معاوية عنـد ذلك : إن ابن سعيد هذا لأشدق . فهذا يدل عندهم على أنه إنما سمى بالاشدق لمـكان التشادق

ثم كان بعد عمرو بن سعيد « سعيد بن عمرو بن سعيد » وكان ناسبا خطيبا ، وأعظم الناس كبرا . وقيل له عند الموت: ان المريض ليستريح إلى الانين،والى أن يصف مابه الى الطبيب ، فقال :

أجَالِيدُ مِنْ رَيْبِ المُنُونِ فَلاَ تَرَى على هَالِكٍ عَيْناً لَنَا الدَّهْرَ تَدْمَعُ

ودخل على عبد الملك مع خطباء قريش وأشرافهم ، فتكلموا من قيام وتـكلم وهو جالس ، فتبسم عبد الملك وقال : لقد رجوت عثرته ، ولقدأحسن حتى خفت عثرته . فسعيد بن عمرو بن سعيد خطيب ابن خطيب ابن خطيب

ومن الخطباء « سهيل بن عمرو الاعلم » أحد بنى حسل بن معيص ،وكان يكنى أبا يزيد ، وكان عظيم القدر ، شريف النفس ، صحيح الاسلام . وكان عمر رضي الله تعالى عنه قال للنبي ﷺ يا رسول الله، انزع ثنيتيه السفليين حتى يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيبا أبدا . فقال رسول الله ﷺ « لا أمثل فيمثل الله بى وإن كنت نبيا ، دعه ياعمر فعسى أن يقوم مقاما نحمده » فلما هاج أهل مكة عند الذى بلغهم من وفاة رسول الله ﷺ قام خطيبا فقال : أيها الناس ، ان يكن محمد قد مات فان الله حى لم يمت . وقد علمتم أنى أكثركم قتبا فى بر ، وجارية فى بحر ، فأقروا أميركم ، وأنا ضامن ان لم يتم الامر أن أردها عليـكم . فسكن الناس . وهو الذى قال يوم خرج إذن عمر وهو بالباب وعيينة بن حصن والاقرع بن حابس وفلان وفلان ، فقال الآذن : أين بلال ، أين صهيب ، أين سلمان ، أين عمار ؟ فتمعرت

وجوه القوم ، فقال سهيل : لم تتمعر وجوهكم ؟ دعوا ودعينا فاسرعوا وأبطأنا ، ولئن حسدتموهم على باب عمر لما أعد الله لهم فى الجنة أكثر

ومن الخطباء « عبد الله بن عروة بن الزبير » قالوا كان خالدبن صفوان يشبه به ، وما علمت أنه كان فى الخطباء أحد أجود خطبا من خالد بن صفوان وشبيب ابن شيبة للذى يحفظ الناس ويدور على ألسنتهم من كلامهما ، وما علمنا أن أحدا ولد لهما حرفا واحدا

ومن النسابين من بنى العنبر ثم من بنى المنذر « الخثف بن زيدبن جعونة » وهو الذى تعرض له دغفل بن حنظلة العلامة عند ابن عامر بالبصرة فقال له : متى عهدك بسجاح أم صادر ؟ فقال له : مالى بها عهد منذ أضلت أم حلس . وهى بعض أمهات دغفل ، فقال له :

أنشدتك بالله ، أنحن كنا لكم أكثر غزوا فى الجاهلية أم أنتم لنا ؟ قال : بل أنتم فلم تفلحوا ولم تنجحوا ، غزانا فارسكم وسيدكم وابن سيدكم فهزمناه مرة ، وأسرناه مرة ، وقتلناه مرة ، وأخذنا فى فدائه خدر أمه . وغزانا أكثركم غزوا وأنبهكم فى ذلك ذكرا فأعرجناه ثم أرجلناه . فقال ابن عامر : أسألكما بالله لما كففتما .

وكان عبد الله بن عامر ومصعب بن الزبير يحبان أن يعرفا حالات الناس ، فكانا يغربان بين الوجوه وبين العلماء ، فلا جرم أنهما كانا اذا سبا أوجعا

وكان أبو بكر رضى الله تعالى عنه أنسب هذه الامة ، ثم عمر ، ثم جبير بن مطعم ، ثم سعيد بن المسيب ، ثم محمد بن سعيد بن المسيب . ومحمد هو الذى نفى الى عنكة المخزوميين فرفع ذلك الى والى المدينة فجلده الحد . وكان ينشد :

وَيَرْبُوعُ بنُ عنكَةَ إبنُ أرْضٍ　　وأعْتَقَهُ هُبَيْرَةُ بَعْدَ حِينِ

يعنى هبيرة بن أبى وهب المخزومى

ومن النسابين العلماء « عتبة بن عمرو » بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وكان من ذوى الرأى والدهاء ، وكان ذا منزلة من الحجاج بن يوسف . وعمر بن عبد الرحمن خامس خمسة فى الشرف ، وكان هو الساعى بين الازد وتميم فى الصلح

ومن بنى الحرقوس « شعبة بن القلعم » وكان ذا لسان وجواب وعارضة ، وكان وصافا فصيحا . وبنوه عبد الله ، وعمر ، وخالد ، كلهم كانوا فى هذه الصفة . غير أن خالدا كان قد جمع مع بلاغة اللسان : العلم والحلاوة والظرف ، وكان

الحجاج لا يصبر عنه

ومن بنى أسيد بن عمرو بن تميم «أبو بكر بن الحكم» كان ناسبا راوية شاعرا، وكان أحلى الناس لسانا، وأحسنهم منطقا، وأكثرهم تصرفا، وهو الذى يقول له رُؤبة:

لقدْ خَشِيتُ أنْ تكُونَ سَاحرا رَاوِيَةً طَوْراً وطَوراً شَاعِرا

ومنهم «معلل بن خالد» أحد بنى أنمار بن الهُجيم، وكان نسابة علامة راوية صدوقا مقلدا، وذُكر لِلْمُنْتَجِعِ بنِ نَبْهَانَ فقال: كان لايجارى ولا يمارى.

ومنهم من بنى العنبر ثم من بنى عمرو بن جندب «أبو الخنساء عباد بن كسيب» وكان شاعرا علامة، وراوية نسابة، وكانت له حرمة بابى جعفر المنصور

ومنهم «عمرو بن خولة» كان ناسبا خطيبا، وراوية فصيحا، من ولد سعيد بن العاص

والذى أتى سعيد بن المسيب ليعلمه النسب هو «اسحق بن يحيى بن طلحة»

وكان «يحيى بن عروة بن الزبير» ناسبا عالما، ضربه «ابرهيم بن هشام المخزومى» والى المدينة حتى مات لبعض القول

وكان «مُصْعَبُ بنُ عَبْدِ اللهِ بنِ ثَابِتٍ» ناسبا عالما، ومن ولده «الزبيرى» عامل الرشيد على المدينة واليمن

ومنهم ثم من قريش «محمد بن جعفر بن حفص» وهو ابن عائشة، ويكنى أبا بكر، وابنه «عبيد الله» كان يجرى مجراه، يكنى أبا عبد الرحمن

ومن خزاعة بن مازن «أبو عمرو» و «أبو سفيان» ابنا العلاء بن عمار ابن العريان.

فأما «أبو عمرو» فكان أعلم الناس بامور العرب، مع صحة سماع، وصدق لسان. وحدثنى الاصمعى قال: جلست الى أبى عمرو عشر حجج ما سمعته يحتج ببيت اسلامى قال: وقال مرة: لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى هممت أن آمر فتياننا بروايته

يعنى شعر جرير والفرزدق وأشباههما

وحدثنى أبو عبيدة: قال كان أبو عمرو أعلم الناس بالعرب والعربية، وبالقراءة والشعر وأيام الناس، وكانت داره خلف دار جعفر بن سليمان. وكانت كتبه التى

كتب عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتا له الى قريب من السقف، ثم انه تقرأها فاحرقها كلها ، فلما رجع بعد الى علمه الاول لم يكن عنده الا ما حفظه بقلبه. وكان عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية

وفى أبى عمرو بن العلاء يقول الفرزدق :

مَازِلتُ أفتحُ أبوَاباً وأُغلقها حَتى أتَيتُ أباعمرِو بن عمَّارِ

فاذا كان الفرزدق وهو راوية الناس وشاعرهم وصاحب أخبارهم يقول فيه مثل هذا القول ، فهو الذى لا يشك فى خطابته وبلاغته

وقال يونس : لولا شعر الفرزدق لذهب نصف أخبار الناس .

وقال فى أبى عمرو مكّىُّ بنُ سَوَادَةَ :

الجَامعُ العِلْمَ نَنْسَاهُ ويَحفَظُهُ والصَّادِقُ القَوْلِ إنْ أنْدَادُهُ كَذَبُوا

وكان « أبو سفيان بن العلاء » ناسباً ، وكلاهما كناهما أسماؤهما . وكذلك « أبو عمرو بن لبيد » و « أبو سفيان بن العــلاء » بن لبيد التغلبى خليفة « عيسى ابن شبيب المازنى » على شرط البصرة

وكان « عقِيلُ بنُ أَبي طَالِبٍ » ناسباً عالماً بالامهات، بين اللسان، شديد الجواب ، لا يقوم له أحد .

وكان « ابو الجهم بن حذيفة العدوى » ناسباً شديد العارضة ، كثير الذكر للامهات بالمثالب .

ورؤساء النسابين « دَغفَلُ بنُ حَنْظَلَةَ » أحد بنى عمرو بن شيبان، لم يدرك الناس مثله لساناً وعلماً وحفظا .

ومن هذه الطبقة « زَيْد بن الكَيِّس النَّمرِى » . ومن نسابى كلب « محمد ابن السائبِ » و « هشام بن محمد بن السائب » و « شرقى بن القطامى » .

وكان أعلامهم فى العلم ومن ضرب به المثل « حماد بن بشر »

قال سَمَّاكُ العُكْلِي :

فَسائِلْ دَغفَلاَ وأخا هِلاَلٍ وَنَخَّاراً يُنَبِّئكَ اليَقِينَا

وقد ذكرنا دغفلا . وأخو هلال هو زَيد بن الكيس ، و بنو هلال حى من

النَّمِر بن قاسط .

وقال مسكين بن أنيف الدارمى فى ذلك :

وَعِنْدَ الْكَيِّسِ النّمِرِىّ عِلمٌ ولوْ أَمْسَى بِمُنْخَرِقِ الشِّمَالِ

وقال ثابت قطنة :

فَمَا الْعَضَّانِ لوْ سُئِلاَ جَمِيعاً أَخُو بَكْرٍ وَزَيْدُ بني هِلاَلِ

ولا الْكَلْبِيُّ حَمَّادُ بْنُ بِشْرٍ ولا مَنْ قادَ في الزَّمَنِ الخَوَالِي

وقال زياد الاعجم :

بَلْ لَوْ سَأَلْتَ أخا رَبِيعَةَ دَغْفَلاً لَوَجَدْتَ في شَيْبانَ نِسْبَةَ دَغْفَلِ

إِن الاحابِن والَّذِينَ يَلُونَهُمْ شَرُّ الأَنامِ ونَسْلُ عَبْدِ الأَعْزَلِ

يهجو فيها بنى الخنساء .

ومنهم « إياس النصرى » كان أنسب الناس ، وهو الذى قال : كانوا يقولون : أشعر العرب أبو دواد الايادى ، وعدى بن زيد العبادى .

وكان « أبو نوفل بن أبى عقرب» علامة ناسباً خطيباً فصيحاً ، وهو رجل من كنانة أحد بنى عريج .

ومن بنى كنانة ثم من بنى الشَّدَّاخ « يزيد بن بكر بن دأب » وكان يزيد عالماً ناسباً ، وراوية شاعراً ، وهو القائل :

اللهُ يَعْلَمُ في عَلِيٍّ عِلْمَهُ وَكَذَاكَ عِلْمُ اللهِ في عُثْمانِ

وولدَ يزيدُ : « يحيى » و « عيسى » هو الذى يعرف فى العامة « بابن دأب » وكان من أحسن الناس حديثاً وبياناً ، وكان شاعراً راوية ، وصاحب رسائل وخطب ، وكان يجيدها جداً .

ومن آل دأب «حذيفة بن دأب» وكان عالماً ناسباً . وفى آل دأب علم بالنسب والخبر

وكان « أبو الأسود الدؤلى » ـ واسمه ظالم بن عمرو بن جندل بن سفيان ـ خطيباً عالماً ، وكان قد جمع شدة العقل ، وصواب الرأى ، وجودة اللسان ، وقول الشعر ، والظرف ، وهو يعد فى هذه الاصناف ، وفى الشيعة ، وفى العرجان ، وفي المفاليج .

وعلى كل شيء من هذا شاهد سيقع فى موضعه ان شاء الله تعالى

وقال الخس لابنته هند : أريد شراء فحل لابلى . قالت : إن اشتريته فاشتره أسجح الخدين غائر العينين ، أرقب ، أخرم ، أعكى ، أكوم . إن عصى غشم ، وإن أطيع تجرثم . وهى التى قالت لما قيل لها : ماحملك على أن زنيت بعبدك ؟ قالت : طول السواد ، وقرب الوساد .

السواد : السرار . أسجح : سهل واسع ، يقال : ملكت فأسجح . أرقب : غليظ الرقبة . أخرم : منتفخ موضع المخرم . أعكى : العكوة مغرز الوركين فى المؤخر. تصفه بشدة الوركين . إن عصي غشم : إن عصته الناقة غصبها نفسها . تجرثم : أى بقى ، مأخوذ من الجرثومة وهى الطين والتراب يجمع حول النخلة ليقويها . تصفه بالصبر والقوة على الضراب . أكوم : عظيم السنام .

وقال الشاعر فى السواد :

وَيَفْهَمُ قَوْلَ الحُكْلِ لَوْ أَنَّ ذَرَّةً ... تُساوِدُ أُخْرَى لَمْ يَفُتْهُ سِوَادُها

يقال : فى لسان فلان حكلة ، اذا كان شديد الحبسة مع لثغ

قالوا وعاتب هشام بن عبدالملك زيد بن على فقال له : بلغنى عنك شيء . فقال: ياأمير المؤمنين ، أحلف لك ؟ قال : واذا حلفت لى أصدقك ؟ قال : نعم . ان الله لم يرفع أحداً فوق أن لا يرضى به ، ولم يضع أحداً دون أن لا يرضى منه به

كان « زِيَادُ بنُ ظُبْيانَ » التيمى العايشى خطيباً ، فدخل عليه ابنه عبيد الله وهو يكيد (١) بنفسه ، قال : ألا أوصى بك الامير زياداً ؟ قال : لا . قال : ولم ؟ قال : اذا لم يكن للحىّ الا وصية الميت ، فالحى هو الميت .

وكان « عبيد الله » أفتك الناس وأخطب الناس . وهو الذى أتى باب « مالك ابن مسمع » ومعه نار ليحرق عليه داره. وقد كان نابه أمر فلم يرسل اليه قبل الناس. فأشرف عليه مالك فقال : مهلا يا أبا مطر ، فو الله إن فى كنانتى سهما أنا به أوثق منى بك. قال : وانك لتعدنى فى كنانتك ؟ فوا الله لو ان قمت فيها لطلتها ، ولو قعدت فيها لخرقتها : قال مالك : مهلا ، أكثر الله فى العشيرة مثلك . قال : لقد سألت الله شططا .

(١) يكيد بنفسه . يقاسي المشقة فى سياقه عند الاحتضار

ودخل « عبيد الله» على « عبدالملك بن مروان » بعدأن أتاه برأس مُصعب ابن الزبير، ومعه ناس من وجوه بكر بن وائل ، فأراد أن يقعد معه على سريره ،فقال له عبد الملك : ما بال الناس يزعمون أنك لا تشبه أباك ؟ قال : والله لأنا أشبه بأبى من الليل بالليل ، والغراب بالغراب ، والماء بالماء ، ولكن إن شئت أنبأتك بمن لا يشبه أباه . قال : ومن ذاك ؟ قال : من لم يولد لتمام ، ولم تنضجه الارحام ، ولم يشبه الاخوال والاعمام . قال : ومن ذاك ؟ قال :ابن عمى سويد بن منجوف . قال عبد الملك : أو كذلك أنت ياسويد ؟ قال : نعم . فلما خرجا من عنده اقبل عليه سُويد فقال : وَرِيت بك زنادى ، والله مايسرنى أنك نقصته حرفاً واحداً مما قلت له وأن لى حُمرَ النعم . قال: وأنا والله ما يسرنى بحلمك اليوم عنى سود النعم. وأتى «عبيدالله» عتاب بن ورقاء ،وعتاب على أصبهان ، فأعطاه عشرين ألف درهم فقال : والله ما أحسنت فاحمدك ، ولا أسأت فأذمك ، وانى لأقرب البعداء وأبعد القرباء . وقال أشيم بن شقيق بن ثور لعبيد الله بن زياد بن ظبيان : ما أنت قائل لربك وقد حملت رأس مصعب بن الزبير إلى عبد الملك بن مروان؟قال :اسكت فانت يوم القيامة أخطب من صعصعة بن صوحان إذا تكلمت الخوارج

فما ظنك ببلاغة رجل عبيد الله بن زياد يضرب به المثل؟

وانما أردنا بهذا الحديث خاصة الدلالة على تقديم صعصعة بن صوحان فى الخطب، وأولى من كل دلالة استنطاق علىّ له

وكان « عثمان بن عروة» أخطب الناس ، وهو الذى قال: والشكر وإن قل، ثمن لكل نوال وإن جل

وكان « ثابت بن عبد الله بن الزبير » من أبين الناس . ولم يكن خطيبا

وكان « قسامة بن زهير » أحد بنى رزام بن مازن، مع زهده ونسكه ومنطقه، من أبين الناس ، وكان يعدل بعامر بن عبد قيس فى زهده ومنطقه، وهو الذى قال : رَوحوا هذه القلوب تعى الذكر . وهو الذى قال : يامعشر الناس، إن كلامكم أكثر من صمتكم ، فاستعينوا على الكلام بالصمت ، وعلى الصواب بالفكر . وهو الذى كان رسول عمر فى البحث عن شأن المغيرة وشهادة أبى بكرة

وكان « خالد بن يزيد بن معاوية » خطيبا شاعراً ، وفصيحا جامعا ، وجيد الرأى كثير الادب . وكان أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء

ومن خطباء قريش « خالد بن سلمة المخزومى » وهو ذو الشفة . وقال الشاعر فى ذلك :

فما كانَ قائلهمْ دَغفَلٌ ولا الحيقطانُ ولاَ ذُو الشَّفَهْ

ومن خطباء العرب « عطارِدُ بنُ حاجب بن زُرارَة » وهو كان الخطيب عند النبي ﷺ وقال فيه الفرزدق بن غالب :

ومِنَّا خَطيبٌ لاَ يُعابُ وَحامِلٌ أغرُّ إذا التفّتْ عليْهِ المَجامعُ

ومن الخطباء « عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود » وكان مع ذلك راوية ناسبا شاعراً . ولما رجع عن قول المرجئة إلى قول الشيعة قال :

وَأَوَّلُ مانُفَارِقُ غَيْرَ شَكٍ نُفَارِقُ مَا يَقُولُ المَرْجِئُونَا

وَقَالوا مُؤْمِنٌ منْ آل جَوْرٍ وَلَيْسَ المُؤْمِنونَ بِجَائِرِينَا

وَقَالوا مُؤمنٌ دَمُهُ حَلاَلٌ وَقَدْ حرُمَتْ دِماءُ المؤمنِينَا

وكان حين هرب إلى محمد بن مروان فى فل ابن الاشعث ألزمه ابنه يؤدبه ويقومه فقال له يوما : كيف ترى ابن أخيك ؟ قال : ألزمتنى رجلا إن عبت عنه عتب . وان أتيته حجب . وان عاتبته غضب . ثم لزم عمر بن عبد العزيز . وكان ذا منزلة منه . قالوا : وله يقول جرير :

ياأيُّهَا الرَّجُلُ المرْخِي عِمامَتَهُ هَذَا زَمَانُكَ إنِّى قَدْ مَضى زَمنِي

أبْلغْ خَليفَتَنَا إنْ كُنْتَ لاقِيَهُ أنّى لَدَى البْابِ كالمَشْدُودِ فى قَرَنِ

وقَدْرآكَ وُفُودُ الخافِقين معاً وَمُذْولِيتَ أمُورالنّاسِ لَمْ تَرَنِى

وكان « الجارود بن أبى سبرة » - ويكنى أبا نوفل - من أبين الناس وأحسنهم حديثا . وكان راوية علامة شاعرا مفلقا . وكان من رجال الشيعة ، ولما استنطقه الحجاج قال : ما ظننت أن بالعراق مثل هذا ؟ وكان يقول : ما أسكننى وال قط من أذنه إلا غلبت عليه . ما خلا هذا اليهودى - يعنى بلال بن أبى بردة - وكان عليه متحاملا، فلما بلغه أنه دهق حتى دقت ساقه وجعل الوتر فى خصييه أنشأ يقول:

لَقَدْ قَرَّ عَيْنِي أَنَّ سَاقَيْهِ دُقَّتَا ... وَأَنَّ قُوَى الأَوْتَارِ فِي البَيْضَةِ الْيُسْرَى

بَخِلْتَ وَرَاجَعْتَ الخِيَانَةَ والخَنَا ... فَيَسَّرَكَ اللهُ المُقَدَّسُ لِلْعُسْرَى

فَمَا جِذْعُ سُوءٍ خَرَّبَ السُّوسُ جَوْفَهُ ... يُعَالِجُهُ النَّجَّارُ يُبْرَى كَمَا تُبْرَى

وانما ذكر الخصية اليسرى لان العامة تقول ان الولد منها يكون

ومن الخطباء الذين لا يضاهون ولا يجارون « عبد الله بن عباس » قالوا خطبنا بمكة ــ وعثمان رضي الله تعالى عنه محاصرا ــ خطبة لو شهدتها الترك والديلم لاسلمتا: وذكره حسان بن ثابت فقال :

إِذَا قَالَ لَمْ يَتْرُكْ مَقَالاً لِقَائِلٍ ... بِمُلْتَقَطَاتٍ لاَ تَرَى بَيْنَهَا فَصْلاَ

كَفَى وَشَفَى مَا فِي النُّفُوسِ وَلَمْ يَدَعْ ... لِذِي إِرْبَةٍ فِي القَوْلِ جِدًّا ولا هَزْلاَ

سَمَوْتَ إِلَى العَلْيَا بِغَيْرِ مَشَقَّةٍ ... فَنِلْتَ ذُرَاهَا لاَ دَنِيًّا ولاَ وَغْلاَ

وقال الحسن : كان عبد الله بن عباس أول من عرف بالبصرة صعد المنبر فقرأ البقرة وآل عمران ففسرهما حرفا حرفا . وكان والله مثجا يسيل غربا . وكان يسمى « البحر » و « حبر قريش » وقال النبي ﷺ « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » وقال عمر :غص غواص . ونظر اليه يتكلم فقال :

شِنْشِنَةٌ أَعْرِفُهَا مِنْ أَخْزَمِ

الشعر لابى أخزم الطائى وهو جد أبى حاتم طي أوجد جده . وكان له ابن يقال له أخزم فمات وترك بنين ، فوثبوا يوما على جدهم أبى أخزم فأدموه ، فقال:

إِنَّ بَنِيَّ زَمَّلُونِى بِالدَّمِ ... شِنْشِنَةٌ أَعْرِفُهَا مِنْ أَخْزَمِ

أى انهم أشبهوا أباهم فى طبيعته وخلقه . وأحسبه كان به عاقا . فهكذا ذكر ابن الكلبي . والشنشنة مثل الطبيعة والسجية فاراد عمر رضي الله تعالى عنه: إنى أعرف فيك مشابهة فى أبيك فى رأيه وعقله . ويقال إنه لم يكن لقرشي مثل رأى العباس

ومن خطباء بنى هاشم أيضا « داود بن على » وكان يكنى أبا سليمان . وكان

أنطق الناس وأجودهم ارتجالا واقتضابا للقول . ويقال إنه لم يتقدم فى تحبير خطبة قط . وله كلام كثير معروف محفوظ . فمن ذلك خطبته على أهل مكة : شكرا شكرا ، أما والله ما خرجنا لنحتفر فيكم نهرا ، ولا لنبنى فيكم قصرا . أظن عدو الله أن لم نظفر به أن أرخى له فى زمامه . حتى عثر فى فضل خطامه ؟ فالآن عاد الأمر فى نصابه . وطلعت الشمس من مطلعها . وأخذ القوسَ باريها . وعاد النبل إلى النزعة . ورجع الأمر الى مستقره، فى أهل بيت نبيكم، أهل بيت الرأفة والرحمة

ومن خطباء بنى هاشم « عبد الله بن الحسن » وهو القائل لابنه ابرهيم أو محمد: أى بنى ، إنى مؤد إليك حق الله فى تأديبك فأد إلىّ حق الله فى حسن الاستماع . أى بنى ، كف الأذى ، وارفض البذاء ، واستعن على الكلام بطول الفكر فى المواطن التى تدعوك نفسك فيها إلى القول . فان للقول ساعات يضر فيها الخطأ ولا ينفع فيها الصواب . واحذر مشورة الجاهل وان كان ناصحا كما تحذر مشورة العاقل إذا كان غاشا ، يوشك أن يورطاك بمشورتهما فيسبق اليك مكر العاقل وغرارة الجاهل .

قال الحسن بن خليل : كان المأمون قد استثقل « سهل بن هرون » فدخل عليه سهل يوما والناس عنده على منازلهم ، فتكلم المامون بكلام فذهب فيه كل مذهب . فلما فرغ المامون من كلامه أقبل سهل بن هرون على ذلك الجمع فقال: ما لكم تسمعون ولا تعون ، وتشاهدون ولا تفهمون ، وتفهمون ولا تعجبون ، وتنظرون ولا تبصرون ؟ والله انه ليفعل ويقول فى اليوم القصير مثل ما فعل بنو مروان وقالوا فى الدهر الطويل . عربكم كعجمهم، وعجمكم كعبيدهم . ولكن كيف يعرف الدواء من لا يشعر بالداء ؟ قال : فرجع له المامون بعد ذلك إلى الرأى الاول

ومن خطباء بنى هاشم ، ثم من ولد جعفر بن سليمان « سليمان بن جعفر » والى مكة . قال المكى سمعت مشايخنا من أهل مكة يقولون: انه لم يرد عليهم أمير منذ عقلوا الكلام إلا وسليمان أبين منه قاعداً وأخطب منه قائما

وكان « داود بن جعفر » إذا خطب اسحنفر ، فلم يرده شىء . وكان فى لسانه شبيه بالرتة

وكان « أيوب » فوق داود فى الكلام والبيان ، ولم يكن له مقامات داود

فى الخطب . قال عيسي بن اسحق لداود بن جعفر : بلغنى أن معاوية قال للنخار بن أوس : أبغنى محدثا . قال : ومعى يا أمير المؤمنين تريد محدثا ؟ قال : نعم ، استريح منك إليه ومنه إليك . وأنا لا أستريح إلى غير حديثك ، ولا يكون صمتك فى حال من الحالات أوفق لى من كلامك .

وكان « اسماعيل بن جعفر » من أدق الناس لسانا وأحسنهم بيانا

ومن خطباء بنى هاشم « جعفر بن حسن » بن الحسين بن على ، وكان أحد من ينازع زيدا فى الوصية ، فكان الناس يجتمعون ليسمعوا مجاوباتهما فقط

وجماعة من ولد العباس فى عصر واحد لم يكن لهم نظراء فى أصالة الرأى ، وفى الكمال والجلالة ، وفى العلم بقريش والدولة ، وبرجال الدعوة ، مع البيان العجيب ، والغور البعيد ، والنفوس الشريفة ، والاقدار الرفيعة . وكانوا فوق الخطباء ، وفوق أصحاب الاخبار . وكانوا يجلون عن هذه الاسماء الا أن يصف الواصف بعضهم ببعض ذلك

منهم « عبد الملك بن صالح » سأله الرشيد ـ وسليمان بن أبى جعفر وعيسى بن جعفر شاهدان ـ فقال له : كيف رأيت أرض كذا وكذا ؟ قال : مسافى ريح ، ومنابت شيح . قال : فارض كذا وكذا ؟ قال : هضاب حمر ، وبراث عفر . حتى اتى على جميع ما أراد . فقال عيسى لسليمان : والله ما ينبغى لنا أن نرضى لانفسنا بالدون من الكلام .

الهضبة : الجبل ينبسط على الارض ، وجمعها هضاب . والبراث : الاماكن اللينة السهلة ، واحدها برث . وقوله : عفر ، أى حمرتها كحمرة التراب . والظبي الاعفر الاحمر ، لان حمرته كذلك والعَفر والعَفْر : التراب . ومنه قيل : ضربه حتى عفره ، أى ألحقه بالتراب

ومن هؤلاء « عبد الله بن صالح » و « العباس بن محمد » و « اسحق بن عيسى » و « اسحق بن سليمان » و « أيوب بن جعفر » هؤلاء كانوا أعلم بقريش وبالدولة وبرجال الدعوة من المعروفين برواية الاخبار . وكان ابرهيم بن السندى يحدثنى عن هؤلاء بشيء هو خلاف ما فى كتب الهيثم بن عدى ، وابن الكلبي ، واذا سمعته علمت أنه ليس من المؤلف المزور

وكان « عبد الله بن على » و « داود بن على » يعد لان بامة من الأمم .

ومن مواليهم « ابرهيم »و « نصر » ابنا « السندى »

فاما « نصر » فكان صاحب أخبار وأحاديث ، وكان لا يعدو حديث ابن الكلبي والهيثم

وأما « ابرهيم »فانه كان رجلا لا نظير له ، وكان خطيبا ، وكان ناسبا ،وكان فقيها ، وكان نحويا عروضيا ، وحافظا للحديث ، راوية للشعر ، شاعرا . وكان فخم الألفاظ ، شريف المعانى . وكان كاتب القلم ، كاتب العمل . وكان يتكلم بكلام رؤبة ، ويعمل فى الخراج بعمل زاذان فروح الاعور . وكان منجما ، طبيبا ، وكان من رؤساء المتكلمين . وعالما بالدولة وبرجال الدعوة . وكان أحفظ الناس لما سمع ، وأقلهم نوما وأصبرهم على السهر

ومن خطباء تميم « جحدب » وكان خطيبا راوية ، وكان قضى على جرير فى بعض مذاهبه ، فقال جرير :

قَبَحَ الالهُ وَلا يُقبّحُ غيرَهُ   بَظْراً تَفَلّقَ عَنْ مَفارِقِ جَحْدَبِ

وهو الذى كان لقية خالد بن سلمة المخزومى الخطيب الناسب فقال : والله ما أنت من حنظلة الاكرمين ، ولا سعد الاكثرين ، ولا عمرو الاسدين ، وما فى تميم خير بعد هؤلاء . فقال له جحدب : والله انك لمن قريش ، وما أنت من بيتها ، ولا من ثبوتها ، ولا من شورها وخلافتها ، ولا من أهل سداناتها وسقايتها

وهو شبيه بما قال خالد بن صفوان للعبدرى ، فانه قال له : هشمتك هاشم ، وأمتك أمية ، وخزمتك مخزوم ، وأنت من عبد دارها ، ومنتهى عارها ، تفتح لها الابواب اذا أقبلت ، وتغلقها اذا أدبرت .

ومن ولد المنذر « عبد الله بن شبرمة » بن طفيل بن هبيرة بن المنذر . وكان فقيها عالما قاضيا . وكان راوية شاعرا . وكان خطيبا ناسبا . وكان حاضر الجواب مفوها . وكان لاجتماع هذه الخصال فيه يشبه بعامر الشعبي . وكان يكنى أباشبرمة. وقال يحي بن نوفل :

لما سألتُ النّاس أينَ المكرُمَهْ   وَالعزُّ والجرثُومَةُ المُقدَّمَهْ

وأينَ فارُوقُ الأمُورِ المُحْكَمَهْ   تَتَابَعَ النّاسُ على ابنِ شُبْرُمَهْ

وابن شبرمة الذى يقول فى ابن أبى ليلى :

وكَيْفَ تُرَجَّى لِفَصْلِ القَضاءِ   وَلَمْ تُصِبِ الْحُكْمَ فِي نَفْسِكَا
فَتَزْعُمُ أَنَّكَ لابْنِ الْجُلاحِ   وَهَيْهَاتَ دَعْوَاكَ مِنْ أَصْلِكَا

وقال رجل من فقهاء المدينة: مِن عندِنا خرج العلم. فقال ابن شبرمة : نعم ، ثم لم يرجع اليكم .وقال عيسى بن موسى : دلونى على رجل أوليه مكان كذا وكذا. فقال ابن شبرمة : أصلح الله الامير ، هل لك فى رجل إن دعوتموه أجابكم ، وإن تركتموه لم يأتكم ، ليس بالملحّ طلبا ،ولا بالممعن هربا ؟

وسئل عن رجل فقال : إن له شرفاً وبيتاً وقَدماً . ونظروا فإذا هو ساقط من السفلة ،فقيل له فى ذلك ؟ فقال : ما كذبتُ ، شرفه أذناه ، وقدمه التى يمشى عليها ، ولا بد من أن يكون له بيت يأوى اليه

قال أبو اسحق : بل كذبتَ ، إنما هو كقول القائل حين سأله بعض من أراد تزويج حرمة عن رجل فقال : هو يبيع الدواب . فلما نظروا فى أمره وجدوه يبيع السنانير ، فلما سئل عن ذلك قال : ما كذبتُ ، لأن السّنورَ دابة . قال أبو اسحق : بل لعمرى لقد كذب . وهذا مثل القائل حين سئل عن رجل فى تزويج امرأة فقال : رزينُ المجلس ، نافذُ الطعنة ، فحسبوه سيدا فارسا ، فنظروا فوجدوه خياطاً ، فسئل عن ذلك فقال : ما كذبتُ ، انه لطويل الجلوس ، جيد الطعن بالابرة . فقال أبو اسحق : بل لعمرى لقد كذب ،لانه قدغرهم منه . وكذلك لوسأله رجل عن رجل يريد أن يسلفه مالا عظيما فقال : هو يملك مالا كان يبيعه بمائة ألف ومائة ألف . فلما بايعه الرجل وجده معدما ضعيف الحيلة . فلما قيل له فى ذلك قال : ما كذبك لانه يملك عينيه وأذنيه وأنفه وشفتيه . حتى عد جميع أعضائه وجوارحه . .

ومن قال للمستشير هذا القول فقد غره . وذلك مما لا يحل فى دين . ولا يحسن في الحرية ، وهذا القول معصية لله تعالى والمعصية لا تكون صدقا . وأدنى منازل هذا الخبر لا يسمى صدقا . فاما التسمية له بالكذب فان فيها كلاما يطول

ومن الخطباء المشهورين فى العوام والمتقدمين فى الخواص «خالد بن صفوان الاهتمى » زعموا جميعاً انه كان عند أبى العباس أمير المؤمنين وكان من سماره وأهل المنزلة عنده ، ففخر عليه ناس من بَلحارث بن كعب وأكثروا فى القول ، فقال أبو العباس : لم لا تتكلم ياخالد ؟ فقال : أخوال أمير المؤمنين وعصبته . قال : فانتم

أعمام أمير المؤمنين وعصبته . قال خالد : وما عسى أن أقول لِقوم كانوا بين ناسج بُرد ، ودابغ جلد ، وسائس قرد ، وراكب عرد . دل عليهم هدهد ، وغرقتهم فأرة ، وملكتهم امرأة ؟

فلئن كان خالد قد فكر وتدبر هذا الكلام إنه للراوية الحافظ، والمؤلف المجيد. ولئن كان هذا شيئا حضره حين حرك و بسط فما له نظير فى الدنيا . فتامل هذا الكلام فانك ستجده مليحا مقبولا ، وعظيم القدر جليلا . ولو خطب اليمانى بلسان سحبان وائل حولا كريتا (١) ثم صُك بهذه الفقرة ما قامت له قائمة

وكان أذكر الناس لاول كلامه وأحفظهم لكل شىء سلف من منطقه . قال مَكى بنُ سوادة فى صفته له :

عَلِيمٌ بِتنْزِيلِ الكَلاَمِ مُلَقّنٌ ذَكُورٌ لِمَا سَدَّاهُ أَوَّل أَوَّلا

يَبُذُّ فَرِيعَ القَومِ في كُلِّ مَحْفِلٍ وإِنْ كانَ سَحْبَانَ الخَطِيبَ وَدَغفلا

تَرَى خُطَبَاءَ النّاسِ يَوْمَ ارْتِجَالِهِ كَأَنَّهُمُ الكِرْوَانُ عَايَنَ أَجْدَلاَ

الكِروان : جمع كَروان ، وهو ذكر الحبارى. والاجدل : الصقر

وكان يقارض « شبيب بن شيبة » لاجتماعهما على القرابة والمجاورة والصناعة . فذكر شبيب عنده مرة فقال : ليس له صديق فى السر ، ولا عدو فى العلانية .

وهذا كلام ليس يعرف قدره إلا الراسخون فى هذه الصناعة.

وكان خالد جميلا ولم يكن بالطويل ، فقالت له امرأة: انك لجميل يا أباصفوان. قال : وكيف تقولين هذا وما فىّ عمود الجمال ولا رداؤه ولا برنسه ؟ فقيل له : ما عمود الجمال ؟ قال : الطول ولست بطويل ، ورداؤه البياض ولست بأبيض ، و برنسه سواد الشعر وأنا أشمط . ولكن قولى : إنك لمليح ظريف . وخالد يعد فى الصلعان

ولكلام خالد كتاب يدور فى أيدى الوراقين

وكان « الازهر بن عبدالحارث » بن ضرار بن عمرو الضبى ، عالما ناسبا ومن خطباء بنى ضبة « حنظلة بن ضرار » وقد أدرك الاسلام وطال عمره حتى

---

(١) حولا كريتا : أى عاما كاملا

أدرك يوم الجمل ، وقيل له : ما بقى منك ؟ قال : أذكر القديم ، وأنسى الحديث ، وآرق بالليل ، وأنام وسط القوم

ومن خطباء بنى ضبة وعلمائهم « مشجور بن غيلان » بن خرشة، وكان مقدما في المنطق ، وهو الذى كتب إلى الحجاج : انهم قد عرضوا على الذهب والفضة، فما ترى أن آخذ ؟ قال : أرى أن تأخذ الذهب . فذهب عنه هاربا ، ثم قتله بعد

وذكره القلاح بن حزن المنقرى فقال :

مِثَالُ مَشْجورٍ قَلِيلٌ ومِثْلُهُ   فَتَى الصِّدْقِ إِنْ صَفَّقْتَهُ كلَّ مُصَفَّقِ

وَمَا كُنْتُ أَشْرِيهِ بِدُنيا عَرِيضَةٍ   وَلا بابنِ خَالٍ بَيْنَ غَرْبٍ ومَشْرِقِ

إِذا قالَ بَذَّ القَائلينَ مَقالُهُ   ويأخُذُ منْ أكفَائِهِ بالمُخَنَّقِ

ومن خطباء الخوارج « قَطَرِىُّ بنُ الفُجَاءَةِ » له خطبة طويلة مشهورة ، وكلام كثير محفوظ . وكانت له كنيتان : كنية فى السلم ، وهو: أبو محمد، وكنية في الحرب، وهو: أبو نعامة

وكانت كنية « عامر بن الطفيل » فى الحرب غير كنيته فى السلم . كان يكنى فى الحرب بأبى عقيل ، وفى السلم : بأبى على

وكان « يزيد بن مَزْيَد » يكنى فى السلم بأبى خالد ، وفى الحرب بابى الزبير

وقال مسلم بن الوليد الانصارى :

لوْلاَ سيُوفُ أَبِى الزُّبَيْرِ وَخيْلُهُ   بَشَرَ الوَلِيدُ لِسَيْفِهِ الضَّحَّاكَا

وفيه يقول :

لوْلاَ يَزِيدُ وَمِقدَارٌ لَهُ سَبَبٌ   عَاشَ الوليدُ معَ الغَاوِينَ أَعْوَامَا

سَلَّ الخَلِيفَةُ سيْفاً مِنْ بَنِى مَطَرٍ   يَمْضِى فيَخْتَرِقُ الأَرْوَاحَ والْهَامَا

إِذَا الخِلاَفَةُ عُدَّتْ كُنْتَ أَنْتَ لَهَا   عِزًّا وكَانَ بنُو العَبَّاسِ حُكَّامَا

ألا تراه قد ذكر قتل الوليد

وقد كان « خالد بن يزيد » اكتنى بها فى الحرب فى بعض أيامه بمصر

وهذا الباب مستقصى مع غيره فى أبواب الكنى والاسماء وهو وارد عليكم ان شاء الله تعالى

ومن خطباء الخوارج « ابن صديقة » وهو القاسم بن عبد بالرحمن بن صديقة ، وكان صفريا، خطيبا ناسبا ، ويشوبه ببعض الطرف والهزل

ومن علماء الخوارج « شُبَيْلُ بْنُ عَزْرَةَ الضُّبَعِي » صاحب الغريب، وكان راوية خطيبا ، وشاعرا ناسبا ، وكان سبعين سنة رافضيا ، ثم انتقل خارجيا صفريا

ومن علماء الخوارج « الضحاك بن قيس الشيبانى » ويكنى أبا سعيد ، وهو الذى ملك العراق وسار فى خمسين ألفا ، وبايعه عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ، وسليمان بن هشام بن عبد الملك ، وصليا خلفه

وقال شاعرهم :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَظْهَرَ دِينَهُ وصلَّتْ قُرَيْشٌ خَلْفَ بَكْرِ بن وَائِلِ

وكان « ابن عطاء الليثى » يسامر الرشيد ، وكان صاحب أخبار وأسمار ، وعلم بالانساب ، وكان أظرف الناس وأحلاهم

وكان « عبد العزيز بن عبد الله بن عامر » بن كريز ، راوية ناسبا ، وعالما بالعربية فصيحا

وكان « عبد الاعلى بن عبد الله بن عامر » من أبين الناس وأفصحهم ، وكان مسلمة بن عبد الملك يقول : إنى لأنحى كور العمامة عن أذنى لاسمع كلام عبد الاعلى ابن عبد الله . وقال بعض الامراء . وأظنه بلال بن أبى بردة ـ لابى نوفل الجارود بن أبى سبرة : ماذا تصنعون عند عبد الاعلى إذا كنتم عنده ؟ قال : يشاهدنا باحسن استماع وأحسن حديث ، ثم يأتى الطباخ فيمثل بين عينيه فيقول : ما عندك؟ فيقول : عندى لون كذا ، وجدى كذا ، ودجاجة كذا ، ومن الحلو كذا قال : ولم يسأل عن ذلك ؟ قال : ليقصر كل رجل عما لا يشتهى حتى يأتيه ما يشتهى، ثم يأتون بالخوان فيتضايق و نتسع، و يقصر ونجتهد، فاذا شبعنا خوى تخوية الظليم ثم أقبل يأكل أكل الجائع المقرور

والجارود هو الذى قال : سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل . وهو

الذى قال :عليكم بالمربد فانه يطرد الفكر،و يجلو البصر ،و يجاب الخبر ، و يجمع بين ربيعة ومضر .

وصعد عثمان المنبر فارتج عليه فقال : إن أبا بكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالا ، وأنتم إلى امام عادل أحوج منكم إلى إمام خطيب . وستأتيكم الخطب على وجهها وتعلمون ان شاء الله تعالى

وشخص « يزيد بن عمر بن هبيرة » الى هشام بن عبدالملك فتكلم،فقال هشام: ما مات من خلف مثل هذا . فقال « الابرش الكلبي » : ليس هناك ، أما تراه يرشح جبينه لضيق صدره ؟ قال يزيد : ما لذلك رشح ، ولكن لجلوسك فى هذا الموضع .

وكان الابرش ثلابة نسابة ، وكان مصاحبا لهشام بن عبدالملك ، فلما أفضت إليه الخلافة سجد وسجد من كان عنده من جلسائه ، والابرس شاهد لم يسجد ، فقال له هشام : ما منعك أن تسجد يا أبرش ؟ قال : ولم أسجد وأنت اليوم معى ماشيا وغدا فوقى طائرا ؟ قال : فان طرت بك معى ؟ قال : أتراك فاعلا ؟ قال : نعم . قال : فالآن طاب السجود . ودخل يزيد بن عمر على المنصور ــ وهو يومئذ أمير ــ فقال : أيها الامير ، ان عهد الله لا ينكث ، وعقده لا يحل ، وإن إمارتكم بكر ،فاذيقوا الناس حلاوتها، وجنبوهم مرارتها .

قال سهل بن هرون : دخل قطرب النحوى على المخلوع فقال: يا أمير المؤمنين، كانت عدتك أرفع من جائزتك . وهو يتبسم ، قال سهل:فاغتاظ الفضل بن الربيع ، فقلت له : ان هذا من الحصر والضعف،وليس هذا من الجلد والقوة ، أما تراه يفتل أصابعه ويرشح جبينه ؟

وقال عبد الملك لخالد بن سلمة المخزومى : من أخطب الناس ؟ قال : أنا . قال : ثم من ؟ قال : سيد جذام . يعنى روح بن زنباع . قال : ثم من ؟ قال : أخيفش ثقيف . يعنى الحجاج . قال : ثم من ، قال : أمير المؤمنين . قال : ويحك ،جعلتنى رابع أربعة ، قال : نعم ، هو ما سمعت .

ومن خطباء الخوارج وعلمائهم ورؤسائهم فى الفتيا،وشعرائهم ورؤساء قعدهم

« عِمْرَانُ بنُ حِطَّانٍ »

ومن علمائهم وشعرائهم وخطبائهم « حبيب بن خدرة الهلالى » وعداده فى بنى شيبان .

وممن كان يرى رأى الخوارج « أبو عبيدة » النحوى معمر بن المثنى مولى تيم بن مرة ولم يكن فى الارض خارجي ولا جماعى أعلم بجميع العلم منه .

وممن كان يرى رأى الخوارج « الهيثم بن عدى » الطائى ثم البحترى

وممن كان يرى رأى الخوارج « شعيب بن رباب » الحنفى أبو بكار صاحب احمد بن أبى خالد ومحمد بن حسان السكسكى

ومن الخوارج من علمائهم ورواتهم « مسلم بن كرزين » وكنيته أبو عبيدة وكان اباضيا

ومن علمائهم الصفرية، وممن كان مقنعا فى الاخبار لاصحاب الخوارج والجماعة جميعا « مليل » وأظنه من بنى ثعلبة

ومن أهل هذه الصنعة « أصفر بن عبد الرحمن » من أخوال « طوق بن مالك »

ومن خطبائهم وفقهائهم وعلمائهم « المقعطِلُ » قاضي عسكر الازارقة أيام قَطرى .

ومن شعرائهم ورؤسائهم وخطبائهم « عبيدة بن هلال اليشكرى » وكان فى بنى السمين ، ومن بنى شيبان خطباء العرب ، وكان فيهم ذاك فاشيا ، ولذلك قال الاخطل :

فأَيْنَ السَّمِينُ لاَ يَقُومُ خَطِيبُهَا ‏ ‏ ‏ ‏ وَأَيْنَ ابنُ ذِي الجَدَّيْنِ لاَ يَتَكَلَّمُ

وقال سحيم بن حفص : كان « يزيد بن عبد الله بن رؤبة الشيبانى » من أخطب الناس عند « يزيد بن الوليد » فأمر للناس بعطاءين

ومن الخطباء « معبد بن طوق العنبرى » دخل على بعض الامراء فتكلم وهو قائم فأحسن ، قال فلما جلس تلهيع فى كلامه ، فقال له : ما أظرفك قائما وأموقك قاعداً ! قال : إنى إذا قمت جددت ، واذا قعدت هزلت . قال ما : أحسن ما خرجت منها !

ومن خطباء عبد القيس «مَصْقَلَةُ بْنُ رَقَبَةَ بن مَصْقَلَةَ » و« كَرِبُ بْنُ رَقَبَةَ »
والعرب قد ذكروا من خطب العرب « العجوز » وهى خطبة لآل رقبة ، ومتى
تكلموا فلا بد لهم منها أو من بعضها « والعذراء » وهى خطبة « قيس بن خارجة »
لانه كان أبا عذرها . « والشوهاء » وهى خطبة « سحبان وائل » وقيل ذلك لها
من حسنها ، وذلك أنه خطب بها عند معاوية فلم ينشد شاعر ولم يخطب خطيب
وكان « أبو عمار الطائى » خطيب مذحج كلها فبلغ النعمان حسن حديثه فحمله
على منادمته ، وكان النعمان أحمر العينين، أحمر الجلد، أحمر الشعر ، وكان شديد العربدة،
قتالا للندماء ، فنهاه أبو قردودة الطائى عن منادمته ، فلما قتله رثاه فقال :

إنى نَهَيْتُ ابْنَ عَمَّارٍ وَقُلْتُ لهُ لاَ تأْمَنَنْ أحْمَرَ الْعَيْنَيْنِ والشَّعَرَه
إنَّ الْمُلُوكَ متى تَنْزِلْ بِساحَتِهِمْ تَطِرْ بِنارِكَ مِنْ نِيرَانِهِمْ شَرَرَه
يا جَفْنَةً كازَاءِ الْحَوْضِ قَدْ هَدَمُوا وَمَنْطِقاً مِثْلَ وشَى اليُمْنَةِ الْحَبَرَه

وقال الاصمعى :هو كقوله :

وَمَنْطِقٌ خُرِّقَ بالعَوَاسِلِ لَذٌّ كَوَشْيِ اليُمْنَةِ الْمَرَاجِلِ

وسأل رسول الله ﷺ عمرو بن الاهتم عن الزبرقان بن بدر فقال : انه لمانع
لحوزته ، مطاع فى أذينه . قال الزبرقان : يارسول الله ، إنه ليعلم منى أكثر مما قال،
ولكنه حسدنى يارسول الله فى شرفى فقصر بى. فقال عمرو : هو والله زَمِرُ المُرُوءة
ضيقُ العطن ، لئيم الخال . فنظر النبى ﷺ فى عينيه فقال : يارسول الله ، رضيت
فقلتُ أحسنَ ما علمت ، وغضبت فقلت أقبح ما علمت ، وما كذبت فى الاولى،
ولقد صدقت فى الآخرة : فقال رسول الله ﷺ « إنّ منَ البيان لسحرا »
وتكلم رجل فى حاجة عند عمر بن عبد العزيز ـ وكانت حاجته فى قضائها
مشقة ـ فتكلم الرجل بكلام رقيق موجز وتأتى لها فقال عمر : والله ان هذا
للسحر الحلال .

ومن أصحاب الاخبار والآثار « أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أبى سبرة »
وكان القاضى قبل أبى يوسف،

ومن أصحاب الاخبار والاثار « أبو هُنَيْدَةَ » و « أبو نعامة » العدويان

ومن الخطباء « أيوب بن القرية » وهو الذى لما دخل على الحجاج قال له: ما أعددت لهذا الموقف ؟ قال: ثلاثة حروف ، كأنهن ركب وقوف ، دنيا وآخرة ومعروف . ثم قال له فى بعض ما يقول : أقلنى عثرتى ، وأسغنى ريقى ، فانه لا بد للجواد من كبوة ، وللسيف من نبوة ، وللحليم من هفوة ؟ قال : كلا والله حتى أوردك جهنم . ألست القائل برُستاقاباد : تغدوا الجدى قبل أن يتعشا كم ؟

ومن خطباء غطفان في الجاهلية « خُوَيْلِدُ بنُ عَمْرٍو » و « العُشَرَاءُ بنُ جَابِر » بن عقيل بن هلال بن سمى بن مازن بن فزارة . وخويلد خطيب يوم الفجار

ومن أصحاب الاخبار والنسب والخطب وأهل البيان « الوضاح بن خيثمة »

ومن أصحاب الاخبار والنسب والخطب والحكام عند أصحاب النفورات « بنو الكواء » وإياهم يعنى مسكين بن أنيف الدارمى حين ذكر أهل هذه الطبقة فقال :

كِلانَا شَاعِرٌ مِنْ حَيِّ صِدْقٍ ... ولكنَّ الرَّحيَ فوقَ الثفالِ

وَحَكِّمْ دَغْفَلاً وَارْحَلْ إِلَيْهِ ... وَلاَ تَرِحِ المَطِيَّ مِنَ الْكَلاَلِ

تَعَالَ إِلَى بَنِي الكَوَّاءِ يَقضُوا ... بِعِلمِهِمِ بأَنسابِ الرِّجَالِ

تَعالَ إِلى ابنِ مَذْعُورٍ شِهَابٍ ... يُنَبِّي بالسَّوَافِلِ وَالعَوَالِي

وعِندَ الكَيِّسِ النَّمَرِيِّ عِلمٌ ... وَلوْ أَضْحَى بِمُنْخَرَقِ الشَّمالِ

ومن الخطباء القدماء « كعب بن لؤى » وكان يخطب على العرب عامة ، ويحض كنانة خاصة على البر ، فلما مات أكبروا موته ، فلم تزل كنانة تؤرخ بموت كعب ابن لؤى إلى عام الفيل .

ومن الخطباء الابيناء العلماء الذين جروا من الخطابة على أعراق قديمة « شبيب ابن شيبة » وهو الذى يقول فى صالح بن أبى جعفر المنصور — وقد كان المنصور اقام صالحاً فتكلم — فقال شبيب : مارأيت كاليوم أبين بيانا ، ولا أجود لسانا ، ولا أربط جنانا ، ولا أبل ريقا ، ولا أحسن طريقاً ، ولا أغمض عروقاً ، من صالح . وحق لمن كان أمير المؤمنين أباه ، والمهدى أخاه ، أن يكون كما قال زهير :

يَطْلُبُ شأوَ امْرَأينِ قَدَّمَا حَسَناً ... نَالا الملوكَ وَبَذَّا هَذِهِ السُّوَقَا

هُوَ الجَوَادُ فإنْ يَلْحَقْ بِشأوِهِمَا ... عَلى تَكَالِيفِهِ فَمِثْلُهُ لَحِقَا

أَوْ يَسْبِقاهُ على ما كانَ مِنْ مَهَلٍ ... فَمِثْلُ ماقَدَّما مِنْ صالِحٍ سَبَقا

وخرج شبيب من دار الخلافة يوماً فقال له قائل : كيف رأيت الناس ؟ قال : رأيت الداخل راجياً ، والخارج راضياً . وقال خالدُ بنُ صفوان : إتقوا مجانيق الضعفاء . يريد الدعاء . وقال شبيب : أطلب الادب ، فانه دليل على المروءة ، وزيادة فى العقل ، وصاحب فى الغربة ، وصلة فى المجلس. وقال شبيب للمهدى يوماً: أراك الله فى بنيك ما أرى أباك فيك ، وأرى الله بنيك فيك ماأراك فى أبيك .

وقال أبو الحسن : قال زَيد بن على بن الحسين : أطلب مايعنيك واترك مالا يعنيك ، فان فى ترك مالا يعنيك دَرَكاً لما يعنيك ، وإنما تقدم على ماقدمت، ولست تقدم على ماأخرت ، فآثر ماتلقاه غداً على مالا تراه أبداً . أبو الحسن عن ابرهيم بن سعد قال : قال خالد بن صفوان : ما الانسان لولا اللسان الا صورة ممثلة ، أو بهيمة مهملة .

أبو الحسن قال : كان « أبو بكر » خطيباً . وكان « عمرُ » خطيباً . وكان « عثمان » خطيباً . وكان « على » خطيباً .

وكان من الخطباء « معاوية » و « يزيد » و « عبد الملك » و « معاوية بن يزيد » و « مروان » و « سليمان » و « يزيد بن الوليد » و « الوليد بن يزيد » و « الوليد بن عبد الملك » و « عمر بن عبد العزيز » .

ومن خطباء بنى هاشم « زيد بن على » و « عبد الله بن حسن » و « عبد الله بن معاوية » خطباء لايجارون .

ومن خطباء النساك والعباد « الحسن بن أبى الحسن البصرى » و « مطرف بن عبد الله الحرشى » و « مؤرّق العجلى » و « بكر بن عبد الله المزنى » و « محمد بن واسع الازدى » و « يزيد بن أبان الرقاشى » و « مالك بن دينار السامى » .

وليس الامر كما قال . فى هؤلاء القاص المجيد ، والواعظ البليغ ، وذو المنطق الوجيز . فأما الخطب فانا لا نعلم أحداً يتقدم الحسن البصرى فيها . وهؤلاء وإن لم

يسموا خطباء فان الخطيب لم يكن يشق غبارهم

أبو الحسن قال : حدثني أبو سليمان الحميري قال : كان هِشامُ بن عبدالملك يقول: إني لأستصفق العمامة الرقيقة أن تكون على أذني اذا كان « عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر » يتكلم ، مخافة أن يسقط عني من حديثه شيء .

ومن الخطباء من بني عبد الله بن غطفان « ابو البلاد» وكان راوية ناسباً

ومنهم « هاشم بن عبد الاعلى » الفزاري

ومن الخطباء « حفص بن معاوية الغلابي » وكان خطيباً ، وهو الذي قال ــ حين أشرك سليمان بن علي بينه و بين مولى له على دارة القتب ــ « أشركت بيني و بين غير الكَفِيّ ، ووليتني غير السنيّ » .

ومن بني هلال بن عامر « زُرعة بن ضمرة » وهو الذي قيل : لولا غلو فيه ما كان كلامه إلا الذهب . وقام عند معاوية بالشام خطيباً فقال معاوية : يا أهل الشام هذا خالي فأتوني بخال مثله .

وكان ابنه « النعمان بن زُرعة » بن ضمرة من أخطب الناس ، وهو أحد من كان تخلص من الحجاج من فل ابن الأشعث بالكلام اللطيف .

قال سحيم بن حفص : ومن الخطباء « عاصم بن عبد الله بن يزيد الهلالي » تكلم هو و « عبد الله بن الاهتم » عند عمر بن هبيرة يفضل عاصما عليه . فقال قائل يومئذ : الخل الحامض مالم يكن ماءٌ .

ومن خطباء بني تميم « عمرو بن الاهتم » وكان يدعى المكحل لجماله، وهو الذي قيل فيه : انما شعره حلل منشرة بين أيدي الملوك تأخذ منه ماشاءت . ولم يكن في بادية العرب في زمانه أخطب منه .

ومن بني منقر « عبد الله بن الاهتم » وكان خطيباً ذا مقامات ووفادات .

ومن الخطباء « صفوان بن عبد الله بن الاهتم » وكان خطيباً رئيساً . وابنه « خالد بن صفوان » وقد وفد إلى هشام وكان من سمار أبي العباس .

ومنهم « عبد الله بن عبد الله بن الاهتم » قد ولي خراسان ووفد على الخلفاء وخطب عند الملوك .

ومن ولده « شبيب بن شيبة » بن عبد الله بن عبد الله بن الاهتم و « عبد الله

ابن عبد الله بن عبدالله بن الاهتم » و « خاقان بن الاهتم » وهو عبد الله بن عبد الله ابن عبد الله بن الاهتم

ومن خطبائهم « محمد الأحول بن خاقان » وكان خطيب بنى تميم ، وقد رأيته وسمعت كلامه

ومن خطبائهم « معمر بن خاقان » وقد وفد

ومن خطبائهم « مؤمل بن خاقان »

وقال أبو الزبير الثقفى : ما رأيت خطيبا من خطباء الامصار أشبه بخطباء البادية من المؤمل بن خاقان

ومن خطبائهم « خاقان بن المؤمل بن خاقان »

وكان «صباح بن خاقان» ذا علم و بيان ومعرفة، وشدة عارضة، وكثرة راوية، مع سخاء واحتمال ، وصبر على الحق، ونصرة للصديق، وقيام بحق الجار

ومن بنى منقر « الحكم بن النضر » وهو « أبو العلاء المنقرى » وكان يصرف لسانه حيث شاء مع جهارة واقتدار

ومن خطباء بنى صريم بن الحارث « الخزرج بن الصدّى »

ومن خطباء بنى تميم ثم من مقاعس « عمارة بن أبى سليمان»

ومن وُلد مالك بن سعيد « عبد الله » و «خير» ابنا حبيب ، كانا ناسبين عالمين أديبين دينين

ومن وُلد مالك بن سعيد « عبدالله » و « العباس » أبنا رُوبة، وكان «العباس» علامة ناسبا راوية . وكان « عبد الله » أرجز الناس وأفصحهم ، ويكنى «أبا الشعثاء » وهو « العجاج »

ومن أصحاب الاخبار والنسب « أبو بكر الصديق » رضي الله عنه ، ثم « جبير ابن مُطعم » ثم « سعيد بن المسيب » ثم « محمد بن سعيد » بن المسيب ، ثم «قتادة » و « عبيد الله بن عبد الله بن عتبة المسعودى » الذى قال فى كلمة له فى عمر بن عبد العزيز وعبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان رضى الله عنه :

فَمُسَّا تُرَابَ الأَرْضِ مِنْهُ خُلِقْتُمَا ... وَفِيهِ المَعادُ والمَصِيرُ إِلَى الحَشْرِ

وَلاَ تَأْنَفَا أَنْ تَرجِعَا فَتُسَلِّمَا ... فما حُشِيَ الانْسانُ شَرًّا مِنَ الكِبْرِ

فَلَوْ شِئْتُ أُولِي فيكُما غيرَ واحدٍ ... عَلاَنِيَةً أَوْ قالَ عِنْدِي فِي سِرِّ

فإِنْ أنا لَمْ آمُرْ ولَمْ أَنْهَ عَنْكُما ... ضَحِكْتُ لَهُ حَتّى يَلِجَّ ويَسْتَشْرِي

وهو الذى قيل له : كيف تقول الشعر مع النسك والفقه ؟ فقال : إن المصدور لا يملك أن ينفث .

وقد ذكر المصدور أبو زُبيد الطائى فى صفة الاسد فقال :

للصَّدْرِ مِنْهُ عَوِيلٌ فيهِ حَشْرَجَةٌ ... كأنَّما هُوَ مِنْ أحْشَاءِ مَصْدُورِ

ومن خطباء هذيل « أبو المليح الهذلى » أسامة بن عمير

ومنهم « أبو بكر الهذلى » كان خطيبا قاصاً ، وعالما بينا ، وعالما بالاخبار والاثار ، وهو الذى لما فاخر أهل الكوفة قال : لنا الساج ، والعاج ، والديباج ، والخراج ، والنهر العجاج .

﴿ باب من أسماء الكُهان والحُكام والُخطباء والعُلماء من قَحْطَان ﴾

قالوا : أكهن العرب وأسجعهم « سلمة بن أبى حية » وهو الذى يقال له « عزى سلمة »

ومنهم ومن خطباء عُمان « مرة بن فهم التليد » وهو الخطيب الذى أوفده المهلب إلى الحجاج

ومن العتيك « بشر بن المغيرة بن أبى صفرة » وهو الذى قال لبنى المهلب :يابنى عمى ، إنى والله قد قصرت عن شكاة العاتب ، وجاوزت شكاة المستعتب ، حتى كانى لست موصولا ولا محروماً ؛ فعدونى امرأ اخفتم لسانه، أو رجوتم شكره. وإنى وإن قات هذا فلما أبلانى الله بكم أعظم مما أبلاكم بى .

ومن خطباء اليمن ثم من حمير « الصباح بن شتى الحميرى » كان أخطب العرب

ومنهم ثم من الانصار « قيس بن الشماس » ومنهم « ثابت بن قيس بن الشماس » خطيب النبى ﷺ

ومنهم « روح بن زنباع » وهو الذى لما هم به معاوية قال : لا تشمتن بى عدواً أنت وقمته ، ولا تسوءن بى صديقا أنت سررته ، ولا تهدمن منى ركنا أنت بنيته.

هلا أتي حلمك وإحسانك على جهلي وإساءتي؟

ومن خطبائهم « الأسود الكذاب بن كعب العنسي » وكان « طليحة » خطيبا وشاعرا، وسجاعا كاهنا ناسبا . وكان « مسيلمة الكذاب » بعيدا من ذلك كله

و « ثابت بن قيس بن شماس » هو الذي قال لعامر حين قال : أما والله لئن تعرضت لعني وفني ، وذكاء سني ، لتولين عني . فقال له ثابت : أما والله لئن تعرضت لسبابي ، وشبا أنيابي ، وسرعة جوابي، لتكرهن جنابي . فقال النبي ﷺ « يكفيك الله وأبناء قيلة »

وأخذت هذا الحديث من رجل يصنع الكلام فأنا أتهمه

ومن خطباء الانصار « بشر بن عمرو بن محصن » وهو أبو عمرة الخطيب

ومن خطباء الانصار « سعد بن الربيع » وهو الذي اعترضت ابنته النبي ﷺ فقال لها : من أنت ؟ فقالت : ابنة الخطيب النقيب الشهيد، سعد بن الربيع .

ومنهم « خال حسان بن ثابت » وفيه يقول حسان :

إِنَّ خالِي خَطِيبُ جابية الجَوْ   لانَ عِنْدَ النُّعْمانِ حَيْثُ يَقُومُ

وإياه يعني حسان بقوله :

رُبَّ خالٍ لِيَ لَوْ أَبْصَرْتَهُ   سَبِطِ المِشْيَةِ في اليوْمِ الخَصِرْ

ومنهم من الرواة والنسابين والعلماء « شرقي بن القطامي الكلبي » و « محمد ابن السائب الكلبي » و « عبد الله بن عياش الهمداني » و « هشام بن محمد بن السائب الكلبي » و « الهيثم بن عدي الطائي » و « أبو روق الهمداني » واسمه « عطية بن الحارث » و « أبو مخنف لوط بن يحيي الازدي » و « محمد بن عمر الاسلمي الواقدي » و « عوانة الكلبي » و « وابن عيينه المهلبي » و « الخليل بن احمد » الفراهيدي و « خلف بن حيان الاحمر » الاشعري

قالوا: ومنا في الجاهلية « عبيد بن شرية » ومنا « شق بن الصعب » ومنا « ربيع بن ربيعة السطيح الذئبي » ومنا « المأمور الحارثي » و « الديان بن عبد المدان الحارثي » الشريفان الكاهنان .

ومنهم « عمرو بن حنظلة بن نَهد الحكم » وله يقول القائل :

حَنْظَلَةُ بْنُ نَهْدِ خيْرُ ناسٍ مِنْ مَعَدِّ

ومنهم « أبوالشطاح اللخمى »وجمع معاوية بينه وبين دَغفل بن حنظلة البكرى.
ومنهم « ابو الكناس الكندى » ومنهم « أبو مخوس الكندى » وكانا ناسبين عالمين .

ومن أصحاب الأخبار والآثار «عبدالله بن عتبة بن لهيعة » ويكنى أباعبدالرحمن.
ومن القدماء فى الحكمة والخطابة والرياسة « عبيد بن شرية » الجرهمى و « أسقف نجران » و « أُكَيْدِرْ » صاحب دومة الجندل و « أفيعى نجران » و « ذرب بن حوط » و « عُليم بن جناب» و « عمرو بن ربيعة » وهو لحى بن حارثة بن عمرو مزيقيا و « جذيمة بن مالك الابرش » وهو أول من أسرج الشمع ، ورمى بالمنجنيق

﴿ باب ذكر النسَّاك والزهَّاد من أهل البيان ﴾

« عامر بن عبد قيس » و « صلة بن أشيم » و « عثمان بن أدهم » و «صفوان بن محرز » و « الاسود بن كلثوم » و « الربيع بن خيثم » و « عمرو بن عتبة بن فرقد » و « هرم بن حيان » و « مؤرق العجلى » و « بكر بن عبد الله بن الشخير الحرشي »

وبعد هؤلاء « مالك بنَ دينار » و « حبيب أبو محمد » و « يزيد الرقاشى » و « صالح المرى » و « أبو حازم الاعرج » و « زياد » مولى عياش بن أبي ربيعة و « عبد الواحد بن زياد » و « حيان أبو الاسود » و « دهثم أبو العلاء »
ومن النساء « رابعة القيسية » و « معاذة العدوية » امرأة صلة بن أشيم و « أم الدرداء »

ومن نساء الخوارج « البلجاء » و « غزالة » و « قطام » و « حمادة» و« كحيلة »

ومن نساء الغالية « ليلى الناعطية» و«الصدوف» و«هند»
وممن كان من النساك ممن أدركناه « أبو الوليد » وهو « الحكم الكندى »

و « محمد بن محمد الحمرانى »

ومن القدماء، ممن كان يذكر بالقدر والرياسة، والبيان، والخطابة، والحكمة، والدهاء والنكراء « لقمان بن عاد » و « لقيم بن لقمان » و « مجاشع بن دارم » و « سليط بن كعب » بن يربوع، سموه بذلك لسلاطة لسانه، وقال جرير ·

إنَّ سَلِيطاً كاسْمِهِ سَلِيطُ

و « لؤى بن غالب » و « قس بن ساعدة » و « قصى بن كلاب »

ومن الخطباء البلغاء والحكام الرؤساء « أكثم بن صيفى » و « ربيعة بن حذار » و « هرم بن قطبة » و « وعامر بن الظرب » و « لبيد بن ربيعة »

وكان من الشعراء وأسماء الصوفية من النساك ممن يجيد الكلام « كلاب » و « كليب » و « هاشم الاوقص » و « أبو هاشم الصوفى » و « صالح بن عبد الجليل »

ومن القدماء العلماء بالنسب وبالغريب « الخطفى » وهو جد جرير بن عطية ابن الخطفى، وهو حذيفة بن بدر بن سلمة بن عوف بن كليب بن يربوع، وانما سمى الخطفى لابيات قالها

يَرْفَعْنَ بالليلِ إذا ما أسْدَفَا   أعْنَاقَ جِنّانٍ وهاماً رُجَّفَا

وَعَنَقاً باقِى الرَّسِيمِ خَيْطَفَا

العَنق : ضرب من السير، وهو المسبطرّ، فاذا ارتفع عن العنق قليلا فهو التزيد، فاذا ارتفع عن ذلك فهو الذميل : والرسيم فوق الذميل . والخيطف : السريع، أى يخطف كما يخطف البرق، وخيطف من الخطف، والياء زائدة فى خيطف، كما قالوا: رجل صيرف من الصرف، ورجل جيدر من الجدر، وهو القِصر، وأصل الخطف الاخذ فى سرعة، ثم استعير لكل سريع

﴿ ذكر القصاص ﴾

قص « الاسود بن سريع » وهو الذى قال :

فإنْ تَنْجُ منها تَنجُ مِنْ ذِى عَظِيمةٍ وإلاّ فإنّى لا إخالُكَ ناجِيا

وقص « الحسن » و « سعيد » بن أبى الحسن

وكان « جعفر بن الحسن » أول من اتخذ فى مسجد البصرة حلقة وأقرأ القرآن [فيها] وقص « ابرهيم التيمى »

وقص « عبيد الله بن عمير الليثى » وجلس اليه « عبد الله بن عمر » حدثنى بذلك « عمرو بن فائد » باسناد له

ومن القصاص « أبو بكر الهذلى » وهو « عبدالله بن أبى سليمان » وكان خطيبا بينا ، صاحب أخبار وآثار

وقص ابنه « مطرف بن عبد الله » بن الشخير فى مكان أبيه

ومن كبار القصاص ثم من هذيل « مسلم بن جندب » وكان قاص مسجد النبى ﷺ بالمدينة، وكان امامهم وقارئهم ، وفيه يقول عمـر بن عبد العزيز : من سره أن يسمع القرآن غضا فليسمع قراءة مسلم بن جندب

ومن القصاص « عبد الله بن عرادة » بن عبـد الله بن الوضين ، وله مسجد فى بنى شيبان .

ومن القصاص « موسى الاسوارى » وكان من أعاجيب الدنيا، كانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس فى مجلسه المشهور به فيقعد العرب عن يمينه، والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يدرى باى لسان هو أبين . واللغتان اذا التقتا فى اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتها، إلا ما ذكروا من لسان « موسى بن سيار الاسوارى » ولم يكن فى هذه الامة بعد « أبى موسى الاشعرى » أقرأ فى محراب من « موسى بن سيار »

ثم « عثمان بن سعيد بن أسعد »

ثم «يونس النحوى» ثم «المعلّى»

ثم قص فى مسجده « أبو على الاسوارى » وهو «عمرو بن فائد »ستاوثلاثين سنة ، فابتدأ لهم فى تفسير سورة البقرة فما ختم القرآن حتى مات ، لانه كان حافظا للسير ولوجوه التأويلات ، فكان ربما يفسر آية واحدة فى عدة أسابيع ، كأن الآية ذكر فيها يوم بدر ، وكان هو يحفظ مما يجوز أن يلحق فى ذلك من الاحاديث الكثيرة، وكان يقص فى فنون كثيرة من القصص ويجعل للقرآن نصيبا من ذلك. وكان « يونس بن حبيب » يسمع منه كلام العرب ويحتج به ، وخصاله المحمودة كثيرة .

ثم قص من بعده « القاسم بن يحيي » وهو « أبو العباس الضرير » لم يدرك فى القصاص مثله

وكان يقص معهما وبعدهما « مالك بن عبد الحميد المكفوف » ويزعمون أن « أبا على » لم يسمع منه كلمة غيبة قط ، ولا عارض أحدا من المخالفين والحساد والبغاة بشيء من المكافاة

فاما « صالح المرى » فانه كان يكنى «أبا بشر» وكان صحيح الكلام ، رقيق المجاس ، فذكر أصحابنا أن « سُفيان بن حبيب » لما دخل البصرة وتوارى عند « مرحوم العطار » قال له مرحوم : هل لك أن تاتى قاصا عندنا فتتفرج بالخروج والنظر الى الناس والاستماع منه ؟ فاتاه على تكره كانه ظنه كبعض من يبلغه شأنه ، فلما أتاه وسمع منطقه، وسمع تلاوته للقرآن ، وسمعه يقول : حدثنا سعيد عن قتادة، وحدثنا قتادة عن الحسن، رأى بيانا لم يحتسبه ، ومذهبا لم يكن يدانيه ، فاقبل سُفيان على مرحوم فقال : هذا ليس قاصا هذا نذير

﴿ باب ماقيل في المَخَاصِر والعِصِيّ وغيرهما ﴾

كانت العرب تخطب بالمخاصر ، وتعتمد على الأرض بالقسىِّ ، وتشير بالعصي والقنا، نعم حتى كانت المخاصر لا تفارق أيدى الملوك فى مجالسها ، ولذلك قال الشاعر:

فى كَفِّهِ خَيْزُرَانٌ رِيحُهَا عَبِقٌ ... بِكَفِّ أَرْوَعَ في عِرْنِينِهِ شَمَمُ
يُغْضِي حياءً ويُغْضَى مِنْ مَهَابَتِهِ ... فمَا يُكَلَّمُ الاّ حِينَ يَبْتَسِمُ
إِنْ قالَ قالَ بِما يَهْوَى جَمِيعُهُمُ ... وإِنْ تَكَلَّمَ يَوْماً ساخَتِ الكَلِمُ

يكادُ يُمسِكُهُ عِرْفانَ رَاحَتِهِ ... رُكْنُ الحطِيمِ إذا ماجاءَ يَسْتَلِمُ
كَمْ هاتِفٍ لَكَ مِنْ داعٍ ودَاعِيَةٍ ... يَدْعُونَ ياقُثَمَ الخيْراتِ ياقُثَمُ

وقال الشاعر قولا فسر فيه ما قلنا قال :

مجالِسُهُم خَفْضُ الحديثِ وقولُهُم ... إذا ماقَضَوْا في الأمْرِ وحْيُ المخاصِرِ

وقال الكميت بن زيد :

ونَزُورُ مَسْلَمةَ المُهَذَّ ... بَ بالمؤيَّدَةِ السَّرائِرْ
بالمُذْهَباتِ المعْجَبَا ... تِ لمُفْحَمٍ منّا وشاعِرْ
أهْلِ التّجاوُبِ والمَحا ... فِلِ والمَقاوِلِ بالمَخَاصِرْ
فَهُمُ كَذَلِكَ في المَجا ... لِسِ والمَحَافِلِ والمَشَاعِرْ

وكما قال الانصارى فى المجامع حيث يقول :

وسارَتْ بِنا سَيّارَةٌ ذاتُ سُورَةٍ ... بِكُومِ المَطايا والخُيولِ الجماهِرِ
يَؤُمُّونَ مُلْكَ الشّامِ حَتّى تَمكّنُوا ... مُلُوكاً بأرْضِ الشّامِ فَوْقَ المَنابِرِ
يُصِيبُونَ فَصْلَ القَوْلِ في كُلِّ خُطْبَةٍ ... إذا وَصَلُوا أيْمانَهُمْ بالمَخاصِرِ

وفى المخاصر والعصي ، وفى خد وجه الارض باطراف القسى ، قال الحطيئة :

أمْ مَنْ لِخَصْمٍ مُضْجِعِينَ قِسِيَّهُمْ ... صُعْرٍ خُدُودُهُمُ عِظامِ المَفْخَرِ

وقال لبيد بن ربيعة فى الاشارة :

غُلْبٌ تَشَذَّرُ بالدُّخُولِ كأنَّها ... جِنُّ البَدِيِّ رَواسِياً أقْدامُها

وقال فى خدّ وجه الارض بالعصى والقسي :

يَشِينَ صِحاحَ البِيدِ كُلَّ عَشِيَّةٍ ... بِعُوجِ السَّراءِ عِنْدَ بابٍ مُحَجَّبِ

عوج : جمع عوجاء، وهى هاهنا القوس . والسراء: شجر يعمل منه القوس : وفى مثله يقول الشاعر :

إذا اقْتَسَمَ النّاسُ فَضْلَ الفَخارِ ... أطَلْنا عَلَى الأرْضِ مَيْلَ العَصا

وقال الآخر .

كَتَبَتْ لَنَا فِي الأَرْضِ يَوْمَ مُحَرِّقٍ أَيَّامُنَا فِي الأَرْضِ يَوْماً فَيْصَلا

وقال لبيد بن ربيعة فى ذكر القسى :

ما إِنْ أَهَابُ إِذا السُّرادِقُ عَمَّهُ قَرْعُ القِسِيِّ وأُرْعِشَ الرِّعْدِيدُ

وقال معن بن أوس المزنى :

أَلا مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّى رَسُولاً عُبَيدَ اللهِ إِذْ عَجِلَ الرِّسالا

تُغافِلُ دُونَنا أَبْناءَ ثَوْرٍ ونَحْنُ الأَكْثَرُونَ حَصًى ومَالا

اذا اجْتَمَعَ القَبائِلُ جِئْتَ رِدْفاً أَمَامَ المَاسِحِينَ لَكَ السِّبالا

فلا تُعْطَى عَصَا الخُطَباءِ فِيهِمْ وقَدْ تُكْفَى المَقادَةَ والمَقالا

ومما قالوا فى حمل القناة قوله :

إِلَى امْرِىءٍ لاتَخَطَّاهُ الرِّقابُ ولا حُدْبُ الحوانِ إِذا ما اسْتُنْشِيءَ العرقُ

صُلْبُ الحيازِيمِ لاهَذرُ الكَلامِ إذا هَزَّ القَناةَ ولا مُسْتَعْجِلٌ زَهِقُ

وكما قال جرير الخطفى :

مَنْ لِلْقَناةِ إِذا مَاعَيَّ قائِلُها أَمْ لِلأَعِنَّةِ ياشبيبُ بْنُ عمَّارِ

قال : ومثل هذا قول « أبى المجيب الربعى » : ما تزال تحفظ أخاك حتى يأخذ القناة، فعند ذلك يفضحك أو يسرك . يقول : اذا قام يخطب . وفى كتاب جبل بن يزيد : احفظ أخاك الا من تفسه . وقال عبد الله بن رؤبة : سأل رجل رؤبة عن أخطب بنى تميم، فقال. «خداش بن بشر بن لبيد» (١) ـ يعنى البعيث ـ وانما قيل له «البعيث» لقوله :

تُبعِّثُ منِى ماتُبعِّثُ بعد ما أُمِرَّتْ حبالى كل مرَّتها شَزْرا (٢)

---

(١) كان فى الاصل خداش بن لبيد بن بيابة ، وهذا غلط والصواب ما أثبتناه « انظر صفحة ٥٢ »

(٢) البعيث : نقل صاحب المزهر عن وشاح ابن دريد أن البيت هكذا :

وزعم سحيم بن حفص أنه كان يقال : أخطب بنى تميم البعيث إذا أخذ القناة. وقال يونس : لعمرى لئن كان مغلباً فى الشعر لقد كان غلب فى الخطب .

ومن الشعراء من يغلب شيء قاله فى شعره على اسمه وكنيته فيسمى به (وهم) كثير فمنهم « البعيث » هذا

ومنهم عوف بن حصن (١) بن حذيفة بن بدر غلب عليه « عويف القوافى » لقوله :

سَأَكْذِبُ مَنْ قَدْ كَانَ يَزْعُمُ أنني ... إذا قُلْتُ شِعْراً لا أُجِيدُ القَوَافِيا

فسمى « عويف القوافى » :

ومنهم « يزيد بن ضرار » التغلبي غلب عليه « المزرد » لقوله :

فَقُلْتُ تَزَرَّدْهَا عُبَيْدُ فإنَّنِى ... لِدُرْدِ المَوالِي في السِّنِينِ مُزَرِّدُ

فسمى « المزرد »

ومنهم « عمرو بن سعيد » بن مالك غلب عليه « المرقش » وذلك لقوله :

الدَّارُ قَفْرٌ والرُّسُومُ كما ... رَقَّشَ فِي ظَهْرِ الأَدِيمِ قَلَمْ

فسمى « مرقشا »

ومنهم « شاس بن نهار العبدى » غلب عليه « الممزق » لقوله:

فإنْ كُنْتُ مَأْكُولا فَكُنْ خَيْرَ آكِلٍ ... وإلاَّ فأَدْرِكْنِي ولمَّا أُمَزَّقِ

فسمى « الممزق »

ومنهم « جرير بن عبد المسيح » الضبعى غلب عليه « المتلمس » لقوله :

فَهَذا أَوانُ العِرْضِ طَنَّ ذُبابُهُ ... زَنابيرُهُ والأَزْرَقُ المُتَلَمِّسُ

ومنهم « عمرو بن رباح » بن عمرو السلمى أبو خنساء بنت عمرو، غلب « الشريد »

تبعث منى ما تبعث بعدما ... أمرت قواى واستتم غريمى

(١) عوف بن حصن : كان فى الاصل: عوف بن حصين وهو خطأ صوابه ما اثبتناه . وهو عوف بن معاوية بن عقبة بن عيينه بن حصن الفزارى . شاعر فحل من شعراء الدولة الاموية، ومن ساكنى الكوفة . وهو من أحد بيوت العرب المقدمة الفاخرة

على اسمه لقوله:

تَولَّى إِخْوَتِى وَبَقِيتُ فَرْداً وَحِيداً في دِيارِهم شَرِيداً

فسمى « الشريد » وهذا كثير .

ودخل رجل من قيس عيلان على عبد الملك بن مروان فقال : زبيرى عميرى والله لا يحبك قلبي أبدا . قال : يا أمير المؤمنين إنما يجزع من فقدان الحب المرأة ولكن عدل وانصاف .

قال عمر لابي مريم الحنفى السلولى قاتل زيد بن الخطاب : لا يحبك قلبي أبدا، حتى تحب الارض الدم المسفوح.

وهذا مثل قول الحجاج : والله لاقلعنك قلع الصمغة . لان الصمغة اليابسة اذا فرقت عن الشجرة انقلعت انقلاع الجلبة . والارض لا تنشف الدم المسفوح ولا تمصه ، فمتى جف الدم وتجلب لم تره أخذ من الارض شيئا

ومن الخطباء « الغضبان بن القَبَعْثَرَى » وكان محبوسا فى سجن الحجاج ، فدعا به يوما فلما رآه قال : إنك لسمين ؟ قال : القيد والرتعة، ومن يكن ضيفا للامير يسمن

وقال يزيد بن عياض : لما نقم الناس على عثمان خرج يتوكأ على مروان وهو يقول : لكل أمة آفة ، ولكل نعمة عاهة ، وان آفة هذه الامة عيابون طعانون، يظهرون لكم ما تحبون، ويسرون ما تكرهون ،طغام مثل النعام، يتبعون أول ناعق. لقد نقموا على ما نقموه على عمر ، ولكن قمعهم ووقمهم ، والله إنى لاقرب ناصرا وأعز نفرا ، فضل فضل من مالى فمالى لا أفعل فى الفضل ماشاء ؟

ورأيت الناس يتداولون رسالة « يحيي بن يعمر » على لسان « يزيد بن المهلب » « إنا لقينا العدو فقتلنا طائفة وأسرنا طائفة ، ولحقت طائفة بعرائر الاودية وأهضام الغيطان ، وبتنا بعرعرة الجبل، وبات العدو بحضيضه . فقال الحجاج : ما يزيد بابى عذرة هذا الكلام ؟ فقيل له : ان معه يحيي بن يعمر . فحمل اليه فلما أتاه قال : أين ولدت ؟ قال : بالاهواز . قال :فأنى لك هذه الفصاحة ؟ قال:أخذتها عن أبى

عرائر الاودية : أسافلها . وعراعر الجبال: أعاليها. وأهضام الغيطان: مداخلها . والغيطان : جمع غائط ، وهو الحائط ذو الشجر

ورأيتهم يديرون فى كتبهم ان امرأة خاصمت زوجها الى يحيي بن يعمر فانتهرها

مرارا ، فقال له يحيى : إن سألتك ثمن شكرها وشبرك أنشأت تطلها وتضهلها ؟

قالوا :الضهل القليل . والشكر : الجماع . والشبر: البضع. تطلها : تذهب بحقها ، يقال دم مطلول . و يقال بئر ضهول أى قليلة الماء

فان كانوا إنما رووا هذا الكلام لانه يدل على فصاحة ، فقد باعده الله من صفة البلاغة والفصاحة ، وان كانوا انما دونوه فى الكتب وتذاكروه فى المجالس لانه غريب فابيات من شعر العجاج ، أو شعر الطرماح ، أو أشعار هذيل ، تأتى لهم مع حسن الوصف على أكثر مما ذكروا . ولو خاطب بقوله: إن سألتك ثمن شكرها وشبرك أنشأت تطلها وتضهلها . الأصمعيّ لطننت أنه سيجهل بعض ذلك ، فهذا ليس من اخلاق الكتاب ولا من آدابهم

أبو الحسن : كان غلام يقعر فى كلامه فأتى أبا الاسود الدؤلى يلتمس بعض ما عنده فقال له أبو الاسود: ما فعل أبوك ؟ قال : أخذته الحمى فطبخته طبخا ، وفتختة فتخا ، وفضختة فضخا ، فتركته فرخا .

فتخته: أضعفته ، والفتيخ: الرخو الضعيف . وفضخته: دقته

فقال أبو الاسود : فما فعلت أمرأته التى كانت تشاره وتماره وتهاره وتزاره ؟

قال : طلقها وتزوجت غيره، فرضيت ، وحظيت،وبظيت. قال أبو الاسود : قد علمنا رضيت وحظيت ، فما بظيت ؟ قال : بظيت ، حرف من الغريب لم يبلغك . قال أبو الاسود : يا بنى كل كلمة لا يعرفها عمك فاسترها كما تستر السنور خرؤها

قال ابو الحسن : مر « أبوعلقمة النحوى » ببعض طرق البصرة وهاجت به مرة فوثب عليه قوم منهم فاقبلوا يعضون ابهامه ، ويؤذنون فى اذنه ، فأفلت من أيديهم فقال : ما لكم تتكأكأون على كانكم تتكأكأون على ذى جنة ؟ افرنقعوا عنى . قالوا : دعوه فان شيطانه يتكلم بالهندية . وقال أبو الحسن : هاج بأبى علقمة الدم فأتى بحجام فقال للحجام : اشدد قصب الملازم ، وأرهف ظبات المشارط ، وأسرع الوضع ، وعجل النزع ، وليكن شرطك وخزا ، ومصك نهزا ، ولا تكرهن أبيا ، ولا تردن أتيا . فوضع الحجام محاجمه فى جونته وانصرف

فحديث أبى علقمة فيه غريب ، وفيه أنه لوكان حجامامرة مازاد على ماقال.

وليس فى كلام يحيى بن يعمر شيء من الدنيا الا أنه غريب ،وهو أيضامن الغريب

بغيض

وذكروا عن محمد بن اسحق قال : لما جاء ابن الزبير ـ وهو بمكة ـ قتل مروان الضحاك بمرج راهط قام فينا خطيبا فقال : ان ثعلب بن ثعلب حفر بالصحصحة فأخطات أسته الحفرة ، والهف أم لم تلدنى على رجل من محارب كان يرعى فى جبال مكة فيأتى بالشربة من اللبن فيبيعها بالقبضة من الدقيق فيرى ذلك سدادا من عيش ثم أنشأ يطلب الخلافة ووراثة النبوة؟

وأول هذا الكلام مستكره ، وهو موجود فى كل كتاب ، وجار على لسان كل صاحب خبر ، وقد سمعت لابن الزبير كلاما كثيرا ليس هذا فى سبيله ولا يتعلق به

وقال أبو يعقوب الاعور السلمى:

وَخَالِجَةِ ظَنٍّ يَسْبِقُ الطَّرْفَ حَزْمُهَا   تشيفُ على غَيْمٍ وتُمْكِنُ مِنْ زَحْلِ
صَدَعْتُ بِهَا والقَوْمُ فَوْضَى كأَنَّهُمْ   بكارَةُ مِرْبَاعٍ تُبَصْبِصُ لِلفَحْلِ

خلجة ظن : أى ظن سريع . تشيف : تشرف . بكارة مرباع : أى نوق صغار قد أذلت للفحل ، مرباع : أى نوق ربيع ، والمرباع : ربع الغنيمة فى الجاهلية لصاحب الجيش . قال ابن عثمة :

لكَ المِرْبَاعُ مِنْهَا والصَّفَايا   وَحُكْمُكَ والنَّشِيطَةُ والفُضُولُ

وقال رجل من بنى يربوع :

إِلَى اللهِ أَشْكُو ثُمَّ أَشْكُو إِلَيْكُمَا   وهلْ تَنْفَعُ الشَّكْوَى إِلى مَنْ يَزِيدُهَا؟
حَزَازاتِ حُبٍّ فِي الفُؤادِ وعَبْرَة   أَظَلُّ بأَطْرافِ البَنَانِ أَذُودُها
يَحِنُّ فُؤَادِي مِنْ مَخَافَةِ بَيْنِكُمْ   حَنِينَ المُزَجَّى وجْهَةً لا يُرِيدُها

وقد أحسن الآخر حيث يقول :

وأُكْرِمُ نَفْسِي عَنْ مَنَاكِحَ جَمَّةٍ   ويَقْصُرُ مَالِي أَنْ أَنالَ الغَوالِيا

وقال الآخر :

وإذا العَبْدُ أَغْلَقَ البَابَ دُونِي   لَمْ يُحَرِّمْ عَلَيَّ مَتْنُ الطَّرِيقِ

وقال الخليع السطاردى : كنا بالبادية إذ نشأ عارض ، وما فى السماء قزعة معلقة ، وجاء السيل فاكتسح أبياتاً من بنى سعد فقلت :

فَرِحْنا بِوَسْمِيٍّ تألَّقَ وَدْقُهُ عشاءً فأبكانا صباحاً فأسْرَعَا

لَهُ ظُلَّةٌ كأنَّ رَيِّقَ وَبْلِهَا عَجَاجَةُ صَيْفٍ أَوْ دُخَانٌ تَرَفَّعَا

فكانَ عَلَى قَوْمٍ سلاماً ونِعْمَةً وأَلْحَقَ عاداً آخرِينَ وتُبَّعَا

وقال أبو عطاء السندى لعبيد الله بن عباس الكندى :

إلى مَعْشَرٍ أَرْدَوا أَخاكَ وَكَفَّرُوا أَبَاكَ فماذا بَعْدَ ذاكَ تَقُولُ

وقُلْ لِعُبَيْدِ اللهِ : لَوْ كانَ جَعْفَرٌ هُوَ الحَيَّ لَمْ يَبْرَحْ وأنْتَ قَتِيلُ

فقال عبيد الله : أقول ، عض أبو عطاء ببظر أمه. فغلب عليه .

قال أبو عبيدة : قال أبو البصير فى أبى رهم السدوسى – وكان يلى الاعمال لأبى جعفر :

رَأَيْتُ أَبَارَهْمٍ يُقَرِّبُ مُنْجِحاً غُلامَ أَبِي بِشْرٍ ويَجْفُو أَبا بِشْرِ

فَقُلْتُ لِيَحْيَى: كَيفَ قَرَّبَ مُنْجِحاً؟ فقالَ : لَهُ أَيْرٌ يَزِيدُ عَلَى شِبْرِ

قال أبو عثمان : وقد طعنت الشعوبية على أخذ العرب المخصرة فى خطبها ، والقنا والقضيب ، والاتكاء والاعتماد على القوس ، والخد فى الارض ، والاشارة بالقضيب بكلام مستكره نذكره إن شاء الله تعالى فى الجزء الثالث .

ولا بد من أن نذكر فيه بعض كلام معاوية ، ويزيد ، وعبد الملك ، وابن الزبير ، وسليمان ، وعمر بن عبد العزيز ، والوليد بن يزيد ، ويزيد بن الوليد ، لان الباقين من ملوكهم لم يذكر لهم من الكلام الذى يلحق بالخطب و بصناعة المنطق إلا اليسير .

ولا بد من أن نذكر فيه أقسام تأليف جميع الكلام ، وكيف خالف القرآن جميع الكلام الموزون والمنثور ، وهو منثور غيرُ مقفى على مخارج الاشعار والاسجاع ، وكيف صار نظمه من أعظم البرهان ، وتأليفه من أكبر الحجج .

ولا بد من أن يكون فيه ذكر شأن إسماعيل على نبينا وعليه السلام وانقلاب

لغته وبيانه بعد أربع عشرة سنة ، وكيف نسى لغته التى رُبى فيها وجرى على أعراقها ، وكيف لفظ بجميع حاجاته بالعربية عن غير تلقين ولا ترتيب ، وحتى لم تدخله عجمة ولا لكنة ولا حُبسة ، ولا تعلق بلسانه شىء من تلك العادة .

ولا بد من ذكر بعض كلام المأمون ومذاهبه وبعض مايحضرنى من كلام آبائه وجلة رهطة .

ولا بد أيضاً من ذكر من صعدا لمنبر فحصر وخلط ،أو قال فأحسن ، ليكون الكتاب أكمل إن شاء الله تعالى .

ولا بد من ذكر المنابر ولم اتخذت ، وكيف كانت الخطباء من العرب فى الجاهلية وفى صدور الاسلام . وهل كانت المنابر لأمة غير أمتنا ؟ وكيف كانت الحال فى ذلك؟

وقد ذكرنا أن الامم التى فيها الأخلاق والآداب والحكم والعلم أربع ، وهى: العرب ، والهند ، وفارس ، والروم .

وقال حكيم بن عياش الكلبى :

أَلَمْ يَكُ مُلْكُ أَرْضِ اللهِ طُرًّا لأَرْبَعَةٍ لهُ مُتَمَيِّزِينا ؟
لِحِمْيَرَ والنَّجاشِي وابْنِ كِسْرَى وقَيْصَرَ غيْرَ قَوْلِ الْمُمْتَرِينا

فما أدرى بأى سبب وضع الحبشة فى هذا الموضع ، وأما ذكره لحمير فان كان إنما ذهب إلى تبَّع نفسه فى الملوك فهذا له وجه ، وأما النجاشى فليس هو عند الملوك فى هذا المكان ، ولو كان النجاشى فى نفسه فوق تبع وكسرى وقيصر لما كان أهل مملكته من الحبش فى هذا الموضع ، وهو لم يفضل النجاشىَّ لمكان إسلامه؛ يدل على ذلك تفضيله لكسرى وقيصر ، وكان وضعُ كلامه على ذكر الممالك ثم ترك الممالك وأخذ فى ذكر الملوك

والدليل على أن العرب أنطق ، وأن لغتها أوسع ، وأن لفظها أدل ،وأن أقسام تأليف كلامها أكثر ، والامثال التى ضربت أجود وأسير .

والدليل على أن البديهة مقصورة عليها ،وأن الارتجال والاقتضاب خاص فيها .
وما الفرق بين أشعارهم وبين الكلام الذى تسميه الفرس والروم شعرا ؟ وكيف صار

النسيب فى أشعارهم وفى كلامهم الذى أدخلوه فى غنائهم وفى ألحانهم إنمـا يقال على ألسنة نسائهم ؟ وهذا لا يصاب فى العرب إلا القليل اليسير . وكيف صارت العرب تقطع الالحان الموزونة على الاشعار الموزونة ، فتضع موزوناً على موزون ، والعجم تمطط الالفاظ فتقبض وتبسط حتى تدخل فى وزن اللحن فتضع موزوناً على غير موزون ؟

وسنذكر فى الجزء الثانى من أبواب اللحن والعى والغلط والغفلة أبواباً ظريفة ، ونذكر فيه النوكى من الوجوه ، ومجانين العرب ، ومن ضرب به المثل منهم ، ونوادر من كلامهم ، ومجانين الشعراء ، لست أعنى مثل «مجنون بنى عامر» «ومجنون بنى جعدة» وإنما أعنى مثل «أبى حية» فى أهل البادية ، ومثل «جعيفران» فى أهل الامصار ، ومثل «أرسيموس» اليونانى ،

وسنذكر أيضاً بقية أسماء الخطباء والنساك ، وأسماء الظرفاء والملحاء ، ان شاء الله سبحانه وتعالى .

وسنذكر من كلام الحجاج وغيره ما أمكننا في بقية هذا الجزء إن شاء الله تعالى

وقال أبو الحسن المدائنى : قال الحجاج لأنس بن مالك حين دخل عليه فى شأن ابنه عبد الله ، وكان خرج مع ابن الاشعث : لا مرحباً بك ولا أهلا ، لعنة الله عليك من شيخ جوّال فى الفتنة ، مرة مع أبى تراب ، ومرة مع ابن الاشعث ، والله لأقلعنك قلع الصمغة ، ولأعصبنك عصب السلمة ، ولأجردنك تجريد الضب . قال أنس : مَن يعنى الامير أبقاه الله ؟ قال : إياك أعنى ، أصم الله صداك . قال : فكتب أنس بذلك الى عبد الملك فكتب عبدُ الملك إلى الحجاج : بسم الله الرحمن الرحيم . يا ابن المستفرمة بعجم الزبيب ، والله لقد هممتُ أن أركلك برجلى رَكلة تهوى بها فى نار جهنم ، قاتلك الله أخيفش العينين ، أصك الرجلين ، أسود الجاعرتين ، والسلام .

وكان الحجاج أخيفش مسلق الاجفان ، ولذلك قال إمام بن أرقم النميرى ، وكان الحجاج جعله على بعض شرط أبان بن مروان ثم حبسه فلما خرج قال :

طَلِيقُ اللهِ لَمْ يَمْنُنْ عَلَيْهِ ... أَبُو دَاوُدَ وابْنُ أَبِي كَثِيرِ

ولا الحَجَّاجُ عَيْنَىْ بِنْتِ ماءٍ ... تُقَلِّبُ طَرْفَها حَذَرَ الصقورِ

لان طير الماء لا يكون أبداً إلا منساق الاجفان . والخفش دون العمش . والعصب أن تعصب الشجرة ذات الشوك بالعصاب . وأصك الرجلين تصك احداهما الاخرى

وخطب الحجاج يوماً فقال فى خطبته : والله مابقى من الدنيا إلا مثل مامضى، ولهو أشبه به من الماء بالماء ، والله ماأحب أن مامضى من الدنيا لى بعمامتى هذه .

المفضل بن محمد الضبي قال : كتب الحجاج إلى قتيبة بن مسلم أن ابعث إلى بالآدم الجعدى الذى يفهمنى و يفهم عنى . فبعث إليه غدام بن شتير . فقال الحجاج: لله دره ، ما كتبت إليه فى أمر قط إلا فهم عنى وعرف ماأريد .

قال أبو الحسن وغيره : أراد الحجاج الحج فخطب الناس فقال : أيها الناس ، إنى أريد الحج وقد استخلفت عليكم ابنى محمداً هذا ، وأوصيته فيكم بخلاف ماأوصى به رسول الله ﷺ فى الانصار ، إن رسول الله ﷺ أوصى أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم ، ألا وإنى قد أوصيته أن لا يقبل من محسنكم ولا يتجاوز عن مسيئكم ، ألا وإنكم ستقولون بعدى مقالة ما يمنعكم من إظهارها إلا مخافتى ، ألا وإنكم ستقولون بعدى لا أحسن الله له الصحابة ، ألا وإنى معجل لكم الاجابة : لا أحسن الله الخلافة عليكم . ثم نزل

وكان يقول فى خطبته : أيها الناس ، إن الكف عن محارم الله أيسر من الصبر على عذاب الله .

وقال عمرو بن عبيد رحمه الله : كتب عبد الملك بن مروان وصية زياد بيده وأمر الناس بحفظها وتدبر معانيها : إن الله عز وجل جعل لعباده عقولا عاقبهم بها على معصيته وأثابهم بها على طاعته ، فالناس بين محسن بنعمة الله عليه، ومسىء بخذلان الله إياه ، ولله النعمة على المحسن والحجة على المسيء ، فما أولى من تمت عليه النعمة فى نفسه ورأى العبرة فى غيره بأن يضع الدنيا بحيث وضعها الله فيعطى ماعليه منها ولا يتكثر بما ليس له منها ، فان الدنيا دار فناء ولا سبيل الى بقائها ، ولا بد من لقاء الله. فأحذركم الله الذى حذركم نفسه ، وأوصيكم بتعجيل ما أخرته العجزة قبل أن تصيروا إلى الدار التى صاروا إليها ، فلا تقدرون على توبة، وليس لكم منها أوبة، وأنا استخلف الله عليكم واستخلفه منكم .

وقد رُوى هذا الكلام عن الحجاج ، وزيادٌ أحق به منه

﴿ باب ما ذكروا فيه من أن أثر السيف يمحو أثر الكلام ﴾

قال جرير:

يُكَلِّفُنِي رَدَّ الْعَوَاقِبِ بَعْدَ مَا سَبَقْنَ كَسَبْقِ السَّيْفِ مَا قَالَ عَاذِلُهْ

وقال الكميت بن معروف :

خُذُوا الْعَقْلَ إِنْ أَعْطَاكُمُ الْعَقْلَ قَوْمُكُمْ وكُونُوا كَمَنْ سِيمَ الْهَوَانَ فَأَرْبَعَا

وَلاَ تُكْثِرُوا فِيهِ الضَّجَاجَ فإِنَّهُ مَحَا السَّيْفُ مَا قَالَ ابْنُ دَارَةَ أَجْمَعَا

والمثل السائر من قبل هذا : سبق السيف العذل .

ومن أهل الادب « زكريا بن درهم » مولى بنى سليم بن منصور صاحب سعيد ابن عمرو الحرشي ، وزكريا هو الذى يقول :

لاَ تُنْكِرُوا لِسَعِيدٍ فَضْلَ نِعْمَتِهِ لاَ يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لاَ يَشْكُرُ النَّاسَا

ومن أهل الادب ممن وجهه هشام الى الحرشي « السرادق بن عبد الله السدوسى » الفارسى ، ولما ظفر سلم بن قتيبة بالازد كان من الجند فى دور الازد انتهاب وإحراق وآثار قبيحة فقام شبيب بن شيبة الى سلم بن قتيبة فقال : أيها الامير ، إن هريم بن عدى بن أبى طلحة ـ وكان غير منطيق ـ قال ليزيد بن عبد الملك فى شأن المهالبة : يا أمير المؤمنين ، إنا والله ما رأينا أحداً ظلم ظلمك ، ولا نصر نصرك ، فافعل الثالثة نقلها .

قال الهيثم بن عدى : قام « عبد الله بن الحجاج » التغلبى الى عبد الملك بن مروان ، وقد كان أراد الاتصال به ، وقد كان عبدُ الملك حنقا عليه ، فأقام ببابه حولا لا يصل ثم ثار فى وجهه فى بعض ركباته فقال :

أَدْنُو لِتَرْحَمَنِي وَتَرْتُقَ خَلَّتِي وَأَرَاكَ تَدْفَعُنِى فَأَيْنَ الْمَدْفَعُ

فقال عبد الملك: الى النار . فقال :

وَلَقَدْ أَذَقْتَ بَنِي سَعِيدٍ حَرَّهَا وَابْنَ الزُّبَيْرِ فَرَأْسُهُ مُتَضَعْضِعُ

فقال عبد الملك : قد كان بعض ذاك ، وأنا أستغفر الله

وقال أبو عبيدة: كان بين الحجاج وبين « العُدَيْلِ بنِ فَرْخ » العجلى بعض الامر فتوعده الحجاج بالقتل فقال العديل :

أُخَوَّفُ بِالحَجَّاجِ حَتَّى كَأَنَّمَا ... يُحَرَّكُ عَظْمٌ فِى الفُؤَادِ مَهِيضُ

وَدُونَ يَدِ الحَجَّاجِ مِنْ أَنْ تَنَالَنِى ... بِسَاطٌ لِأَيْدِى اليَعْمَلَاتِ عَرِيضُ

مَهَامِهُ أَشْبَاهٌ كَأَنَّ سَرَابَهَا ... مُلَاءٌ بِأَيْدِى الغَاسِلَاتِ رَحِيضُ

ثم ظفر به الحجاج فقال له : ياعديل ، هل نجاك بساطك العريض ؟ فقال: أيها الامير ، أنا الذى أقول فيك :

وَلَوْ كُنْتُ بِالعَنْقَاءِ أَوْ بِأَسُومِهَا ... لَكَانَ لِحَجَّاجٍ عَلَىَّ دَلِيلُ

خَلِيلُ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ وَسَيْفُهُ ... لِكُلِّ إِمَامٍ مُصْطَفًى وَخَلِيلُ

بَنَى قُبَّةَ الإِسْلَامِ حَتَّى كَأَنَّمَا ... هَدَى النَّاسَ مِنْ بَعْدِ الضَّلَالِ رَسُولُ

فقال له الحجاج : اربح نفسك ، واحقن دمك ، وإياك واختها ، فقد كان الذى بينى وبين قتلك أقصر من إبهام الحبارى .

قال أبو الحسن : وقام الوليد بن عتبة بن أبى سفيان خطيباً بالمدينة ، وكان واليها، يعنى معاوية ويدعو الى بيعة يزيد ، فلما رأى روحُ بنُ زنباع إبطاءهم قال : أيها الناس ، إنا لا ندعوكم إلى لخم وجذام وكلب ، ولكنا ندعوكم إلى قريش ، ومن جعل الله له هذا الامر واختصه به ، وهو يزيد بن معاوية ، ونحن أبناء الطعن والطاعون وفضلات الموت ، وعندنا إن أجبتم وأطعتم من المعونة والفائدة ماشئتم . فبايع الناس

قال: وخطب ابرهيم بن اسماعيل من وُلد المغيرة المخزومى فقال :

أَنَا ابْنُ الوَغَى مَنْ شَاءَ أَحْرَزَ نَفْسَهُ ... (صَقْراً يَلُوذُ حَمَامُهُ بِالعَرْفَجِ)

ثم قال :

اسْتَوْثِقِى أَحْمِرَةَ الوَجِينِ ... سَمِعْنَ حِسَّ أَسَدٍ حَرُونِ

فَهُنَّ يَضْرِطْنَ وَيَنْتَزِين

م قال : والله إنى لابغض القرشي أن يكون فظا ، ياعجباً لقوم يقال لهم : من أبوكم ؟ فيقولون : أمنا من قريش . فتكلم رجل من عرض الناس وهو يخطب، فقال له غيره : صه ، فان الامام يخطب . فقال : إنما أُمرنا بالانصات عند قراءة القرآن، لاعند ضراط أحمرة الوجين ؟

وقال آخر : سمعت « ابن هبيرة » على هذه الأعواد وهو يقول فى دعائه : اللهم انى أعوذ بك من عدوّ يسرى ، ومن جليس يفرى ، ومن صديق يطرى .

قال أبو الحسن : كان « نافع بن علقمة » بن نضلة بن صفوان بن محرث خال مروان واليا على مكة والمدينة ، وكان شاهراً سيفه لايغمده ، وبلغه أن فتى من بنى سهم يذكره بكل قبيح ، فلما أتى به وأمر بضرب عنقه قال له الفتى : لاتعجل علىَّ، ودعنى أتكلم . قال : أو بك كلام ؟ قال : نعم، وأزيد : يانافع ، وُليت الحرمين تحكم فى دمائنا وأموالنا ، وعندك أربع عقائل من العرب ، وبنيت ياقوتة بين الصفا والمروة — يعنى داره — وأنت نافع بن علقمة بن نضلة بن صفوان بن محرث، أحسن الناس وجهاً وأكرمهم حسبا ، وليس لنا من ذلك إلا التراب ، فلم نحسدك على شىء منه ولم ننفسه عليك ، ونفست علينا أن نتكلم ؟ فقال : تكلم حتى ينفك فكاك .

على بن مجاهد عن جعد بن أبى الجعد ، قال صعصعة بن صوحان : ماأعيانى جواب أحد ماأعيانى جواب عثمان ، دخلت عليه فقلت له : أخرجنا من ديارنا وأموالنا أن قلنا ربنا الله . قال : نحن الذين أخرجنا من ديارنا وأموالنا أن قلنا ربنا الله ، فمنا من مات بأرض الحبشة ومنا من مات بالمدينة ؟

وقال الحجاج على منبره : والله لألحونكم لحو العصا ، ولأعصبنكم عصب السلمة، ولأضربنكم ضرب غرائب الابل . ياأهل العراق ، ياأهل الشقاق والنفاق، ومساوئ الاخلاق ، إنى سمعت تكبيراً ليس بالتكبير الذى يراد به الله فى الترغيب ، ولكنه التكبير الذى يراد به الترهيب ، وقد عرفت أنها عجاجة تحتها قصف فتنة . أى بنى اللكيعة، وعبيد العصا ، وبنى الاماء ، والله لئن قرعت عصا لأتركنكم كامس الدابر .

مالك بن دينار قال : ربما سمعت الحجاج يخطب ويذكر ماصنع به أهل

العراق وما صنع بهم ، فيقع في نفسي أنهم يظلمونه ، وأنه صادق ، لبيانه وحسن تخلصه بالحجج .

وقسم الحجاج مالا ، فأعطى منه مالكَ بنَ دينار فقبل ، وأراد أن يدفع منه إلى حبيب أبي محمد فأبى أن يقبل منه شيئاً . ثم مر حبيب بمالك وإذا هو يقسم ذلك المال ، فقال له مالك : أبا محمد ، لهذا قبلناه . فقال له حبيب : دعني مما هناك ، أسألك بالله : الحجاج اليوم أحب اليك أم قبل اليوم ؟ قال : بل اليوم . فقال حبيب : فلا خير فى شيء حبب اليك الحجاج .

ومر « غَيْلانُ بنُ خَرَشَةَ » الضَّبِّيّ مع « عبدالله بن عامر » على نهر عبدالله الذى يشق البصرة ، فقال عبد الله : ما أصلح هذا النهر لأهل هذا المصر ؟ فقال غيلان : أجل أيها الامير ، يعلم القوم فيه صبيانهم السباحة ، ويكون لشفاههم ومسيل مياههم ، وتأتيهم فيه ميرتهم . قالوا : ثم مر غيلان يساير زياداً على ذلك النهر ، وكان قد عادى ابن عامر ، فقال زياد : ما أضر هذا النهر بأهل هذا المصر ؟ فقال غيلان : أجل والله أيها الامير ، تنزمنه دُروهم ، ويغرق فيه صبيانهم ، ومن أجله تكثر بعوضهم .

فالذين كرهوا البيان إنما كرهوا مثل هذا المذهب ، فأما نفسُ حسن البيان فليس يذمه إلا من عجز عنه ، ومن ذم البيان مدح العيّ وكفى بذلك جهلا وخبالا

ولخالد بن صفوان فى الجبن المأكول كلام ذهب فيه شبيهاً بهذا المذهب

ورجع طاوس عن مجلس محمد بن يوسف ــ وهو يومئذ والى اليمن ــ فقال : ماظننت أن قول « سبحان الله » يكون معصية لله حتى كان اليوم ، سمعت رجلا أبلغ ابنَ يوسف عن رجل كلاماً ، فقال له رجل فى المجلس « سبحان الله » كالمستعظم لذلك الكلام ، فغضب ابنُ يوسف

قال أبو الحسن وغيره : دخل يزيدُ بن أبى مسلم على سليمان بن عبد الملك ــ وكان دميما ــ فلما رآه قال : على رجل أجَرَّكَ رَسَنَكَ وسلّطَكَ على المسلمين لعنة الله. فقال : ياأمير المؤمنين ، انك رأيتنى والامرُ عنى مدبر ، ولو رأيتنى والأمر عليّ مقبل لاستعظمتَ من أمرى مااستصغرت . فقال سليمان : أفترى الحجاجَ بلغ قعر جهنم بعدُ ؟ فقال يزيد : يا أمير المؤمنين ، يجيء الحجاج يوم القيامة بين أبيك وأخيك ، قابضاً على يمين أبيك وشمال أخيك ، فضعه من النار حيث شئت .

وذكر يَزِيدُ بنُ المهلب يَزِيدَ بنَ أبي مُسلم بالعفة عن الدينار والدرهم ، وهمّ أن يستكفيه مُهماً من أمره ، فقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : ألا أدلك على من هو أزهد فى الدينار والدرهم منه ، وهو شر الخلق ؟ قال : بلى . قال : ابليس .

وقال أُسَيْلِم بن الاحنف للوليد بن عبد الملك قبل أن يستخلف : أصلح الله الامير ، اذا ظننت ظناً فلا تحققه ، واذا سألت الرجال فسلهم عما تعلم ، فاذا رأوا سرعة فهمك لما تعلم ظنوا بك ذلك فيما لا تعلم . ودُسّ من يسأل لك عما لا تعلم .

وكان أُسَيْلِم بن الأحنف الاسدى ذا بيان وأدب وعقل وجاه ، وهو الذى يقول فيه الشاعر :

ألا أيُّها الرَّكْبُ المخِبُّونَ هَلْ لَكُمْ ... بِسَيِّدِ أهْلِ الشَّامِ تُحْبَوا وَتَرْجِعُوا

أُسَيْلِمُ ذَاكُمْ لاَ خَفَا بِمكَانِهِ ... لِعَيْنٍ تَدَجَّا أوْ لِأُذْنٍ تَسَمَّعُ

مِنَ النَّفَرِ الْبِيضِ الَّذِينَ إِذَا انْتَمَوْا ... وَهَابَ الرِّجَالُ حَلْقَةَ الْبَابِ قَعْقَعُوا

جَلاَ الأَذْفَرُ الأَحْوَى مِنَ الْمِسْكِ فَرْقَهُ ... وَطِيبُ الدهَانِ رَأسَهُ فَهْوَ أَنْزَعُ

إِذَا النَّفَرُ السُّودُ الْيَمَانُونَ حَاوَلُوا ... لهُ حَوْكَ بُرْدَيْهِ أَرَقُّوا وَأَوْسَعُوا

وهذا الشعر من أشعار الحفظ والمذاكرة

الهيثم بن عدى قال : قدمت وفود العراق على سليمان بن عبد الملك بعدما استخلف ، فأمرهم بشتم الحجاج ، فقاموا يشتمونه ، فقال بعضهم : ان عدوّ الله الحجاج كان عبداً زَبَّاباً ، قَنوَّر بن قَنوَّر ، لا نسب له فى العرب . قال سليمان : أى شتم هذا ؟ ان عدو الله الحجاج كتب الى : انما أنت نقطة من مداد . فان رأيت فىَّ ما رأى أبوك وأخوك كنتُ لك كما كنت لهما . والا فانا الحجاج وأنت النقطة ، فان شئتُ محوتك وان شئتُ أثبتك . فالعنوه لعنه الله . فاقبل الناس يلعنونه . فقام ابن أبى بردة بن أبى موسى الاشعرى فقال : ياأمير المؤمنين . إنا نخبرك عن عدو الله بعلم . قال : هات . قال : كان عدو الله يتزين تزين المومسة . ويصعد المنبر فيتكلم بكلام الاخيار . فاذا نزل عمل عمل الفراعنة . وأكذب فى حديثه من الدجال . فقال

سليمان لرجاء بن جيوة : هذا وأبيك الشتم . لا ماتأتى به السفلة .

وعن عوانة قال : قطع ناس من عمرو بن تميم وحنظلة على الحجاج بن يوسف، فكتب اليهم : من الحجاج بن يوسف ، أما بعد فانكم استخلصتم الفتنة ، فلا عن حق تقاتلون ، ولا عن منكر تنهون . وأيم الله ، انى لاهم أن يكون أول مايردعليكم من قبلى خيل تنسف الطارف والتالد ، وتدع النساء أيامى ، والابناء يتامى ، والديار خرابا ، والسواد بياضا . فأيما رفقة مرت بأهل ماء فأهل ذلك الماء ضامنون لها حتى تصير الى الماء الذى يليه ، تقدمة منى اليكم ، والسعيد من وُعظ بغيره والسلام

مسلمة بن محارب قال : كان الحجاج يقول : أخطبُ النـاس صاحب العمامة السوداء بين أخصاص البصرة ، اذا شاء خطب ، واذا شاء سكت .

يعنى الحسن . يقول : انه لم ينصب نفسه للخطب

ولما اجتمعت الخطباء عند معاوية في شأن يزيد وفيهم الاحنف قام رجل من حمير فقال : انا لا نطيق أفواه الـكمال ، بريد الجمال ــ عليهم المقال ، وعلينا الفعال.

وهذا من الحميرى يدل على تشادق خطباء نزار

سفيان بن عيينة قال : قال ابن عباس : اذا ترك العالم قولَ لاأدرى أصيبت مقاتله . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : من قال:لاأدرى.فقدأحرز نصف العلم لان الذى له على نفسه هذه القوة فقد دلنا على جودة التثبت وكثرة الطلب وقوة المنة

وقيل للمسيح بن مريم صلوات الله عليــه : من نجالس ؟ قال : من يزيد فى علمـكم منطقه ، وتذكركم الله رؤيته ، ويرغبكم فى الآخرة عمله .ومر المسيح بقوم يبكون فقال : ما لهؤلاء يبكون ؟ قالوا : يخافون ذنوبهم.قال : اتركوها يغفر لـكم :

قال الوصافى دخل الهيثم بن الاسود بن العريان ــ وكان شاعراً خطيباــ على عبد الملك بن مروان فقال له : كيف تجدك ؟ قال : أجدنى قد ابيض منى ما كنت أحب أن يسود ، وأسود منى ما كنت أحب أن يبيض ، واشتد منى ما كنت أحب أن يلين ، ولان منى ما كنت أحب أن يشتد . ثم أنشد:

إِسْمعْ أُنَبّئْكَ بِآيَاتِ الْـكِبرْ نَوْمُ الْعِشَاءِ وَسُعَالٌ بِالسَّحَرْ
وَقِلَّةُ النَّوْمِ إِذَا اللَّيْلُ اعْتَكَرْ وَقِلَّةُ الطُّعْمِ إِذَا الزَّادُ حَضَرْ

وَسُرْعَةَ الطَّرْفِ وَتَحْمِيجُ النَّظَرْ ... وَحَذَراً أَزْدَادُه إِلي حَذَرْ

وَتَرْكِيَ الْحَسْنَاءَ فِي قَبْلِ الطُّهُرْ ... وَالنَّاسُ يَبْلَوْن كَمَا يَبْلَى الشَّجَرْ

وقالوا :مروا الاحداث بالمراء،والكهول بالفكر . وقال عبد الله بن الحسين: المراء رائد الغضب . فاخزى الله عقلا ياتيك به الغضب .

وقالوا : أربعة تشتد معاشرتهم : الرجل المتوانى ، والرجل العالم ،والفرس المرح، والملك الشديد المملكة . وقال غاز أبو مجاهد يعارضه : أربعة تشتد مؤنتهم: النديم المعربد ، والجليس الاحمق ، والمغنى التائه ، والسفلة اذ نفروا .

وقال أبو شمر الغسانى : أقبل على فلان باللحظ واللفظ . وما الكلام الازجر أو وعيد .

« قال عمير بن الحباب — وروى ذلك عنه مسعر — ما أغرت على حي في لجاهلية أحزم امرأة ولا أعجز رجلا من كلب ، وأحزم رجلا وأعجز امرأة من تغلب . وقامت امرأة من تغلب إلى الجحاف بن حكيم ـ حين أوقع بالبشر فقتل الرجال وبقر بطون النساء ـ فقالت له : فض الله فاك ، وأصمك وأعماك ،وأطال سهادك ،وأقل رقادك . فوالله إن قتلت الا نساء أسافلهن دُمى . وأعاليهن ثدى . فقال الجحاف لمن حوله : لولا أن تلد مثلها لخليت سبيلها . فبلغ ذلك الحسن فقال: إنما الجحاف جذوة من نار جهنم .

وكان عامر بن الظرب العدوانى حكيما وكان خطيباً رئيساً ، وهو القائل:يامعشر عدوان ، إن الخير ألوف عزوف ، ولن يفارق صاحبه حتى يفارقه . وانى لم أكن حكيماً حتى اتبعتُ الحكماء ، ولم أك سيدكم حتى تعبدت لكم .

وقال أعشي بنى شيبان :

وَلاَ أَنَا فِي أَمْرِى وَلاَ فِى خَلِيقَتِي ... بِمُهْتَضَمٍ حَقِّى وَلاَ قَارِعٍ سِنِّى

وَلاَ مُسْلِمٍ مَوْلاَىَ مِنْ شَرِّ مَاجَنَى ... وَلاَ خَائِفٍ مَوْلاَىَ مِنْ شَرِّ ما أَجْنِى

وإِنَّ فُؤَاداً بَيْنَ جَنْبَيَّ عَالِمٌ ... بِمَا أَبْصَرَتْ عَيْنِي وما سَمِعَتْ أُذْنِى

وَفَضَّلَنِى فِى الْقَوْلِ وَالشِّعْرِ أَنَّنِى ... أَقُولُ بِمَا أَهْوَى وأَعْرِفُ مَا أَعْنِى

وقال رجل من ولد العباس : ليس ينبغى للقرشي أن يستغرق فى شيء من العلم الا علم الاخبار . فأما غير ذلك فالنتف والشذر من القول .

وقال آخر :

وَصَافِيَةٍ تُغْشى الْعيُونَ رَقِيقَةٍ رَهِينَةِ عام في الدنَانِ وَعامِ
أَدَرْنَا بِهَا الكَاسَ الرَّوِيَّةَ بيْننا مِنَ الليْلِ حتّى انْجابَ كلّ ظَلاَمَ
فَما ذَرّ قَرْنُ الشَّمْس حتَّى كَأَنَّنَا منَ الْعِيّ نَحكِى أَحْمَدَ بنَ هِشَامَ

ومر رجل من قريش بفتى من ولد عتاب بن أسيد وهو يقرأ كتاب سيبويه فقال : أف لكم ، علم المؤدبين وهمة المحتاجين ؟ وقال ابن عتاب : يكون الرجل نحوياً عروضياً ،وقساماً فرضياً ، وحسن الكتابة جيد الحساب ، حافظاً للقرآن ، راوية للشعر ، وهو يرضى أن يعلم أولادنا بستين درهما ، ولو أن رجلا كان حسن البيان ، حسن التخريج للمعانى . ليس عنده غير ذلك ، لم يرض بألف درهم .

لأن النحوى الذى لا إمتاع عنده كالنجار الذى يدعى ليعلق باباً وهو أحذق الناس ثم يفرغ من تعليقه ذلك البـاب فيقال له انصرف . وصاحب الامتاع يراد فى الحالات كلها .

وقال عبد الله بن يزيد السفيانى : عوّد نفسك الصبر على جليس السوء فانه لا يكاد يخطئك . وقال سهل بن عبد العزيز : من ثقل عليك بنفسه ، وغمك فى سؤاله، فألزمه أذنا صماء ، وعينا عمياء . سهيل بن أبى صالح عن أبيـه قال : كان أبو هريرة إذا استثقل رجلا قال : اللهم اغفر له وأرحنا منه . وقال ابن أبى أمية : شهدت الرقاشى فى مجلس وكان الى بغيضاً مقيتا

فَقالَ اقْتَرِحْ كُلَّ مَا تَشْتَهِي فَقُلْتُ اقْتَرَحْتُ عَلَيْكَ السُّكوتَا

وقال ابن عباس : العلم أكثر من أن يحصى ، فخذوا من كل شيء أحسنه .

المدائنى عن العباس بن عامر قال : خطب محمد بن الوليد بن عتبة إلى عمر ابن عبد العزيز رحمه الله أخته فقال : الحمد لله رب العزة والكبرياء . وصلى الله على محمد خاتم الأنبياء . أما بعد فقد أحسن بك ظناً من أودعك حرمته ، واختارك ولم يختر

عليك . وقد زوجناك على ما في كتاب الله . إمساكٌ بمعروف أو تسريحٌ باحسان .

وخطب أعرابي وأعجله القول وكره أن تكون خطبته بلا تحميد ولا تمجيد فقال : الحمد لله غير ملال لذكر الله . ولا إيثار غيره عليه : ثم ابتدأ القول في حاجته

وسأل أعرابي ناساً فقال : جعل الله حظكم في الخير ، ولا جعل حظ السائل منكم عذرة صادقة .

وكتب ابرهيم بن سيابة الى صديق له كثير المال ، كثير الدخل ، كثير النض ، إما مستسلفاً وإما سائلا ، فكتب اليه الرجل : العيال كثير ، والدين ثقيل ، والدخل قليل ، والمال مكذوب عليه . فكتب اليه ابرهيم : إن كنت كاذباً فجعلك الله صادقاً ، وان كنت محجوجاً فجعلك الله محذورا .

وقال الشاعر :

لعلَّ مُفيداتِ الزَّمانِ يُفِدْنَنِي   بَنِي صامتٍ في غيرِ شيءٍ يَضيرُها

وقال أعرابي : اللهم لا تنزلني ماء سوء فاكون إمرأ سوء . وقال أعرابي : اللهم قني عثرات الكرام . وسمع مجاشع الربعي رجلا يقول : الشحيح أعذر من الظالم . فقال : أخزى الله شيئين خيرهما الشح :

وأنشدنا أبو فروة :

إني مَدَحتُكَ كاذِباً فأثبتَنِي   لمّا مَدَحتُكَ ما يُثابُ الكاذِبُ

وأنشد علي بن معاذ :

ثالبَنِي عمرٌو وثالبتُهُ   فأثِمَ المثلوبُ والثالبُ

قُلتُ لهُ خيراً وقالَ الخنا   كلٌّ على صاحبِهِ كاذبْ

أبو معشر قال : لما بلغ عبد الله بن الزبير قتل عبد الملك بن مروان عمرو ابن سعيد قام خطيباً فقال : إن أبا ذبان قتل لطيمَ الشيطان ، كذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون .

ولما جلس عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه على المنبر قال : يا أيها الناس ، إن الله قد فتح عليكم أفريقية ، وقد بعث إليكم ابنُ أبي سرح عبدَ الله بن الزبير

بالفتح : قم يا ابن الزبير . قال : فقمت وخطبت ، فلما نزلت قال : يا أيها الناس ، أنكحوا النساء على آبائهن وأخواتهن ، فانى لم أر لأبى بكر الصديق ولداً أشبه به من هذا .

وقال الجرمى :

أَعْدَدْتُهُ ذُخْراً لِكلِّ مُلِمَّةٍ ... وَسَهْمُ المَنَايَا بِالذَّخَائِرِ مُولَعُ

وذكر أبو العيزار جماعة من الخوارج بالادب والخطب :

وَمُسَوَّمٍ لِلْمَوْتِ يَرْكَبُ دِرعَهُ ... بَينَ القَوَاضِبِ وَالقَنَا الخَطَّارِ

يَدْنو وَتَرْفَعُهُ الرِّمَاحُ كأنَّهُ ... شِلْوٌ تَنَشَّبَ فِي مَخَالِبِ ضَارِ

فَثَوَى صَرِيعاً وَالرِمَاحُ تَنُوشُهُ ... إِنَّ الشُّرَاةَ قَصِيرَةُ الأَعمَارِ

أُدَبَاءُ إِمَّا جِئْتَهُمْ خُطَبَاءُ ... ضُمَنَاءُ كل كَتِيبَةٍ جَرَّارِ

ولما خطب «سفيان بن الابرد» الاصم الكلبى ، فبلغ فى الترغيب والترهيب المبالغ ، ورأى «عبد الله بن هلال اليشكرى» أن ذلك قد فت أعضاد أصحابه أنشأ يقول:

لَعمْرِى لَقَدْ قَامَ الأَصَمُّ بِخُطْبَةٍ ... لَهَا فِي صُدُورِ المُسْلِمِينَ غَلِيلُ

لَعمْرِى لَئِنْ أَعْطَيْتُ سُفْيَانَ بَيْعَتِي ... وَفَارَقْتُ دِينِي إِنَّنِي لَجَهُولُ

فت فى عضدى : أى غرنى وخوفنى .

وقال أحد الخطباء الذين تكلموا عند الاسكندر ميتا : كان أمس أنطق منه اليوم ، وهو اليوم أوعظ منه أمس . فاخذ أبو العتاهية هذا المعنى بعينه فقال :

بَكَيْتُكَ يَاعَلِىُّ بِدَرِ عَيْنِي ... فَلَمْ يُغْنِ البُكَاءُ عَلَيْكَ شَيا

طَوَتْكَ خُطُوبُ دَهْرِكَ بَعْدَ نَشْرٍ ... كَذَاكَ خُطوبُهُ نَشْراً وَطَيَّا

كَفَى حُزْناً بِدَفْنِكَ ثُمَّ إِنِّى ... نَفَضْتُ تُرَابَ قَبْرِكَ مِنْ يَدَيَّا

وَكَانَتْ فِي حَيَاتِكَ لِى عِظَاتٌ ... وَأَنْتَ اليَوْمَ أَوْعَظُ مِنْكَ حَيَّا

ومن الاسجاع الحسنة قول الاعرابية لابنها حين خاصمته الى عامل الماء : أما

كان بطني لك وعاء ؟ أما كان حجري لك فناء ؟ أما كان ثديي لك سقاء ؟ فقال ابنها : أصبحت خطيبة ، رضى الله تعالى عنك .

لأنها قد أتت على حاجتها بالكلام الوجيز المتخير كما يبلغ ذلك الخطيب بخطبته

وقال النمر بن تولب :

وَقَالَتْ أَلاَ فاسْمَعْ لِلفْظِي وَخُطْبَتِي فَقُلْتُ سَمِعْنا فَانْطِقِي وأَصِيبِي

فَلَمْ تنطقي حقًّا ولستِ بأهْلِهِ فقبحتِ مِنْ قائلٍ وخطيبِ

وقال أبو عياد كاتب أبي خالد : ماجلس أحد قط بين يديّ إلا تمثل لى أنى سأجلس بين يديه .

قال الله عز وجل «وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً» ليس يريد بلاغة اللسان، وان كان اللسان لايبلغ من القلوب حيث يريد الا بالبلاغة

وكانت خطبة قريش فى الجاهلية ـ يعنى خطبة النساء ـ : باسمك اللهم. ذكرت فلانة وفلان بها مشغوف . باسمك اللهم . لك ماسألت ولنا ما أعطيت .

ولما مات عبدُ الملك بن مروان صعد المنبر الوليد ابنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : لم أر مثلها مصيبة ، ولم أر مثلها ثوابا : موت أمير المؤمنين ، والخلافة بعده . إنا لله وإنا إليه راجعون على المصيبة ، والحمد لله على النعمة . انهضوا فبايعوا على بركة الله وحكم الله . فقام اليه عبد الله بن همام فقال :

اللهُ أعطاكَ التى لَا فَوْقَها وَقَدْ أرادَ المُلْحِدُون عَوْقَهَا

عنكَ ويأبَى اللهُ إلا سَوْقَها إليكَ حتى قلدُوك طوْقَهَا

فبايع الناس

وقيل لعمرو بن العاص فى مرضه الذى مات فيه : كيف تجدك ؟ قال : أجدنى أذوب ولا أثوب ، وأجد نجوى اكثر من رُزْئى ، فما بقاء الشيخ على ذلك ؟

وقيل لاعرابى كانت به أمراض عدة : كيف تجدك ؟ قال : أما الذى يعمدنى فحصر وأسر .

وقال مقاتل : سمعت يزيد بن المهلب يخطب بواسط فقال : يا أهل العراق ،

يا أهل السبق والسباق، ومكارم الاخلاق ، ان أهل الشام فى أفواههم لقمة دسمة قد رتبت لها الاشداق ، وقاموا لها على ساق ، وهم غير تاركيها لكم بالمراء والجدال ، فالبسوا لهم جلود النمور

انتهى الجزء الأول ويتلوه الجزء الثانى
وأوله « استدراك وتكميل لترجمة الجاحظ »

فهرس الجزء الاول

من كتاب البيان والتبيين

تنبيه ورجاء

وقع أثناء الطبع بعض الخطأ المرجو من القارىء الكريم اصلاحه قبل المضى فى القراءة

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٦	١٦	فنون	فنونه
١٠	٧	الحقبرة	الحفيرة
١١	٢٢	امرا	امرأ
١٦	١٩	عبد الله	عبدان
١٨	٢٣	فقليل	فقيل
٣١	٧	وقد ذكر	وقد ذكره
..	١١	غزّالاً	غزّالاً
٣٧	١٦	شيطانه	لشيطانه
٤١	١٦	واختبارا	واختيارا
٤٦	٢٦	ذاك	ذات
٥٦	٢٣	تيم	تيم
٥٧	١٩	الضحم	الضجم
٦١	١	جمعيا	جميعا
٦٣	١٣	انشاء	إنشاد
٦٦	٣	السين	العين
٧٠	٦	غنى	غنى
٧٢	٢	من أنهارك	من شق أنهارك
٧٧	٧	لوثيق	ألوثيق
٧٩	١٨	تهمة	النهمة
٨٢	٣	صولجان	صوحان
٨٥	٢٦	دخل معاوية	دخل على معاوية
٨٦	٢٤	من كلمة	كلمة
٨٦	٢٤	الصيحة	الصحيحة
٨٧	١٥	العزى	العنبرى
٩٢	٢٣	لى	الى
٩٤	٢٢	الى بنى مخزوم الى بنى مخزوم	الى بنى مخزوم

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
١٠٢	٢٤	كثير	كثير
١١٠	١٠	قال زعم	فان زعم
١١٠	١٢	والمتفهق	والمتفيهق
١١٧	٢	أمر	أمرىء
١٢٧	٢٣	درام	دارم
١٢٨	١	على	أعلى
١٢٨	٢٣	يكن	يكنى
١٢٩	٧	بألسنهم	بألسنتهم
١٣٠	١٩	وقوة المسنة	وقوة المنة
١٣٣	٧	نرار	نزار
١٣٣	١٩	عررة	عروة
١٣٧	٦	وقع	فوقع
١٤٨	١٨	تجاهد	تجدها
١٤٩	٥	بن سلمى	بن أبى سُلمى
١٥٠	٢٧	الدا به لولدد	الولد بعد الولد
١٥١	١٩	يجمعها	يجمعهما
١٧٢	١١	امر	امرأ
١٧٥	٢٤	أى	أن
١٨٣	١٨	تراقش	براقش
١٨٩	٩	واحد	واحدها
١٩٠	٢٤	لدن شاب	لدن شب
٢٠١	١٨	ونفيل عبدالعزى	ونفيل بن عبد العزى
...	٢٢	النسابة البكرى	والنسابة البكرى
٢٠٤	١٩	وزرى	وأزرى
٢٠٨	٢٣	وعمر	وعمرو
٢٣٠	١٨	اخفتم	خفتم